الإسلام
وتحرير الفكر الإنسانى

بحوث ودراسات فى الدين والحياة

تأليف

العلاّمة الباحث الكبير

محمد فريد وجدى

جمعها وراجعها وقدم لها

محمد رجب البيومى

عضو مجمع البحوث الإسلامية

الدار المصرية اللبنانية

الإسلام وتحرير الفكر الإنسانى

بحوث ودراسات فى الدين والحياة

بيانات الفهرسة أثناء النشر
(الإدارة المركزية لدار الكتب)
وجـدى ، محمـد فـريـد بـن مصطفـى ،
1954 - 1875
الإسلام وتحرير الفكر الإنسانى : بحوث
ودراسات فى الدين والحياة / تأليف محمد
فريد وجدى، جمعها وراجعها دكتور محمد
رجب البيومى . ـ ط 1. ـ القاهرة : الدار
المصرية اللبنانية ، 2006 .
248 ص ؛ 24 سم .
تدمك 2- 045- 427-977
1- الإسلام والفلسفة بحوث .
أ - البيومى، محمد رجب (جامع ومقدم) .
ب - العنوان .
. 214,1072

الدار المصرية اللبنانية
16 عبـد الخالـق ثروت ـ تليفـون: 3910250
فاكس: 3909618 - ص.ب 2022 ـ القاهـرة
e-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com
تجهيزات فنية: الإسـراء ـ تليفون: 3143637
طبع: آمـون ـ تليفون: 7944517 - 7944356
رقم الإيداع: 18610 / 2006
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى: رمضان 1427هـ ـ سبتمبر 2006 م .

١/١٤ ٢
م ٣ ٢

الإسلام وتحرير الفكر الإنسانى

بحوث ودراسات فى الدين والحياة

تأليف

العلاّمة ، الباحث الكبير

محمد فريد وجدى

جمعها وراجعها وقدم لها

الدكتور محمد رجب البيومى

(عضو مجمع البحوث الإسلامية)

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الكتاب

- مقدمة كاشفة، للدكتور محمد رجب البيومى ٩
- العالم كله يتلمس دين الفطرة اليوم ٢٧
- المساواة الصحيحة، والمساواة الزائفة ٣٥
- أثر القرآن فى تحرير الفكر الإنسانى ٤١
- الديانة صلاة القلب ٤٧
- الروح العصرية نفحة إلهية ٥٨
- هل يمكن أن يحكم الإنسان نفسه؟ ٦٤
- المكانة العالمية للإسلام فى هذا العصر ٧٢
- بين القديم والجديد ٧٦
- معاكسة المسلمين فى توحيدهم ٨١
- واجب الشباب نحو ربهم ٨٦
- الشرك بالله، وشدة عقوبته ٩١
- تغلب العلم على المذهب المادى ٩٩
- حكمة الصيام فى الإسلام ١١١
- فريضة الحج ١١٩
- الناموس الأدبى العام (١) ١٢٥

- الناموس الأدبى العام (٢) ١٢٩
- العناية بالصحة فى الإسلام ١٣٤
- إيمان العلماء ١٤٢
- الدين والدنيا معًا ١٤٧
- ماذا بعد الحق إلا الضلال ١٥٣
- الإسلام يحث على العمل ١٥٨
- كلمات اجتماعية ١٦٤
- الحالة النفسية، وتأثيرها فى الأفراد والجماعات ١٧٣
- العالم كله ينشد النهايات المطلقة اليوم ١٧٨
- قيمة العلم فى الإسلام ١٨٢
- المسلمون فى هذا المعترك العالمى ١٨٨
- الإسلام والمسيحية (١) ١٩٣
- الإسلام والمسيحية (٢) ٢٠٠
- الشبيبة والشباب ٢٠٨
- الدين أمام العلم والفلسفة ٢١٦
- ما يصادفه المجددون فى جميع العصور ٢٢٢
- هل توصف الطبيعة باللؤم والتضليل؟ ٢٢٨
- المدنية الفاضلة فى الإسلام ٢٣٦
- جمع المذاهب الفقهية ٢٤٢

الإسلام وتحرير الفكر الإنسانى
مقدمةٌ كاشِفَةٌ للدكتور محمد رجب البيومى

[١]

قال الأستاذ الكبير "عباس محمود العقاد" عن العَلّامة الأستاذ "محمد فريد وجدى":

"إنْ يَكُنِ اليومَ لا يُذْكَرُ حقَّ ذكراه، فما هو بالخُمُول، ولا هو بالقُصُورِ عن حق الخلود، ولكنه يعيش فى عزلةٍ من دنيا التاريخ، كما عاش أيامه فى عزلةٍ من هذه الحياة".

وشاء الله أن تنقضى هذه العزلة بعد أن أصدرت الدار المصرية اللبنانية سلسلةً من الكتب العميقة التى فاض بمقالاتها الأستاذ الكبير، فتركت دَوِيًّا كبيرًا لدى القُرّاء، إذ إننى أعرف أن عشرات الرسائل الجامعية فى كليات الأزهر وغير كليات الأزهر قد خُصِّصَتْ لدراسة هذا العالم الكبير فى اتجاهاتٍ شَتَّى: فى التفسير، والدعوة، والتاريخ، والأدب، والعقيدة. وله فى كل باب من هذه الأبواب سَبْقٌ ظافر سكت عنه الدارسون لعِلَّةٍ لا أعرفها، فلما ظهرت سلسلة هذه المؤلفات "الوَجْدِيَّة" عرف الباحثون نبعًا رائقًا يتدفق بالماء العَذْبِ الطَّهُور، فهَرْوَلُوا إليه مسرعين. وقد كان من حظى أن أشرف على إعداد رسالة عن: المقال الدينى عند محمد فريد وجدى، كتبها الدكتور الفاضل "هشام محمد البيه" المدرس بجامعة الأزهر، فكانت أولَ دَقَّةٍ فى النّاقُوس، تَبِعَتْها دقاتٌ متوالية.

وفى أحيانٍ كثيرة يأتى باحثون دارسون من الأماكن القاصِيَة إلى المنصورة، ومعهم أسئلة علمية تتعلق بالرجل، فهذا يسأل عن منهجه فى التأليف، وهذا يسأل عن اتجاهه فى محاربة المادية، ومهاجمة "الدّارْوِنِيَّة".. وهذا يسأل عن خطته فى تحليل مواقف السيرة النبوية.. وهذا يسأل عن الكتب الخاصة بالنقد العلمى.. وما أكثر ما اتسع الوقت للإجابة عن هذه الفروع المختلفة! فإن قلتُ: إن للدار المصرية اللبنانية فضلاً فى إحياء آثار هذا العالم الفَذّ، فهو فضل مشهود كانت عليه الدَّلائِل!

وقد لا يعرف القُرّاء أنى لم أكن متوجهًا إلى جَمْعِ آثار هذا العَلّامة حين اكتفيتُ بمقالات عن أثره العلمى، نشرتُها فى مجلات الثقافة، والأزهر، والتضامن، وغيرها.. ولكن المصادفة وحدها هى التى دفعَتْنى إلى ارتياد هذا الطريق الحبيب، فقد كنتُ أحضر فى كلية اللغة العربية مناقشة رسالة أدبية لباحث سورى، فرأيتُ مَن يجاورنى فى المكان يحمل كتابًا عن السيرة النبوية، وهو شيخ سورى يَدَّعِى المعرفة، فاستأذنْتُهُ أن أرى مضمون الكتاب وفهرسه، فتبَسَّمَ مُرَحِّبًا، وقال إنه مؤلفه!.. وما كِدْتُ أقرأ الفهرس وأنظر إلى المقال الأول حتى عرفت أن الكتاب مسروق من أعداد مجلة الأزهر، فى السنوات ١٩٣٩، ١٩٤٠، ١٩٤١، حيث قام الأستاذ محمد فريد وجدى بكتابة تاريخ علمى لسيرة رسول الله ﷺ تحت عنوان: "السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة"، وقد امتدت هذه المقالات حتى جاوزت الثلاثين. وكنت قرأتُها قراءةَ الدّارِسِ المُتَأَمِّل، ولَخَّصْتُ عناصرها فى هوامش الصفحات كى لا تضيع الفَحْوَى من الذاكرة حين أرجع إلى هذه الهوامش، فلما رأيت هذه الجريمة صرختُ فى وجه الشيخ قائلاً: أنت سارق! وقد دَهِشَ لما سمع، إذ كان يظن أن مرور خمسين عامًا وأكثر على مقالات متفرقة فى مجلة شهرية قد أَنْسَى الجيل الجديد مضمونها، فلما فوجئ باتّهامى قام سريعًا وقد خطف الكتاب من يدى، وخرج حيث لم أستطع ملاحقته!

وجِزْتُ فيما أصنع أمام هذه الجريمة، وأخذت أفكر، فاهتديتُ إلى جمع هذه المقالات ونشرها، وساعدنى الأستاذ الأديب المحقِّق "محمد محمود حمدان"

حين قدمها إلى الدار المصرية اللبنانية، فأخذَتْ طريقها إلى الذّيُوع، وكان ذلك أَبْلَغَ رَدٍّ على هذا السارق الذى سيضطر أن يحرق مؤلفه كى لا يكون سخريةً بين الناس.

هذا العمل الذى أَوْحَتْ به المصادفة هو الذى دفعنى إلى تَتَبُّعِ مقالات الرجل الكبير، فأخذَتْ تظهر تِبَاعًا عن الدار المصرية اللبنانية، ولاقت من تشجيع الأستاذ الفاضل "محمد رشاد" ما رَدَّ لها الحياة الدّافِقَة بعد نوم طويل.. كما أشير إلى مجموعة أخرى نشرها "مجمع البحوث الإسلامية" تتضمن ما كتبه الأستاذ تحت عنوان: "مهمة الإسلام فى العالم"، ومقالات هذه المجموعة كأَخَواتها الماضيات، تدور فى فلك الدعوة الحرة إلى مبادئ الإسلام، وتدفع ما يُرْمَى به من الشبهات!

والأستاذ المؤلف من أكبر مثقفى هذا العصر، فمعه إيمانه الجازم بسمو الإسلام ونور هدايته، وأنه المنقذ الهادى للبشرية، ومخرجها من الظلمات إلى النور فى عهد الجاهلية، ولذلك، فهو جَدِيرٌ أن يؤدى رسالة التنوير فى هذا العصر، تحقيقًا لقول الله عز وجل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(*).

وقد قَسَّمْتُ هذه المقالات إلى قسمين: قسم خاص بالبحوث التوجيهية، وقسم خاص بالشخصيات التاريخية.. وكلاهما يصدر من سراج مشرق، ويبتغى الهدف الأمثل، ولكل مقال مناسبته التى يعرفها مَن دَرَسَ واقع العصر، وما توالى على الفكر الإسلامى من إحْباطات قَذَفَ بها الأَدْعِيَاء، عن جهلٍ تارة، وعن قصدٍ خبيث تارةً أخرى، إذ كان الرجل يعيش واقع عصره معايشةً يَقِظَةً مُتَوَثِّبَة، فما يَجِدُّ حَدَثٌ عالمى فى الغرب، أو إقليمى فى مصر، أو يقع كارِثٌ فى بلاد الإسلام، إلا كان للعَلّامة محمد فريد وجدى قوله الفصل، ومنطقه الرادع. والقراء يعرفون ذلك عنه، فيَتَرَقَّبُونَ كلماته، ويحرصون على استقصائها.. وإذا خَذَلَهُ المرض فى موقفٍ ما،

(*) سورة فصلت، الآية ٥٣.

تهافتت الرسائل عليه طالبةً سرعة رده، فكان عند ظن هؤلاء الذين وثقوا فى أمانته العلمية، واحترامه للكلمة المنصفة.. وزادت من تقديره عِفَّةٌ مثالية فى نقده، فقد يتعرض لمُنَاوَأَتِهِ مَن يحسب التَّطَاوُلَ باللفظ، والاستعلاء بالمُهاتَرَة، بابًا للظهور والادّعاء، فلا يجد غير الرد العفيف، والمنطق الطاهر الشريف، بل يجد حينًا بعض التزكية لما قد صدر عنه من رأيٍ صادَفَ موقعه الصائب! هذا السلوك الخُلُقِيُّ الأَمْثَلُ فى ميدان الحوار قد خَذَلَ أدعياء المعرفة، وعشاق التظاهر، ورَجَّحَ كِفَّةَ الحق.. ولا يزال للحق جمهوره الواعى مهما غامت السحب، وعلا الضجيج.

ومن أحسن ما اتجه إليه الأستاذ وجدى فى دفاعه المُلْزِم، تجاهله للأسماء، واهتمامه باللُّباب الخالص من الموضوع.. فمقالاته عن المساواة الزائفة والمساواة الصحيحة، وعن تَعارُفِ العالم واتحاد شعوبه، يقرؤها المتأمل فيجدها تتحدث عن أوهام الشرق والغرب عن المساواة، لأن كل فريق يزعم لنفسه من المعتقدات ما لا يرتفع إلى مستوى الحل الإسلامى النزيه، فلكل فريق آفاتُه المستترة والظاهرة معًا، وقد ظلت أبواق الفريقين لدينا تُصَلْصِلُ وتَرِنّ، وكلها تَنْحَى باللائمة على الإسلام، بل بعضها يرى أنه العقبة الأولى فى سبيل التحرر والنهوض.. فكانت مقالات الأستاذ وجدى دفاعًا متزنًا عن حقائق مُقَرَّرَة فى الكتاب والسنة، ولكنها كالمجهولة بين مَن يرون الغرب صاحب التوعية.. وقد سقطت الشيوعية وباءَتْ بالخُسْران، وعرف الناس جميعًا أن دَعْوَى المساواة لديها زَيْفٌ من الزُّيوف، وأن حكامها المتتابعين قد نعموا بما لم ينعم به الأباطرة من قبل من المَلَذّات والشهوات، وتركوا الشعب الجائع يبحث عن الفُتات.. أما الديمقراطية فليست ذات وجهٍ واحدٍ يجب اتِّبَاعُه، وتحليل الأستاذ وجدى لمبادئ الحرية والعدالة والمساواة يرينا الحل الصحيح؛ لأن الإسلام مستقل بنظرته السماوية، ومن يحاول جَرَّهُ إلى مذهب خاص فهو يجهل حقيقته!

وقد كتب الأستاذ عن المذاهب المتطرفة فيما أسلفنا من هذه الأسفار، فكشف القناع عن أمورٍ كُنّا نجهلها، وجاءت الأيام فحققت ما قاله الأستاذ عن يقين.

وقد قام مُحَاضِرٌ فى قاعة "يورت" فى الثلاثينات، ينسب كل تحرر فكرى إلى اليونان، ويرى أن الشرق لم يعرف الحرية كما نادى بها فلاسفة اليونان ومَن تلاهم فى فرنسا وإنجلترا حتى العصر الحديث، فأَرْجَعَ رُقِيَّ الحضارة الأوروبية إلى ارتقائها الفكرى الذى لم يعرفه الشرق ـ وفيه العرب والمسلمون.. وقد طُبِعَتْ هذه المحاضرات وتركت تأثيرها لدى قوم لا يعرفون شيئًا عن الإسلام، وهنا أخذت مقالات الأستاذ وجدى تتدفق متحدثةً عن أثر القرآن فى تحرير الفكر الإنسانى، ومواقف الخلفاء فى العصر الراشد فى تحقيق معانى الحرية والكرامة والعِزَّة، كما أفاض فى تحليل ما رُوِىَ عن التحرر الفكرى فى أوروبا، مُقَارَنًا بالتحرر الحقيقى الذى أحدثه الإسلام منذ خمسة عشر قرنًا. ولا أنكر أن نفرًا من الفُضَلاء قد شاركوا الأستاذ وجدى اتجاهه الناقد الملزم، ولكنه قد انفرد عنهم بدراسة شاملة لمُعْضِلات الغرب ومآسِيه، مع موازنة منصفة بين هذه المعضلات، وما اقترح لها الإسلام من حلولٍ بلغت أقصى المدى فى التوفيق والكمال.

ومن طرق الأستاذ الحَصِيفَة، أنه حين يجد مقالاً غربيًا يَحْوِى من الحقائق الصحيحة ما سبق به الإسلام، يسارع بترجمته، ثم يُعَقِّبُ عليه بما جاء به الإسلام فى مضمونه.. لذلك، يجد القارئ فى هذه المجموعة بعض المقالات المترجمة ذات التعقيب السديد، وأضرب المثل لذلك بالمقال الرائع الذى نقله الأستاذ وجدى عن كتاب: (فلسفة الدين) للفيلسوف الفرنسى: "أجوست سباتييه" تحت عنوان: "الديانة صلاة القلب".. فقد قال الكاتب الفرنسى: "إن الصلاة ليست هى التَّلَفُّظَ بالكلمات وحدها، ولكنها الحركة التى تقوم بها النفس فى اتصال مباشر بالقوة الخفية التى يحس الإنسان بوجودها، فحيث لا توجد هذه الصلاة الباطنية فلا يكون هناك دين.. وكما جعل الكاتب المسيحى أَصْدَقَ الصلاة ما جاء على لسان عيسى؛ لأن صلاته ـ عليه السلام ـ لم تكن تعنى غير الخضوع لله، والثقة بإرادته الأبوية.."، هكذا قال، وقد عقب عليه الأستاذ وجدى بأن قول الله عز وجل: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ

﴿ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾(*) يعطى المضمون الشامل لمفهوم الصلاة فى الإسلام، وهو ما يغنى عن كل مفهوم.

وبعد أن انتهى الأستاذ من ترجمة هذا الفصل، أَعْقَبَهُ بمقالٍ شافٍ يقرر أن الدين فِطْرِيٌّ فى النفس البشرية، وأن الإنسانية لا يكون لها معنى إذا خَلَتْ منه. وكان منصفًا حين قال: "لقد حرصنا على توفية مبدإ الترجمة الحَرْفِيَّة حقه، على الرغم مما فى هذا البحث من تسامح فى التعبير أَلِفَتْهُ الفلسفة الغربية وجَرَتْ عليه، وهو دَيْدَنُنا فى كل ما ننقله عن الفِرِنْجَة، لِنَتَبَيَّنَ منه رأيهم الصحيح، ويتضح مَرْمَى ما يكتبون".

ومثلُ هذا الموضوع فى منطقه التوجيهى ما ترجمه الأستاذ عن العالم النفسى "أنتونان أميو" تحت عنوان: (هل يمكن أن يحكم الإنسان نفسه؟).. فقد انتهى إلى أن عقل الإنسان إذا كان متزنًا راشدًا يؤهله لذلك الحكم، مثله مثل الرُّبّان فى السفينة، فقد تثور العواصف، وتَشْتَطُّ الأمواج، وكل ذلك لا يعصف بمقدرة الربان الماهر الذى كَابَدَ الخُطُوب، وعرف كيف ينجو من وَيْلَاتِها المُتَقَاذِفَة، فهو يمسك الدَّفَّةَ بيده، فيحوّل السفينة إلى هدف أمين! وهذه هى صورة الإنسان حين يعتمد على العقل، ويستشيره فى غَوَامِضِ الأمور.

وهذا كلام مقبول.. ولكن الأستاذ وجدى رآه لا يبلغ حَدَّ الكمال التام؛ إذ مع العقل روح إنسانية يجب أن تكون موضع الإلهام.. هذه الروح ترتفع بالغرض البشرى عن الدَّنايا، وتوجهه إلى مَرَاقِى السُّمُوّ.. ودليلُ ذلك أن كثيرًا من الأشرار يملكون العقل الناقد، والفكر المحتال. ولكنهم فقدوا الروح السامية التى ترتفع عن النَّقَائِص، وتستعصى على الشهوات.. والأغراض الروحانية إذا استولت على النفس دفعَتْها إلى السمو دون توقف، فلا تَقْوَى أيُّ رغبة مادية على مقاومتها. وبهذه الروح استطاع الإسلام أن ينقذ الناس من أَوْضَارِ الجاهلية، فقلب أوضاعها، واشْرَأَبَّ بالعرب إلى أفق جديد.

(*) سورة لقمان، من الآية ٢٢.

وفى هذه المجموعة أمثلةٌ شَتَّى لهذه الترجمات الهادفة ذات التعليق النابض الحى، من كاتبٍ فهم رسالته التوجيهية فأدّاها خير الأداء.

وقد كان الأستاذ وجدى يَتَحَاشَى الكتابة عن نقد المسيحية جهده، رعايةً لمشاعر المواطنين فى مصر، فإذا اضطر إلى ذلك ترجم مقالات لأفاضل من نصارى الغرب يرون فى المسيحية دينًا سماويًا لا تَشُوبُهُ شَوَائِبُ حادِثَة من اختراع الأجيال التالية للمسيح.. وحَسْبُه هذا. وأذكر أن أحد المسيحيين فى مصر كتب له رسالة كبيرة تنقد وِجْهَةَ الإسلام فيما طَرَأَ على المسيحية من تبديل، فلم يَشَأْ أن يرد عليه فى صحيفة سيارة، ولكنه أرسل له خطابًا يتضمن تَفْنِيدَ حُجَجِه، فلم يقتنع الرجل بِرَدِّ الأستاذ، فعقب عليه مُطِيلًا، وبادر الأستاذ بالرد على التعقيب فى كتابٍ تالٍ جَاوَزَ حَدَّ المقالة، فلم يَقْنَعِ الرجل، فاستمر الأستاذ يراسله حتى بلغت رسائله عشر مقالات، لو جُمِعَتْ لكانت كتابًا ذا حَيِّز، وقد عرفتُ ذلك من الرجل نفسه، حيث عرض عَلَيَّ فى زيارتى لقريته هذا الفَيْض مما كتبه الأستاذ، فدهشت لهذا الالتزام المفرط، وحين شَرُفْتُ بزيارة الأستاذ وجدى حدثْتُهُ عن رسائله تلك، فقال فى هدوء: لم أجعل الحوار فى المجلة كى لا يُحْدِثَ لَغَطًا لا داعى له، ولكن صاحبى آثَرَ الرد المتكرر، فلم يقتنع، وظل يجادلنى، وأضطر للإجابة عليه، حتى بلغت الردود عشرة، فعذرت نفسى.

هذا الشعور الملتزم كان دَيْدَنَ الأستاذ، ولكنه اضطر للكتابة حين انتشر مؤلَّفٌ لبعض الناس يزعم فيه أن القرآن يعترف ببنوّة المسيح، وأنه ابن الله ـ تعالى عز وجل عن ذلك ـ لشبهات دارت فى رأسه دون تَمْحِيص، وجاءت الأسئلة لمجلة الأزهر تريد الرد على هذه التُّرَّهات، فكتب الأستاذ مقاله (معاكسة المسلمين فى توحيدهم) وقد بدأه بقوله:

"لسنا ممن يرى الحَجْرَ على مُطْلَقِ الدعوة للمذاهب المختلفة؛ لأنه لما كانت الحقيقة بنت البحث، وكان رُقِيُّ الإنسان مُعَلَّقًا على إدراكه للحقائق، كان مما يعطل

رقيه مَنْعُ الناس من التناقش، ولكن الأمر الذى يتنافى وهذه الحاجة أن يسلك الباحثون طريق المغالطات والمُماحَكَات، فإن هذا الأسلوب يؤدى إلى المُنَابَذَاتِ والمُهَاتَرَات، فتضيع الحقائق النقية، وتبقى آثار هذه الخصومات بين المتعايشين فى بلد واحد مَثارًا للفُرقة والقطيعة بينهم".

ثم بَيَّنَ الأستاذ كيف دعا الإسلام إلى المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة، واستشهد بآيات صريحة من الذكر الحكيم والسنة النبوية.. كذلك استشهد بما فى الإنجيل من دعوة إلى التَّلَطُّفِ فى الحوار، حتى قرر أن النصارى لو أَنِسُوا من قوم كَرَاهَةً لأقوالهم، فليرحلوا عنهم إلى مكان آخر.. وبعد ذلك نَعَى على صاحب الكتاب وأمثاله ما يبتغونه من الفُرقة والشِّقَاقِ مما تنكره الفِطَرُ السليمة، ويحرمه الذوق الأدبى من استخدام الأساليب التى لا ثمرة لها غير إحْفاظ النفوس، وإثارة الرَّيْب! ثم طرح الأمر الخاص ببنوة المسيح وثبوتها فى القرآن، فذكر من الآيات القاطعة ما ينفى كل ريب، وأوضح كيف تكون الحقائق السّافِرَة مَوْضِعَ اتهام لدى أصحاب الرأى المنحرف. ولو رجعوا لعقولهم لعرفوا أنهم يهيمون فى وادى الأباطيل.

وكان حاسمًا شديد الحَسْمِ حين استشهد بأقوال المسيحيين أنفسهم فى مسائل الخلاف، فذكر نُقُولاً واضحة عن دائرة المعارف الفرنسية تخص عقيدة التَّثْلِيثِ وتطوّرها بعد رحيل المسيح.. ولا أريد أن أستشهد بما استشهد به الأستاذ، فحَسْبِى أن ذَكَرْتُ مصدره الفرنسى ليعلم القارئ أن الأستاذ يعتصم بآداب البحث، مُرَاعِيًا أَدَقَّ المشاعر لدى خصومه فى الرأى، ولكنهم يتجاوزون فى ردودهم كل منطق معقول. وقد ختم مقاله الحاسم بقوله:

"هذا ما قَرَّرَهُ العلم، ولدينا منه مزيد، فعلى الذين يخوضون فى أمثال هذه المسائل الجَدَلِيَّة أن يُلِمُّوا بأطرَاف أقوالهم وأقلامهم على إذاعتها، وقد ذكر الكتاب الشريف أسلافهم ممن حاولوا التشكيك فى الإسلام والصَّدَّ عن سبيله، وبَشَّرَهُمْ بالفشل

وسوء المُنْقَلَب، فقال تعالى: ﴿ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾(*).

وفى هذا الكتاب صفحات كثيرة تبين رأى الإسلام فى شتى المَعَاضِلِ الإنسانية، وتظهر أنه الكُوَّةُ التى يَشِعُّ منها طريق الإصلاح للكون بأجمعه.. وتلك هى رسالة محمد فريد وجدى فى صميمها، لأن كل بحوثه ـ وإن اتجهت أحيانًا إلى غير الدين من فنون الأدب والاجتماع ـ تنتهى إلى غاية واحدة، هى توضيح رسالة الإسلام فى قيادة البشرية، وأنها رسالة الإنقاذ والإخراج من الظلمات إلى النور. والذين يَتَشَدَّقُونَ اليوم بما يزعمونه من (التنوير)، يخطئون إذا لم يجعلوا الإسلام مصدر هذا التنوير. وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(**) فالقرآن نور، ولا يأتى التنوير إلا من مِشكَاتِهِ، وهذا ما يعرفه المسلمون جيدًا، وما تنهار أمامه كل الادِّعاءات.

إن هموم المسلمين فى هذا العالم كانت مصدر تفكير الأستاذ، ولكنه مع إدراكه لهذه الهموم المتراكمة كان ذا تفاؤل رشيد بمستقبل الإسلام، فلم يكن ممن يُصْدِرُونَ الصرخات على المنابر جازِعَةً مُوَلْوِلَة، حاسِّين أن القيامة ستقوم وسينتهى كل شىء، بل كان يعرف مواطن القوة لدى المسلمين ومواطن الضعف معًا، ويرسم الطريق إلى الخُلُوصِ من الضعف، وارْتِيَادِ مناطق القوة. وإذا عرضنا جُلَّ ما قاله الأستاذ فى هذا المجال فلن تتسع هذه الصفحات لرَصْدِهِ على الوجه الدقيق، ولكننا نكتفى ـ على سبيل المثال ـ بالإشارة إلى موضوع: (المسلمون فى هذا الـمُعْتَرَكِ العالمى)، فقد كان على إيجازه واضح الهدف، نَيِّرَ الاستدلال، فهو لم ينكر فى مطلع مقاله ما يغمر أوروبا من نزاعات مذهبية تنتقل إلى المسلمين سريعًا، وتجعلهم أيضًا طوائف متنازعة تضل السبيل.. لم ينكر ذلك، ولكنه يقرر أن هذه المنازعات والانقسامات

(*) سورة الأنفال، من الآية ٣٦.

(**) سورة المائدة، من الآية ١٥، ١٦.

فى العالم الغربى ليست ثمرات العلم والحكمة، ولكنها ثمرات مذاهب إلحادية تَأَدُّوا تحت تأثيرها إلى فوضى وانحلال يَضُرَّانِ بالنظام العام الذى يجب أن يَسُودَ ويحقق أقصى ما يُتَاحُ من الأمن والاستقرار.. وإذا كانت هذه القَلاَقِلُ ليست من ثمار العلم، فهى إذًا من مَنَازِعِ الشهوات الحيوانية التى جاءت الأديان لانتزاعها من الشخصية الإنسانية، وأوروبا تُعْنَى بالأصول الخُلُقِيَّة فى المدارس والجامعات فقط، ولكنها لا تلتزم بها فى السلوك الإنسانى، ولن يكون هذا الالتزام إلا بالرجوع إلى الخُلُق الدينى كما قررَتْه الكتب السماوية، وبخاصة إذا كانت مقررات الدين دافعةً إلى الرقى، واقيةً من الانحدار.

وديننا الإسلام يحتضن هذه المُقَرَّرَاتِ الخلقيةَ الرفيعة.. إذًا، فعلى المسلمين فى هذا المعترك الهائج بشتى التيارات المنحرفة أن يعتصموا بحكمة كتابهم، وسُنَّة رسولهم، وسيرة سَلَفِهِم، وأن يعملوا على توحيد كلمتهم، والجرى على تقاليدهم، ليكونوا بمَنْجَاةٍ من العِلَلِ الاجتماعية، لاسِيَّما وهم يشاهدون أرقى الأمم الأوروبية وأعرقها فى الثقافة العلمية عاجزةً عن سلوك السبيل الداعى إلى الاستقرار، وما قِيَامُ حربيْن عالميتين فى أقل من ربع قرن إلا دليل على هذا الانحدار المُشِين.

ومجال الموازنة بين الشرق والغرب كان مَقْصِدًا مهمًّا من مقاصد التوجيه الإسلامى لدى الأستاذ، حتى فى بحوثه عن العبادات.. وهى - كما قد يُظَن - أبعد اتصالاً بهذه الناحية، إذ كان ما كتبه الأستاذ فى مختلف آثاره عن الصلاة والزكاة والصوم والحج ضاربًا بعِرْقٍ مَدِيدٍ إلى صميم الأصول الاجتماعية فى الإسلام. ففى حديثه عن الحج - وهو من أمثلة المساواة التطبيقية فى الإسلام - يقارن بين الفلسفة اليونانية والمنهج الإسلامى، فيقرر أن هذه الفلسفة جعلت الجنس الإغريقى خير الأجناس البشرية، وحَسِبَتْ للأرقاءِ مَنْزِلَةً أدنى من منازل الأحرار، وحَدَّدَتْ مهنًا مختلفة للناس على درجات مُتَفَاوِتَة، فسَلَبَتِ العمالَ كل الحقوق وجعلَتْها وَقْفًا على الأشراف! والإسلام الذى يجمع المسلمين فى صعيد واحد يوم عرفات، وعلى قدم

المساواة مَظْهَرًا ومَخْبَرًا، قد حقق المساواة العادلة، وضرب الأمثلة عليها فى أكثر ما شَرَعَ من أحكام.

وأفضل ما نجده فى هذه الأصول لدى الأستاذ هو الاستعانة بقضايا علوم النفس والاجتماع والتاريخ والسياسة، دون تَباهٍ بالمصطلحات العلمية، أو حَشْدٍ للآراء الفكرية كما نرى لدى قوم يكتبون ليقال إنهم قرءوا واستوعبوا، فهم يُكَوِّمُونَ النصوص تَكْوِيمًا ليرهقوا القارئ مُباهاةً واستعلاءً.. أما الأستاذ فقد قرأ ما قرءوه، وأخذ اللباب فجعله زُلالاً صافيًا لا كُدُورَةَ تَغْشَاه، حتى لَيُحِسُّ القارئ أنه يطالع خواطر أدبية مُجَرَّدَة، مع أنه من الفكر الإنسانى فى صميم الصميم!

هذا بعض ما يُقال عن الدراسات الإسلامية، ولا يُغْنِى شيئًا عن تَتَبُّعِها واستقصائها مع مقارنات ذاتية يعقد القارئ بينها وبين ما اشترك فى العنوان فى المجموعات السالفة؛ لأن الأستاذ وجدى كان يكتب فى المناسبات المتكررة كل عام ما يضم خواطر جديدة فى موضوعٍ سبق أن أفاض فيه، ومن ذلك: أحاديثه عن الحج والصيام وما يناسبهما.. بل إنه قد يعالج شُبْهَةً ـ فى غير موضوعات العبادات والعقائد ـ معالجةً دقيقة، ثم تتكرر هذه الشبهة على لسان كاتب آخر، فيضطر الأستاذ للرد على الكاتب الجديد.. ولو كنتُ مكانه لأَحَلْتُهُ إلى ما كُتِبَ من قبل مشيرًا إلى موضعه، ولكن محمد فريد وجدى ـ رحمه الله ـ كان كالنَّبْعِ الجَيّاش الذى يفيض دائمًا بماء جديد؛ إذ أن خاطره عميق القرار لا يَنْضُبُ له مَعِين. وقد يلجأ إلى تكرار بعض ما تَقَدَّم، وهذا ضرورى لإتمام عناصر الرد على وجهه الصحيح، والكاتب الداعية لا يجد مَناصًا من التكرار حين تتشابه المواقف، ويخفف منه أنه صِيغَ فى أسلوب آخر وإنْ تشابهت بعض المعانى، على أن لقلم الأستاذ سَطْوَةً مقنعةً تأخذ بلُبِّ القارئ، فيَوَدُّ أن يَسْتَزِيد.

إن موضوعًا كموضوع المولد النبوى قد كتب الأستاذ فى مناسباته المتكررة أكثر من عشرين مقالاً، أكثرها جديد.. وقد عرضتُ نماذج منها ليدل بعض على بعض،

مبتدئًا بحديث عام عن حياة الرسول فى مختلف أدوار حياته، يعطى فكرةً مُجْمَلَةً لمن لم يصبروا على قراءة المؤلَّفات المستقلة. وأذكر أن الأستاذ الكبير "أحمد أمين" كتب فى بعض المناسبات الدينية مقالاً افتتاحيًّا بمجلة "الثقافة" تحت عنوان "سيرة الرسول فى كلمة" أَوْجَزَ فيه ما تُعُورِفَ من هذه السيرة المباركة فى صفحات أربع! وبقراءة ما كتبه أحمد أمين مع ما كتبه محمد فريد وجدى، نجد أن الإيجاز فن دقيق لدى الكاتبيْن؛ إذ حاولا أن يضعا ماء الزجاجة فى كأس صغيرة، فأمتعا القارئ وأشبعاه، فلا يَقُلْ قائل إنهما يتحدثان حديثًا مُعادًا، فالأغنية الجيدة لا تفقد تأثيرها بكثرة التَّرْدَاد.

أما موضوع: (محمد ﷺ فى تقدير قادة أوروبا) فمن أَنْفَسِ وأَقْيَمِ ما ترجمه الأستاذ محمد فريد وجدى فى سبع مقالات حافلة بالعناصر المهمة فى توجيه مواقف الرسول(*).. وهو بقلم زعيمة فكرية من قادة أوروبا، عاشت فى الهند زمنًا طويلاً، ولَابَسَتِ المسلمين هناك، وقرأت ما وقع فى يدها من مؤلفاتٍ تتصل بالرسول ﷺ ودعوته الإسلامية، فأُعْجِبَتْ إعجابًا كبيرًا بما رأت وما قرأت معًا، ودفعها ذلك الإعجاب إلى كتابة سلسلة من المقالات الرائعة صادفت قَبُولَ الأستاذ وجدى وتقديره، فآثَرَ أن يعرضها على قُرّاء مجلة الأزهر فى أعدادٍ متوالية، وقد قال عنها فى مقدمة هذه المقالات:

"إن من العبقريات النسائية المعاصرة السيدة "أنى بيزانت"، وهى إنجليزية الأصل، وَقَفَتْ حياتَها على العلم والفلسفة، فبَدَتْ مسيحيةً تَقِيَّة، ولكنها لما لم تقف من مباحثها عند حد، أدركها الإلحاد.. فلما توغلت فى عالم الحقائق اسْتَنار قلبها بإيمان راسخ بالحق، على قواعد علمية، كإيمان العلماء المُنْتَهِين. ومالت إلى التصوف فى شكله المعروف فى العالم الغربى باسم "التيوصوفية"، فسَلَّمَ لها أهل هذه الطائفة بالزعامة العامة لجماعتهم، فقامت بما عُهِدَ إليها من هذه الزَّعامة على أحسن السبل

(*) تعرض هذه المقدمة لبعض آثار محمد فريد وجدى التى سنوالى نشرها فيما بعد بإذن الله.

وأدق الأساليب العلمية، وقامت بتأليف خمسة وعشرين كتابًا كان لها شهرة عالمية، وترجمت إلى لغات عديدة.. ومن مؤلفات هذه السيدة: كتاب عن الديانات الموجودة بالهند، ومنها الإسلام.. وفيه فصل يدل على بُعد النظر، نرى أن نترجمه لمجلة الأزهر، فإن فيه مظهرًا جديدًا من مظاهر تأثير الروح المحمدية فى العقول، وسَرَيَانها فى القلوب، حتى قلوب الذين لا يعرفون لغة القرآن الكريم".

وقبل أن أشير إلى بعض آراء الكاتبة، أعلن أن مثل هذه الكاتبة الإنجليزية المسيحية لا يُنْتَظَرُ منها أن توافق المُقَرَّرَاتِ الإسلامية فى كل شىء، وإلا كانت مسلمة تعتنق مبادئ هذا الدين! فإذا خالفت بعض هذه المقررات، فقد وجدت من المترجم الكبير ما يضع النقاط على الحروف تصحيحًا وتوجيهًا، فليس الأستاذ وجدى مترجمًا فقط، ولكنه مترجم ناقد معًا!

وأنا أعجب لمن كتب عن هذه المترجمات عند صدورها فى مجلة أسبوعية يقول: إنها لو آمنت بما كتبت لأسلمت، وعَدَّها منافقة! وهذا هو الشَّطَطُ بعينه، بل هذا هو ضِيقُ الأُفُقِ الذى يقف حائلاً دون الانفتاح على الآراء المُتَجَاوِبَة فى المحيط العالمى!.. لقد وجدنا إنصافًا حميدًا، وفهمًا دقيقًا لأكثر مواقف رسول الله ﷺ فيما كتبت المؤلفة البارعة، فلماذا نضيق به، ونحاول أن نرميها بالنفاق؟.. ولماذا لم نسأل أنفسنا: عَمَّنْ تنافق هذه السيدة الزعيمة؟ أهى فى حاجة إلى عَوْدٍ إسلامى من بعض المُوسِرِينَ حتى تكتب مالا تعتقد؟.. إن فى مهاجمة هذه البحوث لَصَدًّا عن سبيل الله؛ فإحدى هذه السبل هى تَبَيُّن موقع الفضائل الإسلامية لدى المنصفين ممن لا يَدِينُونَ بهذا الدين، وكلامهم ـ حينئذٍ ـ أشد تأثيرًا وأعمق موقعًا، لأنهم يَصْدُرُونَ عن ذَوَاتِ أنفسهم دون إجْبار، هذا إلى الروح القصصية البديعة التى بدأت بها كتابتها عن نبى الإسلام، فقد قدمت نشأته الأولى تقديمًا فنيًا يأخذ بلُبِّ القارئ الغربى والإسلامى معًا.. وإذا كانت قد تَصَرَّفَتْ فى بعض الحوار كما فى حديث اللقاء الأول بين محمد ﷺ وجبريل فى غار حراء، فهذا مما سار عليه الأسلوب الغربى، وهى فى جوهره لا يخرج عما كان. فالذين انتقدوا بعض التصرّف الحِوارى

فى هذا الموقف، نسألهم: أكان المنتظَر منها أن تنقل حديث البخارى أو صفحة من صفحات سيرة ابن هشام بنَصِّها وفَصِّها لنقول إنها أجادت النقل؟.. إن المؤلفين المسلمين أنفسهم يُبِيحُونَ لذواتهم الحرية فى تصوير المشاهد النبوية على نَحْوٍ لا يُخِلُّ بجوهرها المقصود، فيكون لتصرفهم من الروعة ما يدفع القراء إلى الإعجاب.. وهم مسلمون يهيمون حبًّا بنبيهم الكريم!

إن على الناقد أن يكون واسع الصدر.. وهؤلاء الأوروبيون يضعون سيرة المسيح ـ عليه السلام ـ فى قالبٍ رِوائىٍّ بديع، يزيد حياتَه اكتمالاً فى العيون، ولم يستشعروا حَرَجًا فيما يصنعون وهم مسيحيون مؤمنون!

وأذكر أن الأستاذ فريد وجدى قد قال تعليقًا على الفصل الأول مما ترجمه:

"عَرَّبْنا هذا الفصل من البحث، وسَنُوَالِي ترجمة سائِره. ولعل القراء يلاحظون أن الكاتبة قد تَصَرَّفَتْ فى تاريخ الوحى وغيره تَصَرُّفًا يوافق الذوق الكتابى عند أهل الغرب.. ولا بأس من التَّغاضِى عنه، ما دام غرضنا هو بيان ما تؤدى إليه الفلسفة الأوروبية من تقديرٍ لقيمة الرسول ﷺ وقيمة الحق الذى جاء به".

ومن التعليقات السَّدِيدَةِ: ما كتبه الأستاذ وجدى تعليقًا على قول المؤلفة: "إن تعدد الزوجات ليس بالأمر الحسن؛ لأن النبى ﷺ قال بعدم الجواز إلا إذا أمكن التسوية بين الزوجتين فى الحب والعدل، وذلك ليس فى الإمكان، وإذًا فالنبى لا يسمح إلا بواحدة".

هذا الرأى الذى قالت به الزعيمة المؤلِّفة قال به نَفَرٌ من المسلمين عن خطإٍ لا عن صواب، فهى ليست وحدها صاحبة هذا الاتجاه، وقد دفعه الأستاذ وجدى دَفْعًا سَدِيدًا حين عَلَّقَ عليه بقوله:

"لا نوافق السيدة الزعيمة على أن وجود التعدد أمرٌ مَعِيبٌ فى الديانة الإسلامية، فقد اعترفت أن تعدد الزوجات فى الإسلام أَرْجَحُ وزنًا فى قِسْطَاسِ العدل من مبدأ المُخادَنَة الشائعة فى أوروبا وأمريكا، وقَرَّرَتْ أن توحيد الزوجة لا يُصادَفُ إلا عند

نفرٍ من الأَطْهار فى العالم كله.. فإذا كان العالم لا يزال ضعيف الإرادة، مِطْواعًا لدَواعى الشهوات، لا يطيق كثير من أفراده أن يكتفوا بزوجة واحدة، فلا يُعْتَبَرُ بقاء التعدد فى الشرع الإسلامى عيبًا تَجِبُ المبادرة إلى إزالته، فالحكمة تَقْضِى بوُجُوبِ بقائه حتى لا يقع المسلمون فيما وقع فيه سواهم من اتّخاذ الخَدِينات، ثم تَرْكِهِنَّ عالَةً على المجتمع، مُجَرَّداتٍ من كل حماية ورعاية، ومُعَرَّضاتٍ لضُرُوب الاحتياجات والآفات".

أقول: مهما كان من مواضع الخلاف الحقيقى بين كاتبٍ إسلامىٍّ راشد وكاتبة إنجليزية مثقفة، فإن التصوير البديع الذى أحاطته الكاتبة بنشأة الرسول ﷺ وقيامه بإنقاذ البشرية جميعها مما انْحَطَّتْ فيه من الآثام، وهذه الحرارة الدَّافِقَة التى نلمس أثرها فى النفس عند تلاوة ما سَطَّرَتْ من حديث الرسول والإسلام معًا.. أقول: إن هذا التصوير الأدبى الشائق يجعل من أسلوبها تحفةً بديعة فى عالم البيان، وهذا بعض ما حَدَا الأستاذ وجدى إلى ترجمته. ولعل الذين يَضِيقُونَ بكتب التراث المُدَوَّنَةِ فى عهودٍ غابِرَةٍ، يجدون فى هذا النَّمَطِ ما يغريهم بتَتَبُّعِ أمثاله لدى الكاتبين اليوم، وهم ـ بحمد الله ـ كثيرون؛ محمد رجب البيومى.

ونأتى إلى الشخصيات التاريخية العظيمة التى خَصَّها الأستاذ محمد فريد وجدى بالذكر فى عُجالاتٍ قوية لافتة.. فمن حديثها أن مبعوثًا مصريًّا زار "لندن" لعدة سنوات طالبًا بإحدى جامعاتها المرموقة، ثم رجع حاملاً أعلى درجاتها العلمية. وكان أول ما فَتَحَ به وجودَه العلمى بمصر أن نشر مقالاً بالأهرام تحت عنوان (وستمنستر أبى)، وهى الكنيسة الإنجليزية الفخمة التى تضم كبار الخالدين من أهل تلك البلاد، وكلهم ذوو ذِكْرٍ ذائعٍ فى التاريخ العالمى سياسةً وعلمًا وأدبًا وفنًّا. وقد جاء بهذا المقال: إنه حين دخل الكنيسة وأخذ يقرأ الألواح الناهضة على كل قبر، جال بذهنه أنْ يذكر من يشبهونهم فى العالم العربى ـ قديمه وحديثه ـ فلم يجد أحدًا، وقال إنه اسْتَشْعَرَ أسفًا محضًا ألّا يكون بين بنى جنسه من بنوا الحضارة

ورفعوا لواء المدنية وفتحوا البلاد مثل هؤلاء الراقدين فى حرم التاريخ، تَفُوحُ ذكراهم العطرة فتُؤَرِّجُ بعبيرها الصفحات!

كان المقال صَدْمَةً أليمةً لقُرّائه. وأذكر أن الكاتب الكبير الأستاذ "محب الدين الخطيب" ـ رحمه الله ـ قد رَدَّ على هذا المُتَطاوِل بقذائف نارية ملتهبة كادت تحرقه حرقًا؛ إذ ذكر من أعلام الحضارة الإسلامية فى شتى الرُّبُوعِ مَن يتضاءل إلى جوارهم هؤلاء الذين سحروه وبهروه، واختار الأستاذ محمد فريد وجدى وسيلةً أخرى للرد العملى، فأخذ يكتب تراجم رائعة عن عظماء الإسلام بعد رسول الله ﷺ، مبتدئًا بعمر بن الخطاب، فأبى عبيدة بن الجراح، فسعد بن أبى وَقّاص، فعمرو بن العاص، فقتيبة بن مسلم، ليُذَكِّرَ هذا الجاحد ببعض مَآثِرِ أجداده الفاتحين. وكان فى نِيَّتِهِ أن يتابع هذه السلسلة الذهبية الرائعة على صفحات المجلة عددًا خلف عدد، ولكن أعباء التحرير قد استهلكت جهده المنفرد، فوَجَّهَ إليها اهتمامه بحيث كانت المجلة لا تخلو من خمس مقالات بقلمه بالعدد الواحد فى أوائل السنوات التى مَلَكَ فيها زمام التحرير مديرًا لمجلة الأزهر، ولَئِنْ لم يواصل حديثه هذا بقلمه، فقد فتح أبواب المجلة ليتحدث عن مشاهير النابهين فى تاريخ الإسلام، فحَفَلَتِ المجلة بالنوابغ فى كل فن، حتى لَيستطيع القارئ المُتَتَبِّع أن يجمع مما كَتَبَ فى مدى عشرين عامًا ـ تولى فيها الأستاذ إدارة المجلة ـ موسوعةً حافِلَةً بهؤلاء الأعلام.

وحين ننظر فيما كتب الأستاذ عن هذه الشخصيات، نجده يجمع الحقائق المتناثرة فى صفحات الكتب فى أَسْماطٍ مُنَسَّقَة، فيشفى غُلَّةَ القارئ بما يُدَبِّج، ومقالتاه عن عمر بن الخطاب قد تَجاوَزَتا التاريخ السَّرْدِىَّ إلى حقائق فلسفية واتجاهات عُمْرَانِيَّة تضع هذا العبقرىَّ مَوْضِعَهُ الصحيح، وهما بما ضَمَّتا من الأفكار القوية تصلحان أن تكونا عناصر مُتَوَاشِجَةً لكتاب خاص بالفاروق، حيث يستقل كل عنصر بفصلٍ كاشفٍ وَضّاء! وله فى رأس كل حديث وختامه الْتِفاتات ذكية تلفت القارئ أولاً إلى ما سيَقْدَمُ عليه من روائع، فى غير صَخَبٍ أو افْتِعال. وفى

الختام يشير إلى مَغْزًى لا يقل عما فى البَدْءِ من رَوْعَة، مع التوجيه الدينى لا ستخلاص العبرة من الماضى حتى تكون سراجًا فى ظلام المستقبل. وقد قال فى ختام حديثه عن عمرو بن العاص بعد تفصيلٍ شافٍ لما تم على يديه من فتح مُبين:

"هذه حوادث اعتاد الناس أن يقرءوها فى تاريخ المسلمين مُعْجَبِينَ بها فحسْب، ولكنها تستدعى فوق الإعجاب أن يُنْظَرَ إليها كأثر حى لما تستطيع أن تقوم به العقيدة النقية والإيمان الراسخ من الأعمال التى لا تُعَلَّلُ إلا بالأسباب الظاهرية.

وإذا كان "نابليون" يفتخر بأنه فتح مصر بخمسة وعشرين ألفًا من الجنود على شراذم المماليك، فإن عَمْرًا قد فتحها بثلث هذا العدد ضد إمبراطورية كانت لها السلطانُ المُطْلَقُ فى الأرض ـ وهى أمة الرومان".

وما كتبه الأستاذ عن فتح المسلمين لإسبانيا لا يُغْنِى عنه ما كتب المُحْدَثُون من أسفار؛ لأن حديث الأستاذ مملوء بالعبر البالغة، والفهم الدقيق لأسباب الانتصار عند قوم يطلبون الجنة والاستشهاد قبل أن يطلبوا الفرحة بالانتصار. ولم يَفُتْهُ أن يُشِيد بمظاهر الحضارة الأندلسية، وكيف كانت قاعدة التقدم الأوروبى المعاصر، مستشهدًا بآراء المُنْصِفِينَ من المؤرخين الفرنسيين أنفسهم. وهكذا يكون التاريخ الصادق دليل المجد الإسلامى القائم على العدالة والحرية من ناحية، وعلى الفكر والاختراع والاستنباط من ناحية ثانية. والتاريخ الإسلامى إذا كُتِبَ على وجهه الصحيح، كان داعيةَ النهوض المُرْتَقَب، والفوز المنشود.

ولم يكن فى طَوْقى أن أجمع آثار الرجل التاريخية فى صحائف أخرى ـ غير مجلة الأزهر ـ كالرسالة، والحديث، والهلال، والمقتطف.. فاكتفيتُ ببعض ما وقعت يدى عليه من بحوثٍ عن "أبى العلاء المعرِّى" و"جعفر بن يحيى البَرْمَكِىّ" فى القديم، و"قاسم أمين" فى الحديث. وللأستاذ وجدى كتاب رائع هو: (المرأة

المسلمة)، كَتَبَهُ ردًّا على كتاب الأستاذ قاسم أمين:؛ (المرأة الجديدة).. وقد أعود إلى الحديث عنهما فى غير هذا المجال.

ولَعَلِّى بعد هذا التمهيد الضرورى أُتِيحُ للقارئ أن يَنْعَمَ بآثار الأستاذ فيما نُشِرَ فى هذه الصفحات، راجيًا أن يجد فيها غذاءً نافعًا، وتوجيهًا سديدًا، وهى أَهْلٌ لذلك بكل تأكيد.

د. محمد رجب البيومى

المستقبل للإسلام

إن الدراسات الدينية التى توالت فى العالم المتمدن منذ أكثر من مائة سنة، كشفت عن أمور كثيرة جديدة بإنعام النظر، أولها: أن التدين صفة عامة لجميع بنى البشر حديثهم وقديمهم، فلم يُعثر على أمة لا دين لها، ولا على قبيل من القبائل البائدة قبل أن يُدَوَّنَ التاريخ إلا ولها آثار تدل على أنها كانت تدين لِنِحْلة، وأنها كانت تعرف أن وراء المحسوسات عالمًا محجوبًا عن الأبصار فيه كائنات تُرجَى معونتها، وتُسْتَدَرُّ رحمتها.

ولما انتصف القرن التاسع عشر، زادت الدراسات الدينية تغلغلاً فى صميم الأديان القديمة، فظهر ما بينها جميعًا من الصلات الوثيقة، وما يجمعها من العقائد والتقاليد.

كان مذهب الماديين فى تدين الإنسان إلى ما قبل مائة وخمسين سنة، أن الإنسان لَمَّا ظهرت فيه صفة التعقل، واتسع مداها للخيالات والتصورات، اضطر حيال المخاوف التى تحيط به من كل جانب، والمخاطر التى تناوئه من كل مكان، أن يعتصم بملجأ يحتمى فيه من هذه النوازل ولو تَوَهُّمًا، فلجأ إلى خياله، فصوَّر له عالمًا عاليًا وراء هذا العالم تَعْمُرُه آلهة وأنصاف آلهة وملائكة مقربون، وأن من هذا العالم تتنزل على الناس النعم والنِّقَم، ومنها تصدر الأوامر لعوامل الطبيعة أن تَسْخُوَ على بعض الناس وأن تَضِنَّ على آخرين. وما زال بهم الخيال حتى صور لهم ما يجب أن

يتقرب به إلى تلك الأرواح العلوية من القرابين والهدايا المنوعة من الأطعمة ومن ضروب العبادات: ركوعًا وسجودًا، وصيامًا وجهادًا... إلخ. ومن هذه الحالة الساذجة، نشأت الأديان الكبرى المعروفة، حاملةً طابع واضعيها من الرجال أصحاب المطامع الواسعة، أو من الرجال ذوى العقول الراقية من أمثال: (باسكال) و(جول سيمون) و(إرنست رينان) وأضرابهم ممن وصلوا من العقيدة بالخالق إلى درجة التوحيد والتنزيه المطلقيْن. ولم يحفز العلماء الماديين إلى مثل هذا التطرف فى الحكم إلا وقوفهم مع الحس المجرد، وزعمهم أنه لا سبيل إلى سائر المعقولات الإنسانية غير الحواس الخمس.

ولكن الرُّوحيين ـ ونريد بهم الذين يعتقدون بأن العالم مركب من عنصرين: أحدهما مادى فانٍ، والآخر روحانى باقٍ ـ فقد قرروا أن الإنسان اهتدى إلى عالم الروح بما ركب فيه منه، ولولا ذلك لم يشعر به ولم يهتد إليه، وقد أظهر الإنسان ـ حتى فى أشد أدوار تَوَحُّشِهِ ـ تعلقه بذلك العالم واعتداده به، أكثر مما أظهر من تعلقه بالعالم المادى. ومَن يتأمل فيما فرضه على نفسه من العبادات الجسدية، والتضحيات القربانية، والشكائم التى اتخذها لِصَدِّ ميوله طائعًا مختارًا، يجد أن أثر العالم الروحانى على نفسه كان شديدًا إلى حَدٍّ لا يمكن القول معه بمذهب الحِسِّيِّين. فلو كان الخوف من جوائح الحياة هو الذى اضطر الإنسان للّجوء إلى عالم ما وراء الطبيعة، لخفت وطأة الاضطرار عنه كلما ازداد علمه بأسباب تلك الجوائح، ولكنَّ المُشَاهَدَ خلاف هذا، فقد اشتد تطلع أهل العلم إلى ذلك العالم اشتدادًا بَزُّوا به المتوحشين والجُهَّال أضعافًا مضاعفة. ولا يعقل أن مثل الطبيعى العبقرى (باسكال)، والفيلسوف السياسى الخطير (جول سيمون)، والنَّقَّادَة الفيلسوف الكبير (إرنست رينان) وغيرهم يُبقون على أثر وراثى سُدَاه ولحمته الوهم، ولا يتخلصون منه مع بلوغهم درجة الإمامة فى الفلسفة والنظر السليم.

لا جَرَمَ أن نظرية الماديين قد سقطت حتى فى نظر العلماء الذين لا يؤيدون

الأديان الشكلية مثل جيو (Guyo) مثلاً، فقد كتب فى كتابه: (اللادينية فى المستقبل) يقول:

"إن نظرية الفلاسفة الحِسِّيِّين كان ينتظر سيادتها المطلقة على العقول منذ بضع سنين، وقد كان رَضِيَهَا الكثيرون بدون أن يستنتجوا منها سائر نتائجها الضرورية، أما الآن فقد اتضح أنها واهية".

أما النظرية السائدة اليوم فى البيئات العالية للدراسات الفلسفية بسبب أنها غير ظَنِّيَّة، ويمكن تحقيقها إذا صعد الإنسان ببحثه إلى مناشئ العقائد الإنسانية. وهذا الأمر مهما كان صعبًا، فإن وراءه رجالاً يهتمون به غاية الاهتمام. وأحسن مَن تصدى لهذا الموضوع الجليل فأجاد، هو الأستاذ الطائر الصيت "ما كس موللر" الألمانى، فإنه كتب فيه كتابًا جليلاً أسماه: (أصل الدين وارتقاؤه) أثبت فيه بالنصوص الدينية السنسكريتية، وهى أبعد الديانات عهدًا وأقدمها تاريخًا، بأن الإنسان أول ما عَبَدَ عبد الخالق جل وعلا على صفته غير المحدودة. وأما هذه الأوثان والأصنام فليست إلا بنات الخيال استدعتها محبة الإنسان للمس كل ما يشعر به فى نفسه. قال:

"إن هذه الآلهة المجسمة ليست إلا تمثيلاً طرأ على الإنسان بعد تلك الفكرة الطبيعية. وبناء على هذا، فقد ركع آباؤنا وسجدوا أمام الله الحق، حتى قبل أن يجسروا على الإشارة إليه باسم".

ثم جزم هذا المؤلف بأن أصل الأديان كلها واحد، وما استدعى اختلافها إلا ما أحدثتْهُ النزغات الإنسانية والأهواء النفسانية من حب التحديد والتقييد والحصر.

هذا كلام لم يُجافِ العقل ولا النقل، وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ

بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦ ﴾[1]، وقوله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾[2].

أما قول الماديين السابق فلا ينطبق على علم ثابت، ولا يُستَطاع أن يُقام عليه دليل. وليس هذا الشَّطَطُ ببعيد عنهم، فإنهم متى آنسوا حرج مركزهم حيال مسألة من المسائل، اعتادوا التعسّف في التفلسف، وملأوا الأرض احتمالات وفروضًا. ولو كانت أعرق فى السفسطة والهذيان مما تعالوا عن قبوله أولاً. سَلْهُمْ قائلاً: هل يعقل أن الإنسان يعبد شيئًا مجسمًا قبل أن تكون تلك العبادة مسبوقة بفكرة دعت إليها؟ هل يتصور أن الإنسان بمجرد خروجه من عالم الغيب أَكَبَّ يعبد الحجارة والجبال، والأودية والأشجار، دون أن يكون له شعور – ولو مبهم – سابق على ذلك التحديد؟ لا يتصور غير ذلك بوجه من الوجوه. إذًا، فأول عبادة قام بها الإنسان كانت روحية قلبية على صفتها الصحيحة وموجهة للخالق الحق المُنَزَّهِ عن الحدود والقيود. وقد جاءت البحوث التي قام بها (ماكس موللر) مؤيدة لذلك كل التأييد كما رأيتَ.

يقول الماديون: مما يدل على أن آباءنا الأولين كانوا مُحَدِّدِينَ مُجَسِّمِينَ لا مُطَلِّعِينَ ولا مُنَزِّهِينَ، أن لغتهم خالية مما يدل على الإطلاق وعدم الحد، فلا تجد فيها لفظة (لا نهاية).

نقول: إن خُلُوَّ اللغة منها لا يدل على عدم وجود معناها. على أنها في كل لغات العالم مركبة من كلمتين يمكن تكوينهما في أثناء التخاطب، كقولنا: لا نهاية ولا حد،

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٢١٣.

(٢) سورة الشورى، من الآية ١٣، وشطر من الآية ١٤.

أو لا غاية، أو لا آخر وهكذا. ومع هذا، فإن اللغات القديمة قاصرة عن أشياء كثيرة حتى في المحسوسات، فلم يوجد في واحدة منها الإشارة إلى تدرج الألوان وتداخل بعضها في بعض دون حد، وليس في أغلبها إلا أربعة ألوان فقط: الأبيض والأسود والأحمر والأصفر، فهل يصح أن يقال إنهم كانوا لا يعرفون الزرقة من الألوان والسماء فوق رءوسهم تتألق في حلتها الزرقاء؟.

على أن فكرة (اللانهاية) يميل إليها المتوحش أكثر مما يميل إليها المتمدن. ألست ترى أن الجاهل من الناس إذا أراد أن يصف لك اتساع بلدة من البلاد لم يجد في ذهنه من أوصاف المبالغة ما هو أقرب من قوله: تلك بلدة ليس لها أول ولا آخر؟ وهذا الاستعمال يُشَاهَدُ عند الجهلاء والمتوحشين أكثر مما يشاهد عند مَن عَداهم. إذًا، فنظرية الماديين قاصرة، ولم يَحْدُهم إلى القول بها إلا أصولهم القاضية عليهم بعَزْوِ جميع المدركات إلى الحواس الخمس، وما أَضْيَقَ هذا المجال وأَحْرَجَهُ!

وقد سبق لنا أن بَيَّنَّا في مقال خاص بأن في ثبوت أن أول ما كان الإنسان عليه من الدين التوحيد الخالص من شوائب الخيالات، وأنه كان عامًّا في جميع النوع البشري، فلما دخلتْ عليه التلوينات الخيالية تعددتْ أشكاله، وتنوعتْ صوره، وذهب كل فريق من الناس بما تأثر به عقله منها، فأصبح للناس أديان شتى، وابْتَنَى على تَكَثُّرِهَا وقوع النزاع بين الجماعات البشرية، قلنا: سبق لنا أن بَيَّنَّا أن في ثبوت هذه الحقائق ثبوتًا علميًّا في أخريات القرن التاسع عشر معجزة علمية للقرآن وللنبي ﷺ معًا.

فإن قول الأستاذ (ماكس موللر): إن الإنسان مفطور على توحيد الله، يعد منه ترديدًا لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وقد رأيتُ أن

---

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.

هذا الأمر لم يطرأ في عالم الدراسات الدينية إلا في أخريات القرن التاسع عشر، ولم يُذِعْهُ إلا كتاب الأستاذ (ماكس موللر) في سنة ١٨٨٩.

وفي قوله: إن النوع البشري كان له دين واحد، هو ما ذكره آنفًا من التوحيد، فهو موافق لما ذكر في القرآن نفسه قبل حدوثه بنحو ثلاثة عشر قرنًا، وهو قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1] الآية، ومعناها: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا، فأرسل الله لهم أنبياء ورسلاً يهدونهم إلى الحق، وهم ما اختلفوا إلا بسبب ما تسلط عليهم من الخيالات والصور الذهنية المختلفة، وذلك بدليل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2]، ومعناها صريح جدًّا، وهو: أن الناس كانوا في مبدإ أمرهم على دين الفطرة الحق، فاختلفوا باتباع الهوى، والأخذ بالأباطيل. ولولا كلمة سبقت بتأخير معاقبتهم إلى يوم القيامة، لقُضِيَ بينهم عاجلاً فيما هم فيه يختلفون، بإهلاك المبطل، واستبقاء المُحِقّ.

فهذا الاستكشاف العلمي الذي لم يَجُدُ الأستاذ (ماكس موللر) إليه تصديق القرآن فيما ذكره عن دين الإنسان، ولكن حفزه إليه ما ثبت من مراجعة أقدم المخطوطات والمحفورات البشرية في اللغات الهندية القديمة، وفي البيئة التي يرجح أن الإنسان الأول سكنها وتكاثر فيها، وانتشر منها إلى سائر بقاع الأرض.

وزاد الله تعالى هذا الأمر بيانًا فصرح بأن الإسلام الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ليس بدين جديد، ولكنه الدين الأول الذي أنزله على نوح، وهو معدود أبا البشر الثاني، فإنه قد ثبت أن جوائح مائية كانت اجتاحت ذرية آدم إلى نوح وكان عددهم قليلاً على نسبة قرب نوح من آدم.

وقد اشتبه على بعض الناظرين هذا الأمر، وقالوا: كيف يطغى الماء على اليابسة

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٣.

(٢) سورة يونس، الآية ١٩.

فيجتاح أمة برمتها، كأنهم لا يعلمون أن الحوادث الأرضية كثيرًا ما أحدثت ما يعرفه مَن تَتَبَّعَ أدوار الخليقة حتى بعد تدوين التاريخ، فقد ثار مرة بركان فيزوف سنة (٧٩) بعد الميلاد فغمر مدينة بومبيتي برمتها، وأباد أهلها جميعًا وهم لاهون[1]، وكثيرًا ما حدث زلزال فأطغى السائلة على اليابسة، وأهلك مئات الألوف كما حدث في مسينا من إيطاليا سنة ١٩١٠، إذ زُلْزِلَتِ الأرض هنالك زلزالاً شديدًا، فهدم الدور على أهلها، وأطغى المياه على المدينة، فقتل من أهلها نحو مائتين وخمسين ألفًا، وكانت كارثة ارتاع لها الناس جميعًا.

وقد حدث زلزال منذ نحو عشر سنين في اليابان، كان لا يقل في شدته عن زلزال مسينا. وثارت أواذي البحر فأغارت على الشواطئ، فأغرقت ألوفًا مؤلفة.

والأعاصير متى أطلق لها العنان أحدثت من الخسائر ما لا يدخل تحت الحصر، وقذفت بالمياه على الأرض، فاجتاحت جماعات بِرُمَّتِهَا، والتلغرافات العالمية تنقل إلينا هذه الحوادث من حين إلى حين.

الخلاصة، أن العالم اليوم يتطلب الدين الأول للإنسان الموافق للغريزة التي فطر عليها الإنسان خالصة من شوائب الخيالات، وهذا هو الإسلام بأخص معانيه، وليس له معنى غيره، وإن كان لابد من الاستشهاد بقول عالم اجتماعي على صحة ما نقول، فهذا الأستاذ (هنري بيرنجيه) يقول كما ورد في المجلد ٢٤ من مجلة المجلات الفرنسية:

---

(١) بومبيتي: هذه مدينة من مقاطعة نابولي بإيطالية، كانت معتبرة ملهى لأسرياء الرومانيين، وكان يسكنها ثلاثون ألف نفس، فلما ثار بركان فيزوف القريب منها غمرها كلها فجأة بطبقات من الرمال والصخور السائلة والحمم البركانية، ثم عفى عليها النسيان حتى كانت سنة ١٧٤٨، فعثر فلاح إيطالي على تماثيل على الأرض، فأمرت الحكومة بالحفر هنالك، فانكشفت لهم المدينة، ومازالوا يحفرون حتى جردوا الحمم عن ثلاثة أخماسها، فرأوا ما يدهش من مباغتات الهلاك: وجدوا أنه قد أخذهم طوفان الحمم وهم يأكلون ويشربون، ويبيعون ويشترون، ويتنزهون ويلعبون، واستفاد التاريخ بكشف الأنقاض عن هذه المدينة كثيرًا من عادات الرومانيين وطراز حياتهم وشكل معيشتهم البيئية والاجتماعية.

"إذا كان النقد التاريخي قد هدم كل الأشكال المتحجرة في الأديان، فإنه لم يستطع أن يعدو على الغريزة الدينية، بل شهد باستمرارها وشيوعها في كل دور من أدوار التاريخ، فكل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد على أن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه".

إلى أن قال: "هذه هي الشرارة البسيكولوجية (النفسية) التي استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان، فمن المستحيل عليه أن يطفئها، ولكنه سينقلها إلى المستقبل"[1].

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد التاسع ـ سنة ١٣٥٧هـ ص٤٣٣.

" هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ؟"

لا مُشاحة في أن الديموقراطية تكابد في هذا العصر أزمة خطيرة، لا من ناحية أنها تقوم على أصول فاسدة، كما يقوله خصومها، ولكن من جَرّاءِ غُلُوٍّ بعض الشعوب في تطبيقها، وسوء فهم الأصول التي تقوم عليها.

أول دعامة تقوم عليها الديموقراطية: المساواة بين الأفراد، وقد قام الخطباء من لَدُنِ الثورة الفرنسية إلى اليوم بالإشادة بهذا المبدأ، والمبالغة فيه، إلى حد أنْ أوهموا الدَّهْماء أنها مساواة مطلقة من كل قيد، وأن لكل فرد الحق في كل مزايا الاجتماع حتى ولاية الأحكام، وقيادة الجماهير، متغافلين في ذلك عن الحقوق المشروعة للنخبة الممتازة من الجماعة، وكانت ثمرة هذا التطرف نشوء الشيوعية وما دونها من المذاهب الغالية. وقد اعتبر بعض النقاد أن ذلك من عيوب الديموقراطية، وشرعوا في إسقاطها وإحلال نظام آخر من الحكم محلها، مع أنها تَبْرَأُ من إطلاق المساواة إلى حد توليد هذه الأمراض الاجتماعية العُضالة.

فكيف يمكن تبرئة الديموقراطية من هذه التهم، وإخراجها من المأزق الذي دُفِعَتْ إليه وهي – كما يشهد العقل والعلم – خير ما أتيح للناس من نظام يقوم بين الناس على أساس طبيعي حكيم؟

لا يمكن ذلك إلا بالاستعانة بالفلسفة والعلم، وهما معول الديموقراطية في إثبات صحتها.

فأما الفلسفة فلا تسمح باعتبار مبدأ المساواة على إطلاقه. فإذا كان لابد منها في توزيع الحقوق والعدالة، فليس ولاية الأمور العامة من هذه الحقوق ولا العدالة، فهي تقتضي من العلم والاطلاع والاختبار ما لا يوجد إلا في أفراد معدودين، ولا يتفق قط أن يوجد في جميع آحاد أمة تقدر بالملايين.

ولو نظرنا إلى العلم رأينا أنه قوة محافظة لا تدعو إلى التسوية المطلقة بين الكافة، ولكن إلى التفرقة الدقيقة بين طبقات الناس لتضع كلا في المكان الذي تزدهر مواهبه فيه.

وإذا اعتبرنا الرجل الذي كانت كتاباته عوامل باعثة على تقرير حقوق الأفراد، وتأييد مبدأ المساواة، وهو (جان جاك روسو) الفيلسوف الفرنسي المشهور (١٧١٢-١٧٧٨)، حتى قيل إنه موقد نار الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية بكتاباته القيمة، فهل كان هو نفسه من دعاة المساواة المطلقة المؤدية إلى هضم حق الكفايات الممتازة، والمواهب الفذة التي يفتح عليها ما لا يفتح على الجماهير مجتمعين؟

قال (جان جاك روسو) في الفصل الثاني من كتابه: (العقد الاجتماعي):

"إن الإرادة العامة تعتبر مستقيمة دائمًا وتميل إلى المصلحة العامة، ولكن لا يلزم من ذلك أن تكون مشاورات الشعوب مؤدية إلى السداد. فالإنسان يريد الخير لنفسه ولكنه قد لا يراه فيخطئه. ومن المحال رَشْوُ الشعوب، ولكن من الممكن خدعها".

وقال في موطن آخر من ذلك الفصل:

"الشعب ـ بحافز من ذاته ـ يتطلب الخير، ولكنه قد لا يهتدي بذاته إليه. فإرادته كما ترى صحيحة، ولكن الحكم الذي يقودها قد لا يكون على شيء من الهدى.

"فهو يجب أن يُرَى الأمور على ما هي عليه، وأحيانًا على ما يجب أن تظهر به إليه، وأن يُدَل على الصراط المستقيم الذي يبحث عنه، وحمايته من تَسْوِيل الإرادات التي

تَحْتَوِشُهُ لتفتنه، ويجب أن تقرَّب إلى عينيه الأمكنة والأزمنة، والمقابلة له بين حوادث المنافع الحاضرة المحسوسة، وبين خطر الويلات البعيدة المحجوبة عنه.

"فالآحاد قد يرون الخير الذي يهملونه، والجمهور يريد الخير الذي لا يراه. فكلاهما في حاجة إلى الهداة".

هذا رأي واضع كتاب: (العقد الاجتماعي) الذى يُعْتَبَرُ مُوقِدَ كُبْرَيَاتِ الثورات الاجتماعية التي هبت للمطالبة بحقوق الشعوب وبالمساواة، ولننتقل إلى الثورة الفرنسية نفسها لنرى هل ترى رأى المطلقين في المساواة؟ فنجد في المادة السادسة من إعلان حقوق الإنسان – وهو الكتاب المقدس لتلك الثورة – ما يأتي:

- "كل الوطنيين متساوون في الأهلية لجميع الخطط الاجتماعية على حسب استعداداتهم، ودون أي تمييز بينهم إلا ما يكون من ناحية خصائصهم ومواهبهم".

وفي هذا دليل على أن الثورة الفرنسية التي يرجع دعاة الإطلاق إليها تفرق بين الناس بمواهبهم وخصائصهم، أي بصفاتهم الأدبية، أي بعقولهم وقلوبهم، وهل يراد أكثر من هذا من ثورة قامت تطالب بالمساواة بين الناس؟

فتلك المساواة التي أهرقت الشعوب دماءها للحصول عليها هي المساواة في الحقوق الطبيعية التي لكل فرد أن يتمتع بها، فلا يصح أن يسمح لعظيم من العظماء ما لا يسمح به لأفقر وأجهل رجل من الهيئة الاجتماعية. مثال ذلك: إذا حَرَّمَ شعب على آحاده السير من جهة اليسار، وجب عليه أن يؤاخذ المخالفين لذلك على حَدٍّ سُوَى، سواء أكانوا من السُّرَاةِ أم من الدَّهْمَاء. وإذا قتل فردٌ نفسًا وَجَبَ أن يُقْتَصَّ لها من قاتلها، وإن كان من أعظم العظماء. هذا معنى المساواة، ولكن هل يؤدي هذا المعنى إلى وجوب اعتبار أي نابغة من النبغاء، وأي جاهل من الجهلاء على حد سُوى فيما يتعلق بإسناد بعض المهام الاجتماعية إلى واحد منهما؟

لا يقول بهذا إنسان له عقل وشعور. وإذا كان الأمر كذلك، فمن أين نشأ للعامة

وخطبائهم، من الذين يتملقونهم لاجْتِلابِ أصواتهم، سوءُ الظن بالطبقات العالية، حتى إنه لَيوجد في البلاد الديموقراطية حقد مختزن في قلوب العامة عليهم؟

نشأ ذلك من أن الطبقة العالية من الحاكمين قبل عهد الديموقراطية كانت طبقة فاسدة التكوين، مؤلفة من أفراد قذفت بهم وراثة الألقاب إلى مكانات الرفعة دون أية ميزة عقلية ولا علمية كانت لهم. فلما نادى الخطباء الشعبيون: لتسقط الأرسطوقراطية، لتسقط الطبقة العالية، شايعهم الدهماء مقتنعين، وأقبلوا يحطمونها باطشين. ولو كانوا قالوا: لتسقط الأريسطوقراطية الزائفة، لتسقط الطبقة العالية المزوَّرة، لكانوا أقرب إلى الحق مما خاضوا فيه.

لستُ بما أكتب أريد التدليل على أن الأريسطوقراطية خير من الديموقراطية في قيادة الشعوب، ولكني أريد أن أبرهن على أن الديموقراطية الحقة لا تَعني بمبدأ المساواة، تجاهلَ المزايا الطبيعية والأدبية للأفراد فتزنهم جميعًا بمعيار واحد، ولكنها بإبطالها الحقوق المكتسبة بالوراثة تمكِّن أصحاب المواهب العالية، والمزايا الجليلة من شغل مكاناتهم من قيادة الهيئة الاجتماعية، من غير أن يصادفوا موانع تمنعهم من بلوغ هذه الغاية استنادًا إلى نَسَبٍ رفيع أو حق موروث. فهذا هو الذي كان يتطلبه جميع المصلحين، وهذا نفسه الذي دعت إليه الثورات الإنجليزية من لَدُنِ القرن الثالث عشر والثورة الفرنسية التي حدثت سنة ١٧٨٩ وكانت مثالاً لجميع ما تلاها من الثورات الاجتماعية في سبيل تحرير الشعوب، وهذا هو الذي قرره الإسلام قبل حدوث هذه الثورات بقرون كثيرة، فإنه مع تأسيسه مبدأ المساواة في الحقوق الطبيعية بين الأقوياء والضعفاء، ومَحْوِهِ نظام الطبقات القائم على الوراثة، وتطهيره المجال من جميع النَّعَرَاتِ الجاهلية، قرر أن حق القيادة يُوكَلُ للأَفْضَلِينَ جَرْيًا على قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾[1]، ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، من الآية ٥٠.

(٢) سورة الزمر، من الآية ٩.

وقد جرى النبي ﷺ في إصلاحه الاجتماعي على هذا المبدإ القرآني، فأسند الأمور إلى أهل الكفايات والسابقات الحسنة، غير مُكْتَرِثٍ إلى نَسَبٍ رفيع أو وَضِيع، أو شرف تَلِيدٍ أو طريف، فولى الأمور العامة الموالى والعبيد، والصالحين من أي جنس كانوا، لا فرق بين عربي وفارسي ورومي وغيرهم. وهو لم يُرِدْ بذلك تطبيق مبدأ المساواة على إطلاقه، فإن ذلك غير معقول، ولكنه أراد منه تطبيقه على وجهه الصحيح. أي أنه لم يكن يقصد هدم الأوضاع الطبيعية التي يقوم عليها كل اجتماع، وهو وجود طبقات متفاوتة في الكفايات العقلية والأدبية والمالية، ولكنه قصد حل الطبقات التي أوجدَتْها عوامل غير طبيعية، قامت على الاغتصاب والوراثة والعصبية، وإيجاد غيرها تقتضيها طبيعة الاجتماع الصحيح، وتستدعيها المساواة الحقة.

وهذا ما قصدَتْه الثورات الاجتماعية التي حدثت بعد الإسلام بقرون كثيرة وكانت من ثمراتها الديموقراطية.

فالمجتمعات البائدة لم تكن مَعْلُولَةً لأن فيها طبقات متفاوتة، ولكنها كانت كذلك لأن الطبقات فيها كانت مغتصَبة ووراثية، وخالية من الروح التي تقتضيها وهي السموّ والنبوغ والمواهب الفطرية. فكل الذي أحدثه الإسلام وأحدثَتْه الثورات التي هبت بعده هي إسقاط السُّرَاة الزائفين، وإحلال سُرَاة حقيقيين مكانهم، تقوم مكاناتهم على الفضائل الصحيحة، والمواهب الكريمة، لكي يتولى أقوياء العقول، وكبار القلوب، وكرام النفوس، مهمة قيادة الجماعة بدل أولئك الأشباح الذين رفعتهم إلى تلك المكانات غفلة الشعوب، وغلبة الصفات الساقطة عليها.

فإذا كانت قد حدثت مذاهب متطرفة كالشيوعية والفَوْضَوِيّة، استندت إلى مبدإ المساواة المطلقة، فليس ذلك عاب الديموقراطية، فإنها بريئة من إطلاق مبدإ المساواة، بل تنافيه من كل وجه إلا في الحقوق الطبيعية كما رأيت.

وإذا تمكن خصوم الديموقراطية من إسقاطها بإلصاق أمثال هذه التهم بها، فلا يمكن أن يقوم على أنقاضها إلا مذاهب استبدادية لا تستند إلى مبدإ المساواة لا مطلقًا ولا مقيدًا، ولكن تستند إلى القوة.

فإنْ قيل إن الديموقراطية مسؤولة عن وجود هذه المذاهب؛ لأنها لاستنادها إلى مبدإ حرية الرأي قد سمحت بأن تدعو إلى نفسها، وبأن يَصْبَأَ جماهيرٌ من السذج ومن يُراد تسخيرهم إليها. فلو كانت أخذَتْهم بالحزم، وعاملَتْهم بما هم أهله من الشدة لأمكنها القضاء على مذاهبهم قبل أن تنتشر وتصبح شؤمًا على من تنشأ بين ظَهْرَانِيهِمْ.

نقول: إذا سمحت الديموقراطية لنفسها بأن تسلك هذه السبيل في كَبْتِ كل صاحب مذهب، لَبَطَلَتْ أن تكون ديموقراطية، فإن من صفاتها احترام جميع الآراء والمذاهب ما دامت لا تثور على النظام العام بالقوة. ولو سُمِحَ للديموقراطية أن تعامل خصومها بالشدة، لانقلبت إلى أداة استبدادية، وخسرت جميع المزايا التي يقوم عليها جمالها، وفقدت كل الدعائم التي يستند إليها وجودها.

فإنْ قيل: إذا كان الأمر كما تذكر، فما الذي يضمن وجودها؟

نقول: الذي يضمن وجودها هو الضمير البشري، فإن الجماعة أو طائفة كبيرة منها إن افتتنت بدعوة تناقضها في دور من أدوارها، وجرت عليها شوطًا بعيدًا، فلا تلبث، بعد أن تذوق وَبالَ أمرها، أن تعود إلى حضن الديموقراطية، وتكون هذه المرة أشد حرصًا عليها، وكَلَفًا بها، مما كانت عليه أول مرة.

على هذا النحو، تحمي الديموقراطية وجودها، وهو الأسلوب نفسه الذي تحمي به الحقائق وجودها وخلودها[1].

---

(١) مجلة الأزهر – المجلد العاشر سنة ١٣٥٨هـ ص٤٦٧.

أول ما وُجِدَ الإنسان على الأرض كان جاهلاً كل الجهل، وكان مع جهله هذا ليس بمجرد من عاطفة دينية كما يدل عليه كل ما وُجِدَ من آثار الأمم السابقة على التاريخ، فلم تشاهَد جماعة من جماعاته محرومة من دين ساذج يناسب الحالة العقلية التي كانوا عليها. ولا تزال توجد في الأرض قبائل متوغلة في التوحش تعطينا مثلاً محسوسًا على ما كان عليه الإنسان في أول وجوده. ومما هو محقق: أن الخالق سبحانه وتعالى لم يحرم الإنسان – وهو في ذلك الدرك الأسفل من وجوده – من رسل يهدونه إلى الحق بالقَدْرِ الذي يطيقه تعقّله. ولكنه ما كان يلبث أن ينقاد لأوهامه فيؤلّه قوى الطبيعة، أو يتخيل وراء ظواهرها رُوحًا أو أرواحًا تمنحه الخير متى رَضِيَتْ عنه، وتقذفه بالشر متى سَخِطَتْ عليه، فكان يَسْتَجْلِبُ رضاءها عليه بما تزينه له عقليته الناقصة ولو بتضحية فلذة كبده لاسترضائها. ولا شك أنه كان يَصْدُرُ في كل ذلك عن رجال نَحَلُوا أنفسهم صفة الوساطة بينه وبين الآلهة، فكان يدين بما يوسوسون له به، غير طالب على ما يقولون دليلاً، لا لأنه كان يقدسهم فحسب، ولكن لأنه لم يكن يميز بين ما هو حق وما هو باطل من العقائد، فكل شيء كان عنده صحيحًا ما دام يصدر عن المهيمنين على ديانته.

فلما حصل للإنسان بعض العلم بالوجود الذي يعيش فيه، وأخذت قواه العقلية تُشْعِرُهُ شعورًا ساذجًا بأن من الأمور ما هو حق ومنها ما هو باطل، ازداد تعويلاً على قادته، وتمسكًا بما يُفْضُونَ به إليه، وتسليمًا منه بأن الحق لا يعدو ما يؤاتونه إياه على أية حال.

انتقل الإنسان درجة – بل درجات – في باحات العلم، وقَوِيَتْ فيه غرائزه

الأدبية، واستعدت للقيام بحصتها من حياته العقلية، فلم يؤثر هذا في خضوعه لأوليائه، لأنهم بها انقطعوا لمهمتهم الروحية كانوا يسبقونه إلى التطور فيوفونه حاجته من الغذاء العقلي، فكان يضطر للانقياد لهم، إذ يصادف لديهم كلما حفزته الحاجة إلى المزيد منه، فيظل أسيرًا في قبضتهم.

تتابعت القرون والأجيال، والناس جميعًا على هذه الحال، حتى ولدت الفلسفة اليونانية ونبغ بين أحضانها رجال وَقَرَ في أنفسهم أن من حق عقولهم عليهم أن يناقشوا رجال الدين فيما يُدْلُونَ به إلى الناس من عقائد، فكان جزاؤهم القتل، وأكبر من ذهب منهم ضحية لهذه التهمة الفيلسوف (سقراط) عمدة الفلسفة اليونانية.

ولكن ما لبث هذا الحَجْرُ على الفكر أن خفت وَطْأَتُه، فتمكن فلاسفة كثيرون من الإفضاء بمذاهبهم إلى الناس، وفي بعضها ما يخالف عقائد عامتهم، بل منها ما يفضي إلى المادية البحتة.

ولكن هذا العهد لم يَدُمْ طويلاً؛ فإنه لما عمت الديانة المسيحية أوروبا أصبح لحَفَظَتِهَا من السلطان ونفاذ الكلمة ما ليس للملوك المُتَوَّجِينَ، فوضعوا حدودًا للنظر لا يسمح لأحد بتعدّيها، فوقفت حركة الفكر أكثر من ألف سنة لم ينبغ في أثنائها – على ما يقول المؤرخون – عالم واحد في أي فرع من فروع العلم، وبقيت كتب الأوائل مكدسة في المكتبات ترعى فيها الحشرات.

فكان العالم لا يخلو في أثناء تلك القرون الراكدة من نبوغ عقول نَيِّرَةٍ تبحث في بعض الشئون الكونية، وتأتي بما يعده القائمون بالأمور الدينية زَيْغًا، فكان هؤلاء المفكرون يُحَاسَبُونَ على ما أَتَوْا به حسابًا عسيرًا، فيُسْتَتَابُونَ ويُعَزَّرُونَ إن كانت جريمتهم هينة، فإن عادوا لمثل ما أُخِذَ عليهم فجزاؤهم كان القتل على أبشع حالة.

هذه الشدة المتناهية في القسوة لم تمنع العقول القوية من الظهور آونة فآونة، فكان حَفَظَةُ العقائد يلتقطون أصحابها واحدًا واحدًا ويخمدون أنفاسهم، حتى لا تَسْرِىَ عدواهم لسواهم. ظلت الحال جارية على هذا النحو حتى بلغ عدد ضحايا الفكر

الحر أكثر من ثلثمائة ألف، أُحْرِقُوا بالنار، أو أُلقوا في البحار، أو ماتوا وَخْزًا بالسَّفَافِيدِ المُحَمَّاةِ... إلخ.

ومن عجبٍ، أنه كلما ازداد عدد هذه الضحايا كَثُرَ المُتَرَسِّمُونَ لخطواتهم، وكلما أَمْعَنَ رجال الدين في عنادهم، استبسل رجال الفكر في جهادهم، وتَيَقَّظَ الناس من سُبَاتِهِمْ، وبعد أن كان النزاع محصورًا بين رجال الدين ورجال العلم، تعداهم إلى رجال الدين أنفسهم، وما هي إلا فترة حتى انصدعت وحدتهم، فأعلن جمهور كبير منهم عزلتهم، مؤسِّسين مذهبًا جديدًا للمسيحية باسم (البْرُوتِسْتَانْتِيَّة)، فيها تسامح كبير إزاء رجال العلم، ومجال فسيح للفكر الحر والرأي المستقل، وكان ذلك في القرن السادس عشر، أي بعد ظهور الإسلام بنحو ألف سنة.

الناظر في هذه السلسلة الطويلة من التنازع يظنها تطورات أدبية محلية، والحقيقة أنها تتصل بالنهضة التي أحدثها القرآن في الشرق اتصالاً وثيقًا؛ فإن المسلمين اتصلوا بأوروبا من جهة غربها منذ أواخر القرن الثامن الميلادي بفتحهم للأندلس، فأسسوا فيها دُورًا للعلم، وجروا فيه من حرية البحث واستقلال الرأي على ما يقضي به الدستور القرآني، فتأدوا إلى مدًى بعيد من المعارف والفنون، وصارت جامعات قرطبة وإشبيلية مَثَابَةً لطلاب العلم الغربيين، فنهلوا من معينها الصافي ما لا يصلون إلى مثله في بلادهم، ومَرَنُوا على الأسلوب الذي كان يجري عليه علماء المسلمين من الحرية والاستقلال، فتشبعت به نفوسهم، وارتاحت إليه عقولهم، فلما عادوا إلى بلادهم أخذوا يبثون في مواطنيهم هذه الروح الجديدة، فَسَرَتْ في أذكيائهم سَرَيانَ النور في الظلام، وفتحت أمامهم آفاقًا من النظر، ووقفتهم على مواطن الفساد من نظمهم التعليمية، وسلطاتهم الاستبدادية. ومتى أُشْعِرَتِ النفوس بنقصها اندفعت مضطرة بغرائزها لتكميله، فانتدب أفراد منها للتفكير والنظر، غير مُعْتَدِّينَ بالحدود التي أمرت السلطة الدينية بعدم تعديها، فحدث من جَرّاءِ ذلك كل ما ذكرناه من ذلك التاريخ هنا.

أما دخول العلم الإسلامي إلى أوروبا من طريق الأندلس وطريق إيطاليا فأمرٌ قد اعترف به مؤرخوهم، وأما استمدادها روح نهضتها من النهضة الإسلامية فحادث لا يمكن المِرَاءُ فيه؛ لإجماع مؤرخيها أن علوم المسلمين وآدابهم هي التي أيقظت أهلها من سباتهم، ودفعتهم لبلوغ هذا الشَّأْوِ من المدنية التي هم عليها اليوم. ولست أحب أن أطيل الكلام بإيراد الشواهد من كتب مؤرخيهم، فإنه أصبح معلومًا من الناس أجمعين، وقد أكثرنا من ذكره في جميع بحوثنا السابقة.

أما بيان الأسلوب الذي تمكن به القرءان من كسر القيود الفولاذية التي كان يَرْسُفُ فيها الفكر الإنساني في مدى سنين معدودة، بعد أن لبث عليها قرونًا كثيرة، فإن في بيانه عبرة للسائلين، وآية للناس أجمعين.

أنزل الله القرءان والناس على ما تعلم من عبادة الأهواء، والجمود على تقليد الآباء، والطاعة العمياء للزعماء، فلو كان جرى على الأسلوب البشري في بَعْثِ هذه العقليات الخامدة، وتنبيه هذه النفوس الهامدة، لاستدعى ذلك قرونًا وأجيالاً. ولكنه أتى في هذا الموطن بآية سيرفعها الناس إلى أعلى من مستوى إحياء الموتى، حين يعرفون أن نقل النفوس عما ورثَتْه طفرة، دونه نقل الجبال الشُّمِّ من أماكنها.

تصدى الإسلام لتحرير العقلية الإنسانية من طريق غير مباشر، فجاءها من الناحية التي يشتد شعورها بها، وهي ما ستَئُولُ إليه بعد الموت، فأفاض في ذلك العذاب الذي ستلاقيه النفوس الكافرة الجاحدة إفاضةً لم تُؤْثَرْ عن سواه، وبالغ في تهويله على ضُرُوبٍ تنخلع لها القلوب وترتعد منها الفَرَائِصُ، مؤكِّدًا أن الإنسان وهو في تلك الحالة لا تُجْدِيهِ شفاعة شفيع ولو كان مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا قرابة قريب ولو كان رسولاً مُكْرَمًا، بل لا يجد من يتطوع لإنجاده من أب أو أم أو صديق، لاشتغال كل امرئ بنفسه: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[1]، ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ

---

(١) سورة عبس، الآيات ٣٤:٣٧.

ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[1]، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾[2]، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ الأَسْبَابُ﴾[3]، ﴿وَقَالُوا (أي أصحاب النار) رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾[4]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾[5]، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6]... إلخ إلخ.

الناظر في هذه الآيات، وفي الكتاب عشرات من أمثالها، يعجب من كثرتها، ولكنه لو أدرك أن هذا كله تمهيد لأعظم إصلاح تم حدوثه في الأرض، وكان فاتحة لكل الإصلاحات التي تَلَتْهَا من بَعْدُ، ذلك الإصلاح الذي رمى لأن يرفع عن النفوس البشرية نِيرَ العبودية للأوهام والتقاليد التي أمسكتها في الظلام أجيالاً طويلة، تَبَيَّنَ له وجه الحكمة من الإكثار من هذه الزَّوَاجِر.

ألا ترى أن النفوس متى تحققت أنها لا ينجيها من عذاب الآخرة شيء غير عملها الذاتي، انساقت للنظر في وجه خَلاَصِهَا، وما دام لن ينفعها شفاعة شفيع، ولا قرابة قريب، ولا اتّباعها لمن تتخيل فيهم الهداية، وتتوهّم منهم الوساطة، كَرِهَتِ الجمود على الموروثات، ومَقَتَتِ التقليد للآباء، وأيقظت في نفسها خَاصَّةَ

---

(١) سورة المعارج، الآيات ٨:١٤.
(٢) سورة النجم، الآيات ٣٩:٤١.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٦٦.
(٤) سورة الأحزاب، الآية ٦٧.
(٥) سورة البقرة، الآية ١٧٠.
(٦) سورة البقرة، الآية ١٣٤.

النقدِ والتَّمْحِيصِ في كل ما يَعْرِضُ لها من العلم، فلم تَعُدْ أسيرةَ أحد فيما تعتقده وما تأخذ به؟ وهذا هو معنى حرية الفكر واستقلال الرأي الذي سعى لإقامة دولتيْهما العباقرة أجيالاً متطاولة، وبذلوا في تشييدها دماءهم رخيصة، وأقامها الإسلام في سنين معدودة.

وقد رأيت أن الإسلام قد جاء بهذا الإصلاح للآخذين به طفرة، مؤسِّسًا إياه على أرسخ غرائز النفس، وأعمق نَحَائِزِها، فنشأت أمة تنظر وتفكر، وتدعو كل فرد منها ليفكر لنفسه، ويعمل لها، وقد خلد رسول الله ﷺ هذا الأصل بكلمة من صميم العلم الإلهي، وهي قوله لابنته: "اعملي يا فاطمة، فإني لا أغني عنكِ من الله شيئًا".

وقد نشأ في هذه الأمة عدد لا يحصى من العلماء والحكماء، فلم يَقُلْ واحد منهم: خذوا بما أقول لا تنظروا فيه، بل قالوا كلهم كما قال مالك: "ما من أحد إلا وهو مأخوذ منه ومَرْدُودٌ عليه إلا صاحب هذه الروْضة" يعني: النبي ﷺ.[1]

---

(١) مجلة الأزهر – المجلد الثامن، سنة ١٣٥٦، ص ٧٠٩.

مترجمة من كتاب: "فلسفة الدين" للفيلسوف "أجوست سباتييه" - أستاذ الفلسفة بجامعة باريس

"إننا نستطيع الآن أن نستخلص أصل الدين وأن نضع له تعريفًا. فهو صلة وعلاقة معروفة ومرادة، تنشئها الروح المكروبة بينها وبين القدرة الخفية التي تشعر هي أنها تابعة لها، وأن مقدوراتها تحت مشيئتها. فالصلاة هي الدين في حالة العمل، أي: هي الدين الحق. فالصلاة هي التي تميز الظاهرة الدينية من كل الظواهر التي تشبهها أو تجاورها، كالشعور بالأدب، والشعور بالجمال. فإذا كان الدين حاجة عملية للإنسان فَتَوْفِيَتُها لا تكون إلا عملية كذلك. فأية نظرية لا تكون كافية في هذا الموطن، لأن الدين لا يكون شيئًا يعتد به إذا لم يكن عملاً حيويًا بواسطته تحاول النفس أن تنجو من الهلاك بالتجائها إلى أصلها الذي تنزلت منه. وهذا العمل هو الصلاة. وهي كما أعنيها ليست التلفظ بكلمات، أو ترديد عبارات، ولكنها الحركة التي تقوم بها النفس لتضع نفسها في علاقة شخصية واتصال مباشر بالقدرة الخفية التي يحس الإنسان بوجودها حتى قبل أن يستطيع أن يطلق عليها اسمًا. فحيث لا توجد هذه الصلاة الباطنية فلا يكون هناك دين. وعلى العكس حيث تنبع هذه الصلاة وتحرك الروح حتى في غيبة أي شكل من الأشكال وأي مذهب مقرر، فهناك دين حي بمعناه الصحيح. وبناء على هذا، فإن إيراد تاريخ الصلاة يعتبر أحسن تاريخ لتَوَلُّدِ الدين في النفس الإنسانية. وقد رأيت أن هذا التاريخ قد بدأ بالصلاة في أخشن أشكالها، وانتهى بالصلاة على أكمل حالاتها على شفتي عيسى،

وهي لم تكن تعني إلا الخضوع لله والثقة بإرادته الأبوية (ينطبق هذا الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[1].

"لهذا التعريف التعييني للدين مَزِيَّةُ إصلاح تعريف (شلاير ماكر)[2] وتكميله. لأنه يوفق بين العنصرين المتضادين اللذين يؤلفان العاطفة الدينية، وهما: العنصر المنفعل والعنصر الفاعل، أي الشعور بالتبعية والشعور بالحرية. فالصلاة ينبوعها من شعورنا بالفاقة والقهر تخلصنا منهما؛ لأنها تقتضي الخضوع والإيمان. فأما الخضوع فهو يجعلنا نسلم بتبعيتنا ونرضى بها، وأما الإيمان فيحوّل تبعيتنا إلى حرية. ومن ناحية أخرى فإن هذين العنصرين يقابلان قطبي الحياة الدينية، لأن الإنسان في كل تقوى حقيقية يسجد أمام القدرة العليا التي تحيط به، ثم ينهض حاصلاً على شعور بالخلاص من الأَسْر، وبالوفاق مع الله جل وعز. ولكن (شلاير ماكر) قد أخطأ بعدم اعتماده إلا على ناحية التسليم فحسب. ولم يستطع بعد ذلك أن يخلص من مذهب وحدة الوجود ليصل إلى باحة الحرية، ولا أن يجد أي ارتباط بين الحياة الدينية والحياة الأدبية. وعلى هذا، فالدين عملٌ حر بقدر ما هو شعور بالتبعية. وهذه طبيعة الصلاة وخاصتها في تحويلها كل شيء عن حالته. فالشعور الساحق الذي كان اعتراني عقب هزيمتي، انقلب شعورًا بالفرح لانتصاري. وكل حالة من الحالات تستحيل إلى ضدها، بحيث إن الإنسان المتدين يعيش في طاعة حرة، وفي حرية طائعة، في وقت واحد.

"فإذا كان الدين في أكثر الأحيان قد استُعمِل قوة للقهر، وأداة للاستعباد، فقد كان أيضًا – في أكثر الأحيان على الأقل – أصلاً لجميع الحريات. فالقوة التي تستطيع أن تثنيني هي نفسها تستطيع أن تقيمني؛ لأنها تمر بروحي. والإله الذي أعبده سيصير لي في النهاية الإلهَ الباطني الذي يدفع عني كل مخافة، ويضعني فوق

---

(١) سورة النساء، من الآية ١٢٥.

(٢) شلاير ماكر: فيلسوف ألماني مشهور (١٧٦٨-١٨٣٤).

جميع التهديدات المادية. فتحقيق وجود الله في روحي على علم مني بذلك، هو الخلاص المحقق لذاتي ولحياتي.

"لقد عرفت الآن لماذا الديانة الطبيعية تقصر عن أن تكون ديانة. ذلك لأنها تحرم الإنسان من الصلاة، فتدع الله والإنسان بعيديْن أحدهما عن الآخر؛ فلا تكون بينهما صلة صميمة، ولا مخاطبة باطنية، ولا مبادلة بينهما، ولا عمل إلهي في الإنسان، ولا رجوع من الإنسان إلى الله. وإذا تعمقت في جوهر هذه الديانة وجدتها جزءًا من الفلسفة، ولدت على عهد سلطان المذهب العقلي (الراسيوناليسم)(١)، والعمل النقدي، والتعقل الشخصي، فهي تجريد فلسفي، ولم تكن شيئًا أكثر من هذا. وأصولها الثلاثة – وهي: وجود الله، وخلود الروح، وأداء الواجب – ليست إلا مواد ثُفْلِيَّة لا روح فيها، بقيت في قاع البوتقة التي ذابت فيها جميع الديانات المادية. فهذه الديانة التي تزعم أنها طبيعية لم يصادفها أحد في الطبيعة، ومعنى هذا أنها لا طبيعية ولا دينية. ولما كانت صناعية وميتة، فلم تكد تترك شيئًا يُلْحَظُ فيه أنه من الخصائص الدينية. وقد ظهر في زمن من الأزمان أن من مزاياها مناعتها ضد النقد العلمي، ولكن بامتحانها ظهر أنها أقل مقاومة للنقد العلمي من أي دين آخر. والعلة التي أوجدَتْها هي التي تتولى الآن هدمها، وأصولها قد أصبحت اليوم أشد تعرضًا لخطر الدحض أمام الفكر الراهن، من أصول الأديان التي كانت ترجو أن تحل محلها.

نتيجة ما تقدم:

"عَلاَمَ كنا نبحث عندما بدأنا هذه الأفكار؟

كنا نريد من هذا البحث أن نفهم الضرورة التي تُوَلِّدُ الدين في قلب الإنسان، وتطبع ألفاظ الصلاة على شفتيه. يلوح لي أن الضرورة في تلك الساعة تصير أظهر

---

(١) الرَّاشْيونَالِزم Rationalisme مذهب فلسفي ينكر الوحي، ويدّعي تعليل كل شيء بالعقل، وأن الآراء تتولد من العقل مباشرة لا من التجربة.

ما تكون لضميري، وعلى حال لا يمكن دفعها؛ لأني أشعر أنها تأتي من مصدر أبعد من نفسي، ومن ثقافة أعلى من ثقافتي، ومن عادة أرفع من عاداتي وعادات أسلافي. فلأجل اكتشاف أصلها وجب علينا الصعود إلى مصدر الحياة العقلية، والوصول إلى ذلك التضاد الأساسي الذي تتألف منه وتنمو فيه ولا يلبث حتى يزول.. فالديانة هي الصلاة الباطنية والخلاص، وهي من لوازم الإنسان إلى حد أنه لا يستطيع أن يقتلعها من قلبه إلا إذا حكم على نفسه أن ينفصل عن نفسه، وأن يُلاَشِي في ذاته كل خصائص الإنسانية.

"هنا قد يعترض علينا معترض فيقول: إن كان الأمر كما تقولون، فكيف يوجد هذا العدد الكبير من رجال غير متدينين وملحدين؟"

"ونحن نجيبه بقولنا: أليس من الوهم أن نظن وجود عدد كبير من الناس غير متدينين وملحدين؟.. إن الناس ليخلطون ـ وخاصة في بلادنا ـ بين المجافاة الظاهرة لصورة من صور الدين، أو لعقيدة من عقائده، أو لمذهب من مذاهبه، أو لتقليد من تقاليده، وبين الإلحاد واللادينية؛ وهذا خطأ كبير. فكم رجل من هؤلاء الثائرين لا يتبع دينًا من الأديان تدينًا، بل منهم مَن قطعوا علائقهم بالصور الدينية العامية عندما أحسوا بيقظة روح دينية في نفوسهم أعلى وأكثر تجردًا عن المصالح المادية من الأديان الموجودة بين أيديهم. وبمحادثاتي إلى عدد من هذه الأرواح التي يقال عنها إنها مجردة من العقيدة – وقد يخيل إليها هي أيضًا أنها غير متدينة – وجدتُ دائمًا أن الناس لا يعتدّون من هؤلاء إلا بما ينكرون بدون نظر إلى ما يثبتونه. فالرجل الذي يعلن بأنه كافر، هو في الحقيقة ليس بكافر إلا بالإله الذي يعتقد به غيره. فهو ينكر إله قسيسه أو كاهنه، وإله طفولته أو إله جيرانه؛ ولكن تَأَمَّلْهُ جيدًا تجد أنّ له إلهًا لا تدركه الأبصار في صميم روحه، يعبده باسم خاص به، ويجود بنفسه كل يوم في سبيله. وإذا لم يكن هذا الإله عاليًا، كان وا أسفًا إلهًا منحطًّا غليظًا. فيستحيل على الإنسان أن يعيش بدون أن يخرج عن نفسه، وأن لا يهبها لشيء من الأشياء. وليس شيء أكثر محالاً من اعتبار أن هناك تعارضًا بين الاعتقاد بإله لا تدركه الأبصار،

حاضر وفعال على الدوام، وبين الحياة العليا للعقل الذي بعمله القوي في الخفاء يُوجِد العقيدة بالله فينا. فيأيها العدل ويأيتها الرحمة التي تخدمهما وتسعى لتحقيقهما جميع الأرواح الخيّرة، ويأيتها الحقيقة التي يبحث عنها الفلاسفة والعلماء، ويأيها الجمال الجذاب الذي يتراءى لنا ثم يفر على الدوام، ويتعقبه ويعبده الفنانون: ماذا أنتِ جميعًا إذا لم تكوني وجوهًا متعددة لهذا الهيكل الباطن القائم في صميم كل ضمير إنساني، الهيكل الذي يتوجه به كل إنسان إلى الإله الذي ليس له اسم، مهديًا إليه أحسن ما لديه من روحه ومن حياته!

لا يوجد في الواقع إلا صنف واحد من الناس يمكن أن يوصف بالكافر وبالملحد: ذلك هو الصنف الفَسْل[1] الذي يتخذ من فُسُولته سلاحًا وستارًا في آن واحد لحياةٍ قوامها الأَثَرَةُ الوحشية المُتَغَشْمِرَة[2]. إذًا لا توجد لا دينية حقيقية إلا تلك الحالة النفسية القاحلة المحرقة التي يتولد منها على الدوام السَّخَر والازدراء، ذلك المذهب الذي يهزأ أصحابه بكل شيء ويزدرونه، وهو المذهب الذي سماه (جول لومتر) بالاستهزائية. وفي هذا أيُّ تأكيد مؤثر لجميع ما قلناه! فصحيح إذًا أن من يهزأ بالعقيدة في الله يجب أن يبدأ بالاستهزاء بنفسه! وصحيح أيضًا أن في العيش مع الأثرة والمادية، لا يمكن أن يوجد سبب كافٍ للاستمرار في الحياة. وصحيح كذلك أنه لأجل بقاء الشخصية وعدم انطفائها في الظلام الدامس، يجب أن يتضاعف الشعور بالذات في باطن الشخصية، أريد بذلك أن أقول: يجب أن يتضاعف بالشعور بوجود الله.

"إذا كان الأمر كذلك، فإني لا أتردد في القول بأني لا أريد أن أعتزل العالم في فكرة خالصة من جميع العلاقات وجميع الواجبات، فإنّ تكافُلاً أخويًّا ارْتَبَطَنِي قبل أن أوجَد على هذه الأرض. فأنا واحد من أفراد القافلة الإنسانية، ولن أنفصل

---

(١) الفسل: الرجل الرَّذْلُ الذي لا مروءة له ولا جَلَد. وفعله: فَسُلَ يَفْسُلُ فَسَالَةً وفُسُولَةً، على وزن كَرُمَ.

(٢) المتغشمرة: الباطلة.

عنها، وسأسير في طريقها، وسأشاطرها آلامها وآمالها، وسأقول لها: "إن إلهك هو إلهي، وإيمانكِ هو إيماني"؛ وسأجتاز مع هذه السيارة الكبيرة المسكينة(١) الصحاري والقفار، وإن لزم أن أكون ضحية السراب الذي يخادعها، فسأتجه معها نحو الأفق الذي يتألق فيه ذلك الكوكب العجيب الذي يهديها ويجتذبها.

جملة القول: "إني متدين؛ لأني إنسان، ولا أستطيع أن أفر من الإنسانية".

رأينا في هذا البحث الخطير

عَرَّبْنا هذا البحث الفلسفي الخطير للأستاذ الكبير (أجوست سباتييه) مدرس الفلسفة في جامعة باريز، وهو – كما رأى القراء – يرمي إلى إثبات أن الدين فِطْرِيٌّ في النفس البشرية، وأنها لا مَعْدَى لها عنه، وأن الإنسانية لا يكون لها معنى إذا تجردت منه. وهذا يوافق ما قرره الإسلام من كل وجه. ولا يَخْفَى ما لمثل هذا البحث من الأثر في تأييد دين الفطرة في هذا العهد الذي امتلأت فيه الصدور بالشكوك، وطَمَّتِ الشبهات حتى أخذت بِمُخَنَّق العقول(٢).

وقد حرصنا على توفية مبدإ الترجمة الحرفية حقه، رغمًا عما في البحث من تسامح في التعبير أَلِفَتْهُ الفلسفة الغربية وجرت عليه، وهو دَيْدَنُنَا في كل ما ننقله عن الفرنجة؛ ليتبين منه رأيهم الصحيح، ويتضح مرمى ما يكتبون.

وهنا، يحسن أن ننبه القارئ إلى أن كتاب الأستاذ (أجوست سباتييه) واحد من بضعة مؤلفات قال عنها النقاد إنه يرجع إليها الفضل في إيقاظ العاطفة الدينية في القرن العشرين.

على أني ألاحظ على الأستاذ المؤلف إسرافه في تقدير عدد المتدينين، وفي الخلط بين الإله الحق وإله الهوى الذي يخضع له الأكثرون، ولكنهم لا يعتبرونه إلهًا. فمثل

---

(١) السيارة: القافلة، وأصلها: القوم يسيرون. قال الله تعالى: "يلتقطه بعض السيارة" أي بعض الذين يسيرون.

(٢) المخنق: موضع حبل الخنق من العنق.

هذا الإطلاق لو سمح به في الشعر فلا يُسمح به في تحقيقٍ فلسفيٍّ عميقٍ كالذي نحن بصدده.

يقول الأستاذ سباتييه: إن من الوهم أن نظن أنه يوجد عددٌ كبيرٌ من الناس غير متدينين وملحدون، ويضرب لنا مثلاً بمن يكفرون بإله طفولتهم أو إله جيرانهم، ولهم إله لا تدركه الأبصار في صميم أرواحهم يجودون بأنفسهم في سبيله.

هذا حسن ولا نجادل فيه، وفي رأينا أن هؤلاء أفذاذ فيمن يصرحون بأنهم لا دينيون، ولكن أكثرهم لا يعلنون سَرِيرَتَهم ويبقون معدودين من المِلَلِ التي نشأوا فيها، مكتفين بالترفع عما وقع فيه العامة من التجسيد والتشبيه، وعَازِيهِ إلى جهلهم وعاميتهم، ومتربصين بحَيَدَانِهِمْ عن القصد أن يزول عندما ينتشر فيهم العلم، وتُنِيرَ بصائرهم الفلسفةُ.

أما الذين اتخذوا لهم إلهًا منحطًّا غليظًا، فلا يصح أن يوصفوا بالتدين، لأنهم يعرفون جيدًا أن هذا الإله المنحط الغليظ هو هواهم، فإذا كانوا وهبوه أنفسهم فهم يعترفون بأن ذلك سيوصلهم إلى سوء المنقلب. وهذه الحالة ليست من التدين في شيء، ولا تؤدي إلى ما يؤدي إليه الإخبات والخشوع، والشعور بالتبعية لقيوم السموات والأرض.

وقول الأستاذ: "لا يوجد في الحقيقة إلا صنف واحد من الناس يمكن أن يوصف بالكافر وبالملحد، هو الصنف الفسل الذي يتخذ من فسولته سلاحًا وستارًا في آنٍ واحد لحياة قوامها الأثرة الوحشية المتغشمرة"، فهو صحيح، ولكني أخالف الأستاذ في ذهابه إلى أنه قليل العدد. نعم، إنه كان كذلك في القرون الماضية، أيام كان للدين السلطان المطلق على القلوب والعقول، أي إلى ما قبل نحو ثلاثة قرون، ولكنه بعد ذلك بدأ يكثر تحت قيادة علماء حاكموا المعتقدات إلى المقررات العلمية، وأثبتوا مجافاتها لها من كل وجه، ونشروا ما كتبوه بين العامة، فأنكروه أولاً ونفروا منه، ثم أَلِفُوهُ وأَسَاغُوه، ثم هاموا به وتَدَلَّهُوا فيه، حتى أصبح اليوم دين أكثر

المتمدنين. فإذا كنا نبحث عن التدين الآن، فنحن نعمد إلى كبار العقول أمثال (أجوست سباتييه) من أقطاب المفكرين، لا إلى الأوساط الذين تشبعوا بالمبادئ المادية وجمدوا عليها، متابعين في ذلك ما كتبه خصوم الدين في القرون الثلاثة الأخيرة.

ولا أخفي القراء أني مهما أظهرتُ إعجابي بالتحليل النفساني الذي قام به الأستاذ (أجوست سباتييه) وأثبتَ به أن التدين هو معنى الإنسانية ولا إنسانية بدونه، فإني لا أزال أرى أن قضية الدين تحتاج لشاهد من العلم نفسه، يأتي النفوس من ناحية الدستور الذي سَنَّهُ وأصبح العمل به ضَرْبَةَ لاَزِبٍ على العقول.

ذلك، أن العلم قد غرس في النفسية البشرية في العهد الحديث، أن كل معقول لا يؤيده دليل محسوس لا يمكن أن يؤدي إلى اليقين الذي تَثْلُجُ عليه الصدور، وتطمئن إليه القلوب. فمهما تَأَدَّى الإنسان بواسطة التحليلات المدققة إلى نتائج، فإنها لا تخرج عن كونها من المعقولات التي يعوزها الدليل المحسوس. ولا يخفى أن العقيدة لا تبلغ درجة التأثير العملي إلا إذا وصلت إلى درجة اليقين، وأين هي في هذه الحالة النفسية للمعاصرين، الذين يتطلبون الدليل المحسوس، ولا شيء غير الدليل المحسوس؟ فالتدين في هذا العهد يحتاج إلى هذا الدليل المحسوس.

ليس الحصول على الدليل المحسوس في الشئون الاعتقادية في هذا العصر من الصعوبة في الدرجة التي يتوهمها الأكثرون، فيكفي فيها هدم عقيدة سلبية أقامتها الفلسفة المادية من طريق الآراء العلمية، لا من طريق الأدلة الحسية، واكتسبت بالجري عليها صفة المقررات اليقينية، وما هي منها في شيء.

هذه العقيدة السلبية هي: أن الوجود ينحصر فيما تدركه الحواس الإنسانية، ولا شيء فوقه أو وراءه يدبره ويتحكم فيه، فهو قديم بمادته وقواه، وقائم بنفسه لا يحتاج لسواه، وأن كل ما يقال عن خضوعه لقوى أرفع منه، وعن تخلف نَوامِيسِه بعوامل غير طبيعية، فهُراء لا يجوز الالتفات إليه.

يتنزل من هذه العقيدة أصـول تناسبهـا، وهـو: أن لا روح مستقـلة للإنسـان، ولا بقاء له بعد هذه الحياة في عالم أرفع من هذا العالم، وأن الفضيلة والرذيلة أمران اعتباريان، وأن الحياة البشرية قائمة على ما تقوم عليه الحياة الحيوانية من الصِّيَالِ والنضال، وأن المثل الأعلى للإنسان أن يصل إلى درجة السوبرمان، أي الإنسان الحاصل على أقصى ما يمكن الوصول إليه من الكمال، الكمال المقرر عند الماديين، وهو بلوغ قواه البدنية، وخصائصه العقلية، وإرادته الشخصية، إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه على مقتضى الاعتبارات المادية، لا الاعتبارات الروحية، التي هي في نظرهم من بقايا الأوهام الجاهلية.

فهذه العقيدة السلبية التي أقامت صرحها الفلسفة المادية، وأحكمت بناءها في مدى الثلاثة القرون الأخيرة، قد صادفت في هذا العهد الأخير من الاستكشافات العلمية ما هدمها من أعمق قواعدها، بل ما نسفها نسفًا وذَرَّاها في الهواء. ونَصَّبَ مكانها عَلَمَ التعاليم الروحية مؤيدًا بأقوى الأدلة الحسية، على ما تحب الفلسفة العملية، ويتطلبه أهل العصر الراهن من الحجج المادية.

في رأيي، أن تنبيه الغريزة الدينية في هذا العصر يقتضي أولاً تحطيم هذه البَنِيَّة الإلحادية في عقول الناس، فقد أَوَتْ منها على درجات شتى في الصميم، باعتبار أنها مُصَاصَةُ التفكير الحديث الخالص من سلطان القديم. ولا يكفي في تخليص الفطرة الإنسانية من ظلمات هذه المادية ما يُفَصِّلُهُ الأستاذ (أجوست سباتييه) من التضاد بين الشعور الباطني للإنسان، وما عليه الوجود الخارجي من عدم المبالاة به. فإننا نشاهد اليوم أن هذا الشعور بالتضاد وبفداحة تكاليف الحياة قد زادت الماديين مُضِيًّا في إلحادهم، بل اتخذوا من شدة وطأة هذه التكاليف دليلاً محسوسًا على نفي العناية الإلهية التي يدين بها المؤمنون. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الشعور أن جمدوا على ما هم عليه، ونشطوا لنشر آرائهم على صور شتى، بثوا فيها من سموم الإلحاد ما قَدَر سحر البيان عليه.

فالدواء كل الدواء – في نظري – هو هدم تلك العقيدة الإلحادية الثّاوِيَـةِ في أعمق ثنايا الصدور، وهدمها لا يحتاج إلى جهد عنيف، فإن حوادث خارقة للنواميس طرأت منذ نحو تسعين سنة، اضطرت أعلى علماء الكون عقولاً أن يبحثوا في علة حدوثها، فعثروا على حدود العالم الروحاني الذي طالما كـذَّب به الماديون، وبنوا على تكذيبهم به كل ما أسسوه من النظريات المادية، ونمقوه من البحوث الإلحادية.

وفي رأيي، أن تدريس هذه البحوث يجب أن يبدأ به في المدارس الدينية، فإن ما ثبت علميًّا اليوم من هذه الدراسات الروحية هو من أقوى أسلحتها في محاربة المادية. ولا يحط ذلك من قدر هذه المدارس بعد أن اعترف بها العلم الرسمي نفسه. فقد قررت جامعات أمريكية تدريس هذه البحوث منذ بضع سنين، وقررت جامعة كامبردج الإنجليزية، وهي من أشهر الجامعات العالمية، تدريسها في شهر مايو من هذه السنة (١٩٤٠)، وستبدأ الدراسة فيها في أكتوبر المقبل. وهذا فتح ديني خطير لم يسجل تاريخ البشرية له ضَرِيبًا. وقد أعلنّاه لقراء العربية في جريدة الأهرام في شهر يونيو الماضي.

وقد نشرت الجرائد الإنجليزية هذا الخبر، وعَزَّزَتْهُ المجلة الروحية (La Revue Spirite) فقالت عنه في عدد شهر مايو من السنة: "فَتْحٌ جديد قد كسبناه" بعد تمهيد:

"مما يجب أن يسجل هنا عما حدث في جامعة كامبردج، هو أننا لمحنا فيه أن العلم الوضعي قد خطا خطوة جديدة ودخل إلى مجالٍ سبق لعلماء ممتازين أن درسوه ومَحَّصُوه. ومما يجب تكراره في كل مناسبة أن اليوم الذي يعترف فيه العلم بالعالم الروحاني، يخطو فيه بالإنسانية إلى درجة من الرقي لا يتصورها العقل الآن... ونحن في فرحنا لما حدث، وأملنا العظيم فيه، نبعث بأفكارنا المشجعة إلى الذين قاموا بوضع هذا الكرسي الجديد للدراسة الروحية بجامعة كامبردج".

العقبات التي تحول دون تدريس هذا العلم بالمدارس الدينية:

لما ظهرت هذه البحوث في أمريكا سنة (١٨٤٧) أولاً، ثم انتقلت إلى إنجلترة وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها، تولاها بالبحث علماء أعلام، وقرروا أنهم حيال عالم روحاني حافل بالمدهشات تجب دراسته بصبر وتثبت عظيمين، وَغَلَ فيه[١] عدد لا يحصى من خفاف العقول، وأخذوا يجربون فيه تجارب للحصول على أنباء شخصية، وليس لهم من صفة التمحيص العلمي، والتثبت العقلي، ما يقيهم المَزَالّ[٢]، فأساءوا إلى سمعة هذه المباحث الخطيرة أيما إساءة، فتخيلها البعيدون عنها أن الغرض منها استحضار الأرواح وسؤالها عن توافه الأمور. هنا كان المجال فسيحًا أمام المشعوذين والمُمَخْرِقِين، الذين يستغلون سرعة تصديق الناس، فكانوا عقبة كَأْدَاءَ أمام تقدم البحوث العلمية في هذه السبيل.

ولكن العلماء دأبوا على ما هم فيه بصرف النظر عن كل ما حدث حولهم، وأجروا تجاربهم في بيوتهم الخاصة وجامعاتهم ومعاملهم، فتأدوا إلى اكتشافات بعيدة في عالم الروح يجب أن تضاف لحساب الدين ليستغلها المشتغلون بنشره بالأدلة المحسوسة.

هذه العقبات قد ذللت الآن بكثرة عدد العلماء الذين ألفوا فيه، وبكثرة جمعياتهم التي قصروها على أنفسهم، وبتقرير عدة جامعات لتدريس هذه البحوث وزيادة مادتها، وفي مقدمتها جامعة كامبردج كما رأيت.

فالطريق إذًا، قد أصبحت ممهَّدة أمام المجددين.(*)

---

(١) وَغَلَ يَغِلُ وَغْلاً على وزن ضَرَبَ: دخل متطفلاً.

(٢) المزال: جمع المَزَلَّة، وهو المكان الذي يُزَلُّ فيه. وأصل الزَّلَلِ: السقوط.

(*) مجلة الأزهر ـ المجلد الحادي عشر ـ سنة ١٣٥٩، ص٤٦٨.

إذا أراد الفيلسوف أن يحكم على روح عصر من العصور، فإنه لا يحصر نظره في دائرة الرذائل التي تشوب مدنيتها (ولم تتنزه مدنية قَطُّ في زمن من الأزمان حتى في عهود الأنبياء والمرسلين)، ولكنه يوجه محاولاته لدرس العناصر الأدبية التي تتألف منها تلك الروح، والوجهة التي يدفع فيها الأمم المتحركة بحركتها، والمُثل العليا التي تقيمها لها وتحفزهم للوصول إليها.

فالذي يريد أن يحكم على الروح التي كانت سائدة في القرن الأول للإسلام – وهو عصر الخلفاء الراشدين وأقطاب الأمويين – إن حصر نظره في دائرة الفتن التي ثارت فيه، والمنازعات الشخصية والطائفية التي كادت تعيد إلى جزيرة العرب عهد الجاهلية الأولى كاغتيال الخلفاء الراشدين الثلاثة،والتناحر الذي حدث بين أصحاب "عليٍّ ومعاوية وطلحة والزبير" والخوارج، وتغلب أمثال يزيد ومروان على الخلافة، وتقتيل آل البيت، ورمي الحجاج في مكة بالمجانيق حتى هُدِمَ البيت الحرام، وعسف بعض الولاة بالناس وإبادة خضرائهم، وتسخيرهم بحكم الإرهاب لأبشع المطامع المادية، وما ارتكبه المختار في تقتيل الناس باسم الأخذ بثأر الحسين ثم الانتقام منه ومن أصحابه حتى قتلوا منهم سبعة آلاف صبرًا، وما كان عليه بنو أمية من القسوة والاستبداد والترف.. إلخ إلخ – قلنا: لو حصر الباحث نظره في هذه الدائرة لحكم لأول وهلة أن الروح التي كانت سائدة في ذلك العصر روح فيّاضة بالشرور والتناحر، وَلاّدة للفتن والتدابر، ويغفل عن ذلك الانقلاب الخطير الذي حدث في نفسية العرب في ذلك القرن، وكان رغمًا عن كل هذه

الأعراض السيئة، مصدرًا لكل ما تمّ على أيديهم من الأعمال الجليلة في العلم والفلسفة والمدنية.

وإذا كان حظ خير القرون الإسلامية من نظر الواقف مع الأعراض، فماذا يكون حظ القرون التي تلته حيث ظهرت البدع والضلالات، وعمّت الأهواء والشهوات، واشتد كَلَبُ القادة على الاستبداد بالسلطان، والاستهانة بحياة الأمم والآحاد؟.

وهذه "الروح العصرية" لو نظر الناظر بعين واحدة لوجد مجال الطعن عليها ذا سعة، ولذكر من تهتك الرجال والنساء، واندفاع الدَّهْمَاء في تيار الأهواء، وعسف الأقوياء بالضعفاء ما لا يجد له في تاريخ الإنسانية مثيلاً، ولكنه يعمى عما يقوم بجانب هذه الأعراض الشائنة من أصولٍ كريمة، ومذاهب قويمة، أنجبت مدنية لم تطلع الشمس على مثلها في أي دور من أدوار الإنسانية، وأقامت صروحًا من ثمرات العقول، ومُوَلِّدَاتِ القرائح في كل ضربٍ من ضروب الجهود الفكرية تزول الأرض وما عليها وتبقى هي في عالم الحقائق الخالدة.

إن الباحث الشرقي كثيرًا ما تحول بينه وبين إدراك جمال الروح العصرية أعراض ملازمة للحياة البشرية من الوجهتين: الأدبية والاجتماعية، فيرى من الوجهة الأدبية أهواءَ مُتَّبَعَةً، وشهوات متغلبة. ومن الوجهة الاجتماعية تسلطًا استعماريًّا وتحكمًا استبداديًّا، فيسيء ظنه بالروح العصرية متأثرًا بما يقع عليه وعلى قومه مباشرة من هذه الأعراض مما هو نفسه السبب فيها، ولكنّ الفيلسوف الذي اعتاد "التجريد" وليس له هم إلاّ إدراك الواقع لا تصدّه هذه الحوائل عن النفوذ إلى حقائق الأمور، فيدرك أنه رغمًا عن هذه الأغراض فإن العناصر الأدبية التي تتألف منها "الروح العصرية" أرقى بما لا يُقَدَّرُ من كل ما سبقها في العصور الخالية. **وإليك البيان:**

كان الناس في الأزمان السابقة يعتبرون الحق للقوة، فكان القوي يتحكم في

الضعيف؛ فيسخره لمنفعته أو يبيده، لا ينازعه في ذلك منازع، وكانت الشعوب الضعيفة تفنى في الشعوب القوية تحت تأثير الأَسْر المكتسب بحق الفتح. وليس في العالم اليوم من يقول بهذا المذهب، وأشدّ الناس إنكارًا له الأقوياء أنفسهم. فالعامل لا يعتبر أسيرًا لصاحب المال، ولا الفلاح يعدّ مِلْكًا لصاحب الأرض فيباع معها ولا الشعب يحسب متاعًا للدولة المتغلبة عليه.

نعم، لا يزال للضعفاء وللشعوب المقهورة ما يشكون منه،ولكنهم فيما يشكون يعتبرون مطالِبين بحقوق طبيعية، وتعطى لهم الحرية العامة للدفاع عنها بكل وسيلة مشروعة، ولهم أن يعمدوا إلى التحكيم، وأن يرفعوا ظلاماتهم للمحاكم الدولية ضدّ غُرَمَائِهم الأقوياء، وأن يعقدوا المؤتمرات للبحث في شؤونهم العامة؛ وبَوْنٌ بعيد بين هذه الحالة والحالات التي سبقتها في القرون الماضية.

كان الناس في الأيام الخالية يعتبرون عبيدًا لحكوماتهم، واليوم تعتبر الحكومات خادمة للناس، تستمد السلطة منهم وتردها إليهم عند أول إشارة منهم.

كان الناس ينقسمون إلى طوائف، وكانت أرقاها تعفى من التكاليف العامة، واليوم لا يوجد فارق في الحقوق والواجبات الاجتماعية بين أعظم عظيم وأحقر حقير؛ فالكل سواء أمام سلطان القانون العام.

كان الناس يسترق بعضهم بعضًا، فيؤخذ الأبناء والبنات من أحضان آبائهم كُرْهًا، ويُغَرَّبُونَ ليباعوا في الأسواق بيع السلع، واليوم يأبى الشعور العام أن توجد مثل هذه الحالة، ويعدها المعاصرون لنا عارًا على الإنسانية.

كان الناس لا يعتبرون للمرأة حقًّا، فلا يُعَلِّمُونَهَا ولا يُوَرِّثُونَهَا، وكانت مِلْكًا لأبيها أو لزوجها يضربانها أو يقتلانها، ولا يُسأل أحدهما عما يفعل. وقد تغيّرت اليوم هذه الحالة فاعترفوا لها بمكانتها الأدبية، وسُوِّيَتْ بالرجال أمام القانون في كل الحقوق المدنية والاجتماعية.

كان الناس في عقولهم وعقائدهم مُقَلِّدِينَ لطوائف احتكرت الزعامة العقلية والروحية، فأصبحوا الآن لا يدينون لغير البرهان البين والحجة القيمة، غير آبهين بالأشخاص، ولكن "بالحقيقة" على أي لسان ظهرت.

كان الناس يستحل بعضهم دماء بعض لمجرد اختلافهم في العقائد أو في تأويل بعضهم الأقاويل الموروثة، واليوم يرون ذلك حربًا كبيرًا لا يتفق والإخاء العام الذي يجب أن يجمع الإنسانية كلها في وحدة متينة العُرَى، مستحكمة الروابط.

كان الناس لا يأتون الفضائل ولا يتجنبون الرذائل إلا خوفًا من عقاب أو طمعًا في ثواب؛ واليوم يطلبون الفضيلة باعتبار أنها أَجْدَرُ بكرامة الإنسانية، ويكرهون الرذيلة باعتبار أنها من الصفات البهيمية، وقد حرم مئة مليون من الأمريكيين الخمر على أنفسهم جريًا على هذا الأصل مجردًا عن أي اعتبار كان، ولم تجسر أن تَنْحُوَ نحوهم أمة من الأمم التي يوعدها دينها بالنار على إتيان المنكرات.

كان الناس لا ينفقون أموالهم لتخفيف ويلات الإنسانية إلا طمعًا في أن تُضَاعَفَ لهم في الدنيا وفي الآخرة، واليوم يبذلونها باعتبار أن الإنفاق في هذا السبيل واجب لا يصح التخلف عنه، غير منتظرين من ورائه جزاءً ولا شكورًا.

كان الناس يعتبرون الفروق بين الطوائف الفقيرة والغنية أمرًا ضروريًّا لنظام المجتمع، بل حكمًا إلهيًّا قضاه على الناس، فيَسِيغُونَ أن يروا أفرادًا يعيشون في أقصى حالات الترف، وملايين لا يجدون الكَفَافَ من العيش، واليوم يعتبرون هذا التفاوت خطرًا على المجتمع منشؤه سوء النظام في توزيع الثروة، ويجهد علماؤهم أنفسهم لبلوغ التساوي بين الناس في رَغَد العيش دون الاختلال بالنظام الاجتماعي العام.

كان الناس يعتبرون التناحر المسمى بالحرب حاجة من حاجات العمران، واليوم يعدونه بقية من بقايا الهمجية ويسعون في إبطاله. كان الناس يعتقدون أن العلم كل العلم هو ما جاء به الأولون، فيقتصرون على تَفَهُّمِ كل أقوالهم وتَدَارُسِ كتبهم،

واليوم يرون أن العلم لا يزال في دور طفولته، وأنَ الأولين لم يصلوا منه إلى شيء يحسن الوقوف عنده، وأن العمل لاستكشاف مساتير الكون من حظ الأجيال الحاضرة والمستقبلة.

كان الناس يعتقدون أن الحقيقة المطلقة قد حصلها بعض المتقدمين، وأن ليس على طالبها إلا تفهمها من كتبهم، واليوم يرون أن الحقيقة المطلقة أكبر من أن يلم بها عقل إنساني، وإنما الناس ينالون منها على قدر عقولهم وجهودهم، وأنها أمامهم لا خلفهم، فيجب تنورها بالاستكشافات المتوالية لا بالعكوف على قراءة الأقوال الفارغة.

كان الناس يعتقدون أن الجوائح الطبيعية والكوارث الاجتماعية أمور ملازمة للحياة الأرضية فَيَسْتكِنُّونَ لها، واليوم يرون أنها من آثار الجهالة الإنسانية يمكن مُلاَشَاتُها بإدراك عِلَلِها وإبطال عواملها.

* * *

هذه أكبر العناصر الأدبية التي تتألف منها "الروح العصرية"، فأي عاقل يستطيع أن يقول إنها ليست "نفحة إلهية" أو إنها "نزعة شيطانية".

إذا لم تكن هذه الروح "نفحة إلهية" فبأي تعليل نفهم سر ارتقاء الشعوب الآخذة بها وعروجهم إلى أسمى مكانات الحياة، وانحطاط الشعوب المخالفة لها وتدهورهم إلى حضيض الذِّلَّة والمَسْكَنَةِ والبَهِيمية؟.

يعترضون علينا بِالْتِيَاثِ الآخذين بهذه الروح بكثير من ضروب الرذائل، كتَهَتُّكِ النساء، وإباحة الخمر والقمار، وتحليل الربا، وانتشار الخلاعة؛ ولو كان هؤلاء المعترضون قرأوا ما كتبه القوم من التشنيع على هذه الموبقات في مؤلفاتهم؛ أو التقبيح لها في جرائدهم ومجلاتهم؛ لعلموا أن كل هذه المخازي ليست من "الروح العصرية"، وإنما هي من بقايا ضعف الطبيعة البشرية.

وإذا كان يَسُوغُ الطعن على "الروح العصرية" بما يأتيه بعض أهلها من هذه

المخزيات، فهل يسيغون أن يطعن الطاعنون في "الروح الإسلامية" بما هو منتشر بين أهلها من ضروب المنكرات والدنايا الخُلُقية والاجتماعية؟.

إن الشعوب الإسلامية اليوم – فضلًا عما هي مصابة به من التفكك والانحلال في مجتمعاتها، والظلم والعسف في حكوماتها، والخبط والخلط في شؤونها – فإنها ملتئمة بكل صنوف الموبقات التي يعيرون بها المدنية الأوروبية؟

فهل هذه الموبقات أثر من آثار الروح الإسلامية؟

* * *

وبعد.. فالذي يتدّبر في العناصر الأدبية التي تتألف منها "الروح العصرية"، ألا يراها موافقة للروح الإسلامية، ويعذرنا إذا قلنا إنها "نفحة إلهية" لا "نزعة شيطانية"؟

لقد جهل المسلمون أصول دينهم في العصور المتأخرة جهلاً مطبقًا، ولم يحتفظوا منه إلا بظاهر من العبادات، يؤدونها على خروج بها عن حقائقها، أو لا يؤدونها أصلاً، ثم خُيِّلَ إليهم أن "الروح العصرية" التي جعلت لأسلافهم حظًّا في تهيئة دولتها بدعة جديدة، مع أنها "الإسلام" بعينه، فوقفوا حيث هم وسارت قافلة الإنسانية قاصدة الغايات القَصِيَّة من الكمال البشري. وهم لانقطاعهم عن الجسم العام للإنسانية حُرِمُوا "الفيض الإلهي" الذي يمد الخلق في تطوارتهم الاجتماعية، فدب إليهم دبيب التخاذل، وساورهم الانحلال من كل مكان. فهل لهم مخرج من هذه الوقفة الموبقة إلاّ اللحاق بالجماعة، واندماجهم في جسمها حتى يَرِدَ إليهم ما يرد إلى سائر أعضائه من "العصارة الحيوية"، فيحيون بحياة المجموع ويبلغون معه إلى الغايات الكريمة التي يُسَاقُ إليها؟

لذلك، كان من الضروري الاندماج في تيار الروح العصرية لأنه الحق، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.(*)

(*) مجلة الحديث – العدد الأول من السنة الثالثة، عام ١٩٢٩م.

كتب العالم البسيكولوجي (انتونان أميو) في كتاب له في هذا الموضوع تحت هذا العنوان، بحثًا نفسيًّا نستحسن أن نلم به لما اشتمل عليه من الحقائق العلمية، ولأن النابتة العصرية في أشد الحاجة إليه، قال:

هل من الممكن أن يحكم الإنسان نفسه؟

نعم، لأننا خلقنا أحرارًا، ومتعنا من الإرادة بما يسمح لنا بتوجيه أكثر ميولنا شراهة، إلى وجهات نافعة على قدر الإمكان.

لاشك أننا لسنا أحرارًا كالآلهة(١)، ولسنا مقيدين كالأحجار، فيجب على الإنسان أن يعرف نفسه ليستطيع أن يعمل، وما أبعد تلك المعرفة عنه إن لم يدرس نفسه من قرب.

إذا نظر الإنسان لنفسه نظرًا سطحيًّا تبين له أنه مستَقَرُّ المتناقضات، ومستودَعُ المتعاكِسات، وناهيك بكائنٍ اجتمعت فيه المادة والروح، فهو من جهة مادته مقيد بنواميسها، مَأْسُورٌ لقوانينها، ومن جهة روحه حر مطلق لا يقيده شيء، فهو دائر بين الإطلاق والتقييد، وحياته قائمة على قطبيها.

هذه المادة التي هي إحدى عناصر ذاتنا، عُرْضَة للتأثر بكل المؤثرات التي تؤثر على كل مادة، وبكل الأحوال التي تطرأ عليها من جهة العادة والوراثة. هذه المؤثرات منها ما هو حسن، ومنها ما هو قبيح. فكل عمل من أعمالنا

---

(١) هذا نص عبارته، وهو لا يقولها اعتقادًا بوجود آلهة، وإنما هو تعبير جرى عليه كتاب الفرنجة.

هـو فـي حقيقته: إما فضيلة وراثية اكتسبناها من آبائنا؛ فرسخت في نفوسنا على طول الأجيال، وإما رذيلة ورثناها منهم كذلك، وسنورّث ذلك كله لأبنائنا أجيالاً متعاقبة.

فالتربية التي كونت لنا عاداتنا الأولى، والوسط الذي عشنا فيه وأَثَّرَ علينا آثارًا لا تمحى، وحركة الفصول السنوية، والمصادفات اليومية، والأعمال الواقعة علينا من الغير، ومركزنا الاجتماعي، وأساطير آبائنا، وأوهام معاصرينا، واللحظة التي نحن فيها، كل ذلك له علينا تأثير لا ينكر، فنحن إذًا من أحوال هذا الفضاء والزمان مثل السفينة في وسط الأقيانوس الذي لا ساحل له.

هذا هو مكان الإنسان من أحوال هذا العالم، فهل الذي وضعه فيه زوبعة هبت عليه فقذفته إليه، وأسلوب سيئ سار عليه فرمى به فيه، أو هذا هو طريقه الطبيعي الذي رُسِمَ له من القِدَم؟

لا ندري، ولا يهمنا معرفة السبب في وصوله إلى هذا المركز الخطر، وإنما الذي يهمنا أن نعرف أننا فيه[1].

فلنعد إلى وصف أنفسنا فنقول: إننا شبهنا أنفسنا بسفينة في وسط الأقيانوس، تلك السفينة مركبة من قطع خشبية مترابطة فيما بينها بروابط، وهي إما كبيرة أو صغيرة، تامة الأجهزة أو ناقصتها، متوازنة أو غير متوازنة، معرضة لنور الشمس أو منزوية عنها، بعيدة عن الساحل أو قريبة منه، تهب عليها الرياح بحيث لا تستطيع أن تتوارى منها أو تغير من اتجاهها، معرضة لمصادمات الأمواج من كل جوانبها، حتى إن أقربها إليها لتهددها بأن تستطيرها أو تزدردها. ولكن في داخل السفينة التي تتهددها كل هذه الجوائح ربان له عقل وحرية، ممسك بيده سُكّانَها[2] يستطيع

(١) عندنا أن الإنسان قُذِفَ به إلى هذه الأرض، وسلطت عليه عوامل نفسه والبيئة التي هو فيها ليتنقى من خسة الحيوانية وتخلص روحه من سلطان المادة.

(٢) السكان: ذَنَبُ السفينة الذي تدار به.

أن يحول كل هذه الجوائح إلى مصلحته، وأن يستخدم الرياح الثائرة في إيصاله سالمًا إلى الشاطئ.

هذه هي صورة الإنسان، فهو بمادته عرضة لكل المؤثرات على المادة، ولكنه بروحه يستطيع أن يُدْخِلَ إلى حلقات هذه المؤثرات الضرورية قوة جديدة هي إرادته واختياره، فيستطيع أن يكون هو الناجي الناجح، على شرط أن يعرف أسلوب السير، وأن لا يترك السُكّان من يده، وأن يضع حريته تحت طاعة إدراكه.

مما يدلك على ذلك: أن الإنسان ـ وهو أضعف ما على الأرض من حيوان ـ استطاع بعقله وحريته أن يكون مليك الطبيعة بلا خلاف، وقد سخر لخدمته من الحيوانات ما كان يكفي في إهلاكه من أحدها عضة بناب أو ضربة بمخلب. وقد سطا على الأرض الشَّحِيحَة وضرب عليها الجزية من النبات الذي يريده، وقهر الجبال فنسفها بشرارة يستطيع الطفل أن يسلطها عليها بوضع إصبعه على زر صغير، وأخضع أصلب المعادن فإذا بها كالماء، أو مدها كما يمد خيوط الكتان.

هذا الكائن يستطيع أن يقهر نفسه، ومن العذر البارد أن يقول: "لا أستطيع التغلب على مزاجي، إني خُلِقْتُ على هذه الحال"، ولماذا لا يقول أمام وحش كاسر يهب لالتهامه: "هذا مزاجه، إنه خُلِقَ على هذه الحال"؟

نعم إن لك مزاجًا، ولكنك تستطيع أن تستخدمه في مصلحتك، أنت خُلِقْتَ على ما أنت عليه حقيقة، ولكنك تستطيع أن تقلب طبيعتك، وأن تحول خلائقك.. وإذا كان الإنسان قَدَر أن يقهر الطبيعة العامة فهو على قهر طبيعته أقدر.

فما الأسلوب الذي به تحكم نفسك؟

إنك تستطيع ذلك بالأسلوب نفسه الذي تتسلط به على غيرها. فإن العقبات التي تعترض أمرًا من الأمور والوسائل التي توصل إليه، تشبه أمثالها في كل ما يحاوله الإنسان. فكل الذي على الإنسان عمله إزاء هذا الغرض السامي، وهو

حومة نفسه، هو أن يستجمع الحوادث الماسَّة بموضوعه، ويكتشف منها نواميسها الحاكمة عليها، ويعتمد عليها في نَيْلِ ما تصدى له من هذه الأمنية العزيزة.

هذا هو الأسلوب العملي الذي يجدر بالإنسان،وهو ذلك الكائن الذي لم يُخْلَقْ حُرًّا مُطْلَقًا، ولا مُسْتَعْبَدًا مُقَيَّدًا، ذلك الكائن الذي وإن كان لم يَقِلّ عن الحيوانات العجماء في سعة سلطان الحواس الخمس، فإنه قد مُتِّعَ من قوة الإدراك بما يريه أسباب الحوادث من خلال تسلسلها.

أول ما يجب علينا عرفانه في هذا السبيل هو أننا مرتبطون بمجموع الكون، وأن أجزاء جثماننا بعضها مرتبط ببعض كل الارتباط، وأن هيكلنا الجسداني كثير التركب، جَمُّ الآلات والأجهزة، كل منها يؤثر في غيره، وينعكس تأثيره على مجموعها انعكاسًا طبيعيًّا منتظمًا.

إن في هذا الجسد – فضلاً عن القوى المادية التي تدور في زوبعته الحيوية مع حفظ جميع خواصها – حياة نباتية وحياة حيوانية مختلطة إحداهما بالأخرى، وقائمة على صورة حياة عامة في هذا الكائن المسمى بالإنسان.

كل واحدة من هذه القوى الحيوية الثلاث مَسُوقَةٌ لأن تُظْهِرَ وجودها، وأن تعمل، وأن تتناسب والقوى الأخرى في أعمالها.

ولكن مما يجب الالتفات إليه أن أعضاء الحياة الحسية مثلاً والأوتار التي تحركها،والأعصاب التي ترتبط بها، مختلطة بعضها ببعض، فما يصيب إحداها من ضعف أو قوة يصيب مجموعها معًا.

مثل هذا كمثل عناصر الحياة النباتية، وعناصر الحياة الإنسانية والحيوانية التي في الإنسان، فهي متداخلة بعضها في بعض، وتابعة للتأثر بما تتأثر به إحداها.

فالفكر أو الإرادة مثلاً إذا بلغ الإنسان أشده تستعمل الحس الذي تمنحها إياه الحياة الحسية في نيل رغائبها، وتستعمل أيضًا في الوقت نفسه لذلك الغرض عينه

الدم والخلايا الجسمية التي هي من نتائج الحياة النباتية في الهيئة الجسدية. وبناء عليه، فلا يمكن أن يُحْدِثَ الإنسان حدثًا ما سواء أكان معنويًا أم ماديًا إلا ويَرِنُّ صداه في جميع أجزاء هذا المجموع الجسداني المتضامن في الحياة.

مَن شَكَّ في هذه الحقيقة، فما عليه إلا أن يعرض الحوادث على نفسه. وكلنا يعلم أن وجود الجسمان في أحوال خاصة، يستدعي وجود الوجدان في أحوال تقابلها، وأن اختلاف الجنس والسن والوراثة والإقليم وغيرها مما لا نعلم، مما له أثر خاص على الجسد المادي، يعكس فعله على الجسد الإنساني. ومما لا يجهله أحد أيضًا أن سوء حالة المعدة يميل بالإنسان إلى سوء الخلق، وأن تعاطي الأفيون أو الحشيش يحوّل العواطف إلى وجهات غير التي كانت لها، وأن تصفيق شخص معين يَسْتَدِرُّ قريحة الخطيب وينشطه للقول، وأن هبوط الحرارة الجسدية درجتين عن حدها الطبيعي تُفْقِدُ الإدراك، وأن درجتين منها زيادة عن القدر الطبيعي لها يهيج الإدراك لدرجة الجنون.

كل منا يستطيع أن يزيد على هذه الأمثلة من عنده، وهي أدلة على تأثر المعنى الإنسانى الذي يقع على الهيكل الجسداني.

أما تأثير المعنى الإنساني على الجسد فهو أصرح مما مر وأشد فعلاً منه.

نعم: إن المعنى الإنساني لا يغير من قوانين الجسد شيئًا، ولكنه يؤثر عليها تأثيرًا نافعًا أو مضرًا. أما الأمثلة على ذلك فمما لا يحصى كثرة. فلا يجهل أحد تأثير الإرادة على العمل، كتأثير الانفعالات على الوجه، وعلى الجلسة والمشية والكتابة، فهي تُحَمِّرُ الخد وتَبِيغُ[1] الدم، وتنفخ الأوردة، وتخنق الخُلُق، وتُضعِف القوة، وتُصيب الجسد بحركات اضطرارية، وتولد دمًا فاسدًا، وتُسيء الخلق، وتُسقط الجسد في مرض عُضال.

يتضح للقارئ من كل ما مر أن الروح والجسد متضامنان في الحياة الأرضية، فما

---

(١) تَبيغ: أي تُثير وتُهيِّج.

يطرأ على أحدهما من التغيرات يطرأ على الآخر. والذي علينا إزاء هذه الحقيقة أن لا نعمل عملاً جسديًّا إلا بعد تقدير نتيجته الضرورية وتأثيره على روحنا، وألا نعطي روحنا حالاً من الأحوال إلا بعد التَّرَوِّي في تأثيره على جسدنا، وأن نستفيد من حريتنا فنُحْدِثَ أعمالاً يكون تأثيرها حسنًا في روحنا، أي أن يكون مثلنا من جسماننا كمثل سائق الآلة البخارية مع آلته، يسير معها على مقتضى تركيبها لا يُحَمِّلُها ما لا تستطيع حمله، ولا يريدها على ما يفسدها أو يعطلها، فلا يقودها وهو سكران أو لاهٍ أو جاهل فتهلكه ولا كرامة. عليه أن يعرف مقتضيات تركيبها،ومطالب عددها، فيعلم أنه لو وضع فحمًا في موقدها أنتج بخارًا، وإن هو فتح علبة البخار ضغط البخار على الكباس، فإن لم يكن مقدار الفحم محسوبًا ومقدَّرًا على مطلوب الآلة، أوقعت قائدها ومن معه في أشد الخطر.

يجب على الإنسان أن يكون مع جثمانه على الأقل كالسائق المتقدم ذكره، فيعلم الغاية التي يقود إليها أداته، والتي ينوي الراكبون النزول فيها، والطريق الذي عليه أن يسلكه من بين القضبان المختلفة في سبيله، والعلامات التي يجب عليه أن يلاحظها أثناء سيره، وأمكنة الماء والفحم اللازمين لأداته، فيقف فيها لأخذ حاجته منهما مدة سفره.

انتهى ما نقلناه عن البسيكولوجي (أنتونان أميو)،وهو حَسَنٌ في جملته وتفصيله، وقد جمع من بارع المقارنات، ومحكم التشبيهات ما يروق العقل، ويسيغه العلم، ولهذا السبب أثبتناه هنا، ولكنا مع هذا نرى أن هذا الأسلوب غير عملي، فإن السواد الأعظم من الناس لا يفكرون في أن يحكموا أنفسهم ليُقْهِرُوها على اتباع طريقة معينة تؤدي إلى الكمال الإنساني، إلا إذا حفزَتْهم إلى ذلك غاية شريفة يريدون الوصول إليها، هذه الغاية لا يمكن أن تكون مادية، لأنه لا معنى لأن يقيد الإنسان نزعاته بالقيود الحديدية، ليصل إلى مقصد مادي هو لا يطلبه إلا ليتحلل بحصوله عليه من جميع القيود، وينعم بالحياة به على أوسع ما تَصْبُو إليه ميوله وشهواته.

وإذا استحال أن تكون هذه الغاية مادية، كانت لا محالة روحانية، وقد ثبت أن المقاصد الروحانية قد أدت الإنسان ـ حتى في أخشن حالاته ـ إلى تقييد شهواته، والتسلط على نفسه. فلا الحصول على المجد، ولا الطمع في الشهرة، ولا الكَلَفُ بطول العمر، ولا الوصول إلى الغنى، بلغ من حَمْلِ الإنسان على حكومة نفسه مبلغ طموحه للسمو الروحاني، فقد تخلى الإنسان عن كل محبوب لديه في سبيله، بل دفعه لسكنى الكهوف والمَغَاوِر، والإقدام على الموت في تطلبه.

فإذا صحب العلمُ النزوعَ إلى هذه الغاية، وصل الإنسان إلى ما يرسمه الأستاذ (أنتونان أميو) بغير تكلفٍ لفهم ما أتعب نفسه في تصويره، ولا يخلو تاريخ الأديان من ألوف من الناس بلغوا من حكومة أنفسهم إلى ما لم يصل إليه فيلسوف بفلسفته، ولا عالم بعلمه.

نعم إن المسيو (أنتونان أميو) لم يعين لتطلب حكومة النفس غَرَضًا، واكتفى ببيان أسلوب الوصول إليها من الناحية الفلسفية، فلا يعنيه بعد ذلك إن كان الدافع لتطلبها ماديًّا أم روحانيًّا، ولكنا من ناحيتنا يجب أن نبين للقارئ، أن ذلك الغرض لو كان روحانيًّا، لما كان ثمة حاجة إلى دراسة أسلوبه وأَخْذِ النفس به، فقد شوهد أن الأغراض الروحانية إذا استولت على النفس دفعتها في وجهتها دفعًا قويًّا، وحمتها جميع الإفراطات والتفريطات حماية آلية لا تستطيعها أية فلسفة في الأرض، لأن الغرض الروحانى يقوم على الروح مباشرة، وهى صاحبة السلطان المطلق على الجسم، فلا تَقْوَى أية رغيبة مادية أن تصرفها عن وجهتها، لأنها لا تستمد وجودها إلا منها، فإن استوعب ميل الروح شيء سكنت جميع الميول وبطل عملها، واتجهت جميع قوى الجثمان لتحقيق تلك الرغيبة الروحية. هذا ما يدل عليه تاريخ الأديان وخاصة تاريخ الإسلام، فإن المقصد الروحاني العالي الذي دعا النبي ﷺ إليه، وأمكنه الله من تثبيته في القلوب، قلب جميع أوضاع الجاهلية، ومَحَق كل تقاليدها

الموروثة، وعاداتها المتأصلة في سنين معدودة، فنشأت أمة أخرى ذات نزعات جديدة لا تَمُتُّ بصلة إلى الأمة التي كان يمثلها هؤلاء الأفراد أنفسهم. هذه آية لا يمكن أن تنسخ ولا أن تنسى مهما طالت عليها الأزمان، وستكون دائمًا دليلاً على سمو التربية القائمة على الروح والإيمان[1].

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد التاسع ـ سنة ١٣٥٧هـ، ص٦١٢.

بعد أن مرت على النوع الإنساني عشرات من القرون في حالة تنازع للبقاء، ثم لطلب السيادة وبَسْطَةِ السلطان جريًا على عاداتٍ جاهلية فرضَتْها الحاجات الجسدية تارة والميول الهوائية تارة أخرى. وتبعت هذه التعديات تصرفات وماجريات تعسفية، أَمْلَتْها على المتغلبين الغرائز الحيوانية، والطبائع الوحشية، فأصبحت رسومًا تقليدية، لا تثير عاطفة، ولا تجرح إحساسًا بعد أن مر هذا كله على النوع الإنساني أخذ يبدو في حيز التفكير البشري رد فعل لهذا العدوان المتأصل في النفوس، ترجمت عنه بحوث خلقية، ودراسات فلسفية، منذ منتصف القرن التاسع عشر، تدل على وشك حدوث دور انتقال من هذه الحال الحيوانية التي دَرَجَ عليها الأقوياء في جميع الأجيال حيال الضعفاء إلى حالة وسطى من العدل والإنصاف والرحمة؛ وكان ذلك سببًا في حدوث كتابات تدافع عن الضعفاء والمقهورين، وتَسْتَدِرُّ لهم من الأقوياء المتغلبين العطف والشفقة، ولم تبخل عليهم باعتبار هذا العطف حقًّا لهم يجب على سادتهم الاعتراف به.

لم تكتفِ هذه البحوث والدراسات بالناحية المادية لتلك الطوائف المقهورة، بل تناولت ناحيتهم الدينية والأدبية التي يحتقرها الأقوياء ويأنفون البحث فيها، ويعتبرونها من الأضاليل الوحشية، فوجدَتُها لا تقل عن سواها دعوة إلى الخير، وردعًا عن الشر، ومطالبة بالإحسان والبر؛ وهي وإن كان قد أصابها التحريف فليست بأكثر من سواها الْتِياثًا بالخرافات، ولا بأعصى منها قبولاً للإصلاح، فنشأ من كل هذه الكتابات والبحوث تلطيف لخشونة الاستعمار، فرضخ القاهرون للمقهورين بِقِسْطٍ من التسامح مَكَّنَهُمْ من فَتْحِ المدارس لأبنائهم، ونَشْرِ الصحف

للمطالبة بحقوقهم. واضطرت الأمم المتغلبة إلى زيادة قسطهم من الحرية، فلم يلبثوا أن تطورت مطالبتهم بحقوقهم إلى ثورات مسلحة، وقلاقل متوالية، اضطرت معها أكبر الدول الاستعمارية إلى التخلي عن أكبر مستعمراتها، وتخفيف الوطأة عن سواها، مراعاة لهذا التيار الجارف من الشعور بالحقوق الطبيعية. وأصبحت الأمم القوية المحافِظة على الشكائم الحديدية في جهاد جهيد مع مستعمراتها، وهي تعلم أنها تحاول المحال في الإبقاء على التقاليد القديمة، وإنه سيأتي يوم وهو ليس بعيدًا، ينتقل فيه سلطانها المغتصب إلى أهل البلاد يحكمون بلادهم بأنفسهم تسليمًا بالحق الطبيعي للأمم.

وقد اشتغل من ناحية أخرى رجال من المنقبين عن المدنيات القديمة، فوجدوا أن للأديان كلها أصلاً واحدًا وغرضًا واحدًا؛ فأما أصلها فهو التسليم بوجود خالق للوجود؛ وأما غرضها فهو العمل بما شرعه سبحانه للناس من السيرة الصالحة والأخلاق الحميدة. وأما ما وقعت فيه الأديان من تعديد الآلهة، ومن الشَّطَطِ في ضروب العبادات، وصنوف الخرافات، فكلها ليست من الدين في شيء؛ ولكنها من وضع رجال الأديان حرصًا على المحافظة على سلطانهم وتسخيرًا للشعوب لإرادتهم.

تحت تأثير هذين العاملين، وهما: ثبوت وحدة الأديان، وتعذر الاستيلاء على الأمم الضعيفة وتسخيرها بالقوة، ارتسم في الجو العالي حقيقتان كبريان، أولاهما: وجوب إيجاد تعارف سلمي بين الشعوب المختلفة، يرمي إلى تعاون بين أجناس النوع البشري، تبطل في ظله الظليل المنافسات الاستعمارية، والمنازعات بين الشعوب القوية، وثانيتهما التنويه بوحدة الأديان ووجوب تطهيرها مما التصق بها من الآراء البشرية، والخَبَالِيّات الشعرية لتؤدي مهمتها في رفع النفوس إلى المستوى الرفيع الذي يليق بكرامتها الفطرية.

هذان الأصلان هما أخص ما دعا إليه الإسلام منذ نحو أربعة عشر قرنًا. فأما

عن الزمالة الإنسانية العامة، ووجوب وجود المساواة بين الناس والتعارف بين الشعوب، فقد جاء عنه في الكتاب الكريم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]. وقد عمل المسلمون بهذه القاعدة فلم ينساحوا في الأقطار طلبًا لاستغلال الأمم، ولا رغبة في تسخيرها، ولكن لمعاونتها على النهوض، وإحكام أوامر التَّحَابِّ معها. وقد بَرَّتْ بها وعدت ورفعَتْها من حالتها التعسة إلى مستوى رفيع من الثقافة والمدنية، حتى إن شعوبًا كانت تستدعيها لتحل بين ظهرانيها تخلصًا من نِيرِ حكوماتها الوطنية.

وأما من الناحية الدينية فإن الكتاب الكريم قد صرح بما اكتشفه العلم في القرن التاسع عشر من أن أصل الأديان واحد، وأنها ما تخالفت إلا بسبب ما أدخله إليها المتسلطون عليها، إشباعًا لشهواتهم من الحكم والسيطرة. فقال تعالى عن الإسلام: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ (أي فلوحدة الدين فادع) وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (أي لا مُحَاجَّة ولا خصومة) اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[2] أي أنه شرع لكم من الدين، ما نزل على أبيكم آدم، فإن دين الله لا يتغير، ولكن الأمم التي تَوَلَّتْهُ فحرفته وصرفته عن أصله. فإياك أن تعدل عن هذا إلى سواه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٢) سورة الشورى، الآيات ١٣:١٥.

شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[1] وأبلغ مما مر فى وجوب رد الأديان إلى وحدتها الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾[2].

فقد أُمِرَ المسلم أن يؤمن بجميع الأنبياء والرسل، وأن لا يتخير بعضهم فيؤمن بهم ويُكَفِّرَ البعض الآخر، فلا تتهم الوحدة البشرية التي يريدها الخالق لعباده، وهذا أقوى في الدلالة على هذا المبدإ في الإسلام، وهو عينه مرمى الإنسانية، ومردها الذي لا مصير لها غيره كما يتبينه الذين يتتبعون تطور المدركات البشرية.

وعلى هذا، يكون الإسلام قد قصد بها شرعه للناس من دين عام توحيد البشرية. ووافق الطبيعة الإنسانية فيما ستؤول إليه تحت توجيه النواميس الاجتماعية؛ ويكون قد ترجم عما سيقع في مستقبل بعيد بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3][4].

---

(١) سورة الأنعام، من الآية ١٥٩.

(٢) سورة النساء، الآيتان ١٥٠، ١٥١.

(٣) سورة فصلت، الآية ٥٣.

(٤) مجلة الرسالة – العدد ٨٦١، ٢ يناير سنة ١٩٥٠م.

منذ أن أعلن العلم الحرب على الدين في القرن السادس عشر، لم يَنِ عن مُنَاوَأَتِهِ حيث ثَقِفَهُ، اعتقادًا منه أن الدين لا يقوم على أصل ثابت له علاقة بإيصال الإنسان إلى كماله، ولكنه قائم على الأهواء التي يبعثها حب الذات في النفوس، وعلى الأوهام التي لا يمكن أن يقام على وجودها دليل، والتي يكفي في دَفْعِ سحرها عن العقول نَشْرُ العلم الصحيح بين الناس، والعلم قد بنى على أساس دستوره المعروف، وهو أن لا يقام لمعقول وزن إلا إذا أيده دليل من الحس، وأنَّى للعقائد الدينية أن تجد دليلاً محسوسًا لتقيم عليه وجودها؟

وقد وُفِّقَ رجال العلم إلى جانب هذا لكشف الكثير من مساتير الوجود، ودرسوا نواميسها، وأقاموا عليها مخترعات ووسائل ذات أثر بالغ في كل فرع من فروع المحاولات الإنسانية؛ فكما ترى أثر العلم في المدن بادية في مصنوعاتها ومنتجاتها المحيرة للعقل، وفي علاجاتها وذرائعها المخففة للآلام، المزيلة للأمراض، ترى في القرى في آلات الحرث والري والبذر والتسميد والحصاد والنقل... إلخ إلخ، فهذه المظاهر كلها أثرت في العقلية الإنسانية، وخاصة عقلية المتعلمين تأثيرًا عظيمًا جُعِلَ للعلم فيها منزلة القوامة عليها؛ فإذا بدا لهم مجهول، أو أعوزهم ترجيح، رجعوا فيه إلى العلم، ووقفوا منه عند حكمه، وقد علمت رأي العلم في الدين، فماذا تنتظر أن يكون عليه الناشئون بين حضنيه، المُعَوِّلُون في بناء أحكامهم عليه؟

هذا الأثر قد لحظناه في أنفسنا ونحن في دور الدراسة، وكابدنا للتوفيق بين عقيدتنا والعلم مشاقَّ مضنية، وعملنا لنشر ثمرات ما حصلناه كتبًا، ولا نزال

جادين في هذا الطريق ثقة منا بأن مستقبل الإسلام بموافقته للعلم، وأن الذين لا يتطلبون هذه الموافقة ولا يتكلفون لإيجادها مثل ما تكلفناه، تساورهم الشبهات والشكوك من كل مكان، وينتهي بهم الأمر إلى الإلحاد.

إن أشد ما يصادفه طالب الإيمان من طريق العلم هي ما في الأديان من شئون ما فوق الطبيعة، فالعلم الرسمي لا يزال قائمًا على ما كان عليه من نفيها نفيًا باتًّا،وحسبان كل ما يتعلق بها من بقايا الخرافات الساذجة، فالتوفيق بين العلم والإيمان من المحالات البعيدة الوقوع، لذلك يشيع الإلحاد في طلبة العلوم الكونية وفي أساتذتهم؛ ومن كان منهم يعطف على الإيمان بها، يكون مقودًا إليه بعاطفة لا بدليل، ولا يعتبر هذا إيمانًا في نظرنا.

فهل من مخرج من هذا المأزق؟

نعم، وقد وجد منذ مائة سنة، وهو ما كشفه العلماء العالميون من خصائص الروح الإنسانية وعلاقتها بعالم ما فوق الطبيعة بعد دراسات عميقة وجهود مضنية صرفوها في تتبعها في جميع حالاتها ودونت في مئات من المؤلفات القيمة.

إن هذه الدراسات العلمية المحضة التي عاداها ولا يزال يعاديها ممثلو الأديان في جميع الملل، قد مُحِّصَتْ تمحيصًا لم تنله العلوم الطبيعية ذاتها، وذلك لغرابتها وشدة ما كانوا يكذبون بها. فقد أثبتت هذه الدراسات والتجارب العملية وجود عالم فوق الطبيعة متحكم في عالمنا الأرضي، ومُصَرِّف له على مقتضى النظام الخاص به. عالم تعلل بعوامه جميع ما عجز الفلاسفة والعلماء عن تعليله في العالم الأرضي، وتخيلوا له عِلَلاً وهمية أو سكتوا عنه حيرةً وعجزًا.

كانت الحاجة ماسة جدًّا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى هذا الفتح العظيم في العلم، فقد كانت المعلومات التي لم تقبل التعليل قد بلغت حدًّا مؤيسًا، واكتشف النَّقَدَةُ العلميون جهات الضعف في العلم نفسه لا يمكن الإغضاء عنها.

وقد بين هذا الأمر الأستاذ الكبير (جوستاف لوبون) بأوفى بيان في كتابه القيم: (تحول المادة) الذي ظهر في سنة ١٩١٠ فقال:

"إذا اتفق أن فيلسوفًا من المنصرفين إلى دراسة الموضوعات ذات الحدود المبهمة، قرأ منذ عدة سنين كتابًا في العلم الطبيعي كان يدهش من وضوح التحديدات فيه، وصحة البراهين، وضبط التجارب، فكان لا يسعه إلا الانحناء أمام هذه النتائج الفخمة.

"دامت هذه العقيدة في المقررات الكبرى حافظة لوقتها في العلم العصري، إلى أن حدثت في الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على التفكير العلمي أن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أَبَدَ الأَبِيدِ. فإن الصرح العلمي الذي كان لا يرى صدوعه إلا عدد محصور من العقول العالية، تزعزع فجأة بشدة عظيمة، وصارت التناقضات والمحالات التي فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث يكاد لا تبلغها الظنون.

"وقد صدرت مؤلفات على مثال الكتاب الثمين المسمى: (العلم والافتراض) لهنري بوانكاريه، تؤتينا بالبرهان على ما نقول في كل صفحة من صفحاتها، فلقد أرانا هذا الرياضي المشهور أننا نعيش وسط الافتراضات والاتفاقات حتى في مجال العلوم الرياضية.

"وقد كتب الأستاذ (لوسيان بوانكاريه) من جهته يقول: إنه لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولاً تامًا، ويجمع عليها المجربون إجماعًا عامًا، ولكن يسود اليوم العلوم الطبيعية ضرب من الفوضى.. ولم يظهر أن ناموسًا من النواميس الطبيعية يعتبر ضروريًا ضرورة مطلقة. والآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا أنها تأسست تأسسًا ثابتًا صارت اليومَ لدينا موضوعات تحت المناقشة.

وختم الأستاذ (جوستاف لوبون) الآراء التي أوردها لكبار العلماء بقوله:

"من حسن الحظ لاشيء أكثر ملاءمة للرقي العلمي من هذه الفوضى، فالوجود

مُفْعَمٌ بمجهولات لا نراها، والحجاب الذي يحجبه عنا منسوج غالبًا من الآراء الضالة أو الناقصة التي تُوجِبُها علينا تقاليد العلم الرسمي... إلخ".

نقول: وفي أثناء هذه اليقظة من الغرور العلمي ظهر علم ما فوق الطبيعة، ودُرِسَتْ ظواهره، ومُحِّصَتْ تمحيصًا دقيقًا، وتولاها رجال من ذوي الكفايات الممتازة أوصلوها إلى غايات بعيدة، وأقعدوها على أصول وَطِيدَة، بحيث صارت أهلاً لأن تخصص لها دراسات في بعض الجامعات الكبرى كجامعات أكسفورد وكمبريدج ويورك، وجامعات أمريكية أخرى.

هذه البحوث الروحية التي أمضت قرنًا كاملاً تحت فحص أعتى العقول البشرية، وأشدهم شكيمة في العقيدة المادية، قد أثبتت وجود عالم روحاني، وشاهدت حوادث من قبيل تحكم الروح في المادة تحليلاً وتركيبًا، وخرقًا للنواميس الطبيعية خرقًا لا هوادة فيه، فاتسعت أمام أنظارهم مَنَادِحُ النظر العالي، وأدركوا بالحس فساد النظرية الآلية التي كانوا يعللون بها وجود الكون المادي ونظامه واتساقه، والحياة نفسها وما إليها، وأصبحت النواميس الطبيعية في نظرهم ليست بالقوى الأزلية الأبدية التي صاحبت الكائنات في وجودها، ولكنها مظهر لقوى مدبرة أرفع منها.

هذه المستكشفات الحديثة تفتح أمام العقل الإنساني حقائق كانت فلسفة العلم المادي قد جعلتها من المحالات العقلية، مثل وجود قدرة عالية تدبر الكون والكونيات، ووجود روح في جسم الإنسان مستقلة عنه تَخْلُدُ بعد انحلاله، ومثل بعثة أرواح عالية للأمم في فترات من الدهر سموهم الناس بالرسل ليهدوهم إلى الخيور، ويَزَعُوهم عن الشرور، ويمهدون لهم سبيل الارتقاء.

هذه البحوث لم تجتز عتبات الجامعات وتأخذ مكانها في مصاف العلوم، إلا لأنها قد جاوزت دور الفحص العلمي، وأصبحت حقائق لا يمكن التماري فيها.

فالسد الوحيد الذي أراه يقاوم تيار الإلحاد المندفع الذي يكتسح أمامه الأمم

والشعوب، ويلقى بها إلى مكان سحيق من الفوضى والفساد الخلقي والتناحر، هو أن يتضلع علماء الدين من هذا العلم الجديد، ويستخدمونه لحل شبهات المشتبهين، وكبح جماح المستهترين. وما المانع لهم من ذلك وهو يزيد في دعوتهم تأثيرًا، ويلقى على حججهم نورًا، ويَقْدَعُ من مَعَاطِسِ المتفلسفة[1] الذين يتخيلون أنهم وحدهم الذين خَلَصُوا من أوهام العقائد، وكل من عداهم يَرْسُفُ في أغلالها ويتعثر في أذيالها، ويُحمِّل عقله تصديق خيالات لا وجود لها.

هذا الموقف وحده يحفز المدافعين عن العقائد أن يحذقوه لِكَمِّ أفواه المتحذلقين من الماديين. فما ظنك والضرورة أصبحت تقتضيه؟

نعم، تقتضيه؛ لأن انتشار التعليم في الأمة الإسلامية تتسرب معه كثير من الشبهات القوية على وجود الروح والملأ الأعلى، وهذه الأمور كلها أحاطها الماديون بشبهات لا يقوى على مَحْقِها إلا هذا النور الجديد، الذي أشرق من صَوْبِ المباحث النفسية. فإذا أهملوا الاستفادة منه اضطروا للاقتصار في دفاعهم عن الدين على استعمال الأسلحة القديمة، وقد أصبحت لا تغني حيالها شيئًا، فيكونون قد رضوا لأنفسهم في هذا الصراع العنيف بين الإسلام والإلحاد بهزيمة ساحقة.[*]

---

(١) يقدع: يضرب، ومعاطس: جمع مَعْطِس، وهو الأنف. ويقال في اللغة: قَدَعَ أنفَه، أي غَلَبَهُ في حجته.

(*) مجلة الرسالة – العدد ٧٥٧ – ٥ يناير سنة ١٩٤٨م.

لسنا ممن يرى الحَجْرَ على مطلق الدعوة للمذاهب المختلفة؛ فإنه لما كانت الحقيقة بنت البحث، وكان تَرَقِّي الإنسان معلقًا على إدراكه للحقائق، كان مما يعطل ترقيه منع الناس التناقش فيها، والتفاهم عليها، ولكن الأمر الذي يتنافى وهذه الحاجة أن يسلك المتباحثون طريق المُغَالَطات والمُماحَكات والمُماحَلات، فإن هذا الأسلوب يؤدي إلى المُنابَذات والمُهاتَرات؛ فتضيع الحقائق في هذه الحالات النفسية، وتبقى آثار هذه الخصومات بين المتعايشين في بلد مَثارًا للفُرْقَةِ والقطيعة بينهم.

أُمِرَ المسلمون بالدعوة إلى دينهم، ولكن كتابهم حَدَّ لهم فيها حدودًا، وطالبهم بعدم تعديها، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1]. وفي هذا أمر صريح باستخدام الحكمة في الدعوى. والحكمة غاية ما يتصف به أصحاب القلوب الكبيرة من العدل والإنصاف، والحِلم والأناة، والأدب والاتزان في الإدلاء بالحُجَّة، والتَبَسُّط في البحث، فإنْ بَدَرَ من الخصم ما يدل على أنه لا يَعْتَدُّ بالأدلة، ولا يَأْبَهُ بالأعلام، وُجِّهَتْ إليه موعظة ترده عن هذا الغَيّ، على شَرِيطَةِ أن تكون حسنة خالية مما يثير في نفسه نزعة المَشَارَّة والمَحادَّة[2]. فإن أكْدَتِ الموعظة، جودل ولكن برفق ولطف، وهذا أبعد مدًى عَيَّنَهُ الشارع لمن يتصدى للدعوى الإسلامية.

كذلك، أُمِرَ النصارى أن يدعوا إلى دينهم، وصرح لهم الإنجيل بأن يتلطفوا فيها

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

(٢) المَشارَّة والمَحادَّة: أي الشر والحِدَّة.

جهد الطاقة، حتى قرر لهم أنهم لو آنسوا من قوم كراهة لأقوالهم فلا يقيموا بين أظهرهم، وليرحلوا إلى حيث تُطلَب دعوتهم.

هذه حدود الدينين اللذين يتنازعان السلطان في العالم اليوم، فما بال بعض الدعاة يرتكب ما تنكره الفطرة السليمة، ويحرمه الذوق والأدب، من استخدام الأساليب التي لا ثمرة لها غير إحفاظ النفوس، وإثارة الريب؟

هل غاب عنهم أن هذه الخِطَّة تزيد في بعد الناس عنهم، وهربهم منهم، وإساءة الظن بهم وبما يدعون إليه، فهل إلى هذه النهاية يريدون أن يصلوا من دؤوبهم في الدعوة،وبَذْلِهم القناطيرَ المُقَنْطَرَةَ في سبيلها من الذهب والفضة؟

نكتب هذا وبين أيدينا كتب ورسائل محشوة بكثير من الشتائم والمطاعن ضد الإسلام وكتابه، وكنا لا نَأْبَهُ لها لاعتقادنا أن عارها يعود عليهم دوننا، وأنها من عوامل فشلهم، وخيبة أملهم، فضررها حائِقٌ بهم لا بنا،ولكنا رأينا بعضها نَهَجَ نهجًا جديدًا في المغالطة، فزعم أن القرآن يقرر بنوة عيسى عليه السلام لله جل وعز، وأن المسلمين لم يفهموا دينهم على الوجه الذي يجب عليهم أن يفهموه عليه من هذه الناحية.

هنا، لا نقول إنهم يجهلون مذهب القرآن في هذه المسألة إلى هذا الحد، ولكنهم يأملون خَدْعَ العوام، والتأثير في عقولهم، وهي طريقة تعود عليهم بالوَبال، فإن هؤلاء العوام متى لجأوا إلى علمائهم، وقرأ لهم هؤلاء ما ورد في دينهم، من نَفْي هذه العقيدة تصريحًا بغير تَلْوِيح، وبآيات مُحْكَمَة لا تقبل التأويل، أدركوا أن هؤلاء الدعاة يتقوّلون على الإسلام ولا يتحرجون، فقاسوا عليه كل ما يقولون، وفي هذا ربح لنا عظيم أيضًا.

وبما أنه طُلِبَ إلينا أن نكتب ما يزيل اللبس من هذه المسألة، فلم نجد بُدًّا من كتابة عجالة فيها:

أما أن القرآن يعلن على رءوس الأشهاد بأن الله يتنزه عن الوالد والولد، وأن

عيسى رسول من رسله وعبد من عبيده، فمنه كثير في الكتاب الكريم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤)﴾[1]. وقال: ﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[2]. وقال: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾[3]. وقال: ﴿مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾[4]. وقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (٩٣)﴾[5]. وقال: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[6]. وفي الكتاب الشريف غير هذا كثير، وكلها نصوص صريحة في نفي دعاويهم.

ومما لجأوا إليه من مغالطاتهم الاحتجاج بما أطلقه الله على عيسى عليه السلام من أنه روح لله، وغاب عنهم أن كل إنسان نُفِخَ فيه من روح الله، وأنه إن صرح الكتاب بأن عيسى خُلِقَ بغير أب، فقد صرح بأن الله خلق آدم بغير أب ولا أم، وقد دحض الله كل هذه الشبهات بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (١٧١) لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ

---

(١) سورة الصمد.

(٢) سورة الصافات، الآيتان ١٥١، ١٥٢.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ١٠١.

(٤) سورة مريم، من الآية ٣٥.

(٥) سورة مريم، الآيات ٨٨:٩٣.

(٦) سورة النساء، من الآية ١٧٢.

وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (١٧٢)﴾[1]. وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)﴾[2].

هذه ما يقال من ناحية النقل، أما ما يقال من ناحية العلم، فهو لا يقل إلزامًا لهم في هذه المسألة. جاء في دائرة معارف (لاروس) الفرنسية تحت كلمة "تثليث" ما ترجمته حَرْفِيًّا:

"إن عقيدة التثليث وإن لم تكن موجودة في كتب العهد الجديد (الإنجيل) ولا في كتاب الآباء الرسوليين، ولا تلاميذهم الأقربين، فإن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستانتي الواقف عند التقليد يزعمان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمن على الرغم من الأدلة التاريخية التي تبين لنا كيف ظهرت هذه العقيدة، وكيف نمت، وكيف علقت بها الكنيسة بعد ذلك.

"نعم، إن العادة في التعميد كانت أن يُذْكَرَ عليه اسم الآب والابن والروح القدس، ولكنا سنريك أن هذه الكلمات الثلاث كان لها مدلولات غير ما يفهم منها نصارى اليوم، وأن تلاميذ المسيح الأولين الذين رأوا شخصه وسمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأقانيم الثلاثة المكوّنة لذات الخالق كما يدّعون. وما كان (بطرس) حواريه يعتبره إلا رجلاً يُوحَى إليه من عند الله. أما (بولس) فإنه خالف عقيدة التلاميذ الأقربين لعيسى، وادعى أن المسيح أرقى من إنسان، وأنه نموذج إنسان جديد، أي عقل سَامٍ مقوله من الله مباشرة، وأنه كان موجودًا قبل أن يوجد هذا العالم،وقد تجسد فيه لتخليص الناس من الخطيئة، ولكنه مع ذلك متعلق بالله الآب.

إلى أن قالت دائرة المعارف الفرنسية: "كان الشأن في تلك العصور أن عقيدةَ إنسانية عيسى كانت هي السائدة مدة تكوّن الكنيسة الأولى من اليهود المتنصّرين.

---

(١) سورة النساء، الآيتان ١٧١، ١٧٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٥٩.

فإن الناصريين (سكان مدينة الناصرة التي تسمى بها النصارى) والإيبيوتيين وجميع الفرق النصرانية التي تكونت من اليهود، اعتقدت أن عيسى إنسان محض مؤيد بالروح القدس، وما كان أحد يتهمهم إذ ذاك بأنهم مبتدعون أو ملحدون. قال (جوستن مارشير) – وهو مؤرخ لاتيني من أهل القرن الثاني – إنه كان في زمنه في الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن عيسى هو المسيح (أي الموعود به في التوراة)، ويعتبرونه إنسانًا محضًا وإن كان أرقى من سواه، ولكن حدث بعد ذلك أنه كلما زاد عدد المتنصّرين من الوثنيين، ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل" انتهى ما كتبته دائرة المعارف الفرنسية.

هذا ما قرره العلم ولدينا منه مزيد، فعلى الدعاة الذين يخوضون في أمثال هذه المسائل الجدلية أن يُلِمُّوا بجميع أطراف الموضوع الذي يدعون إليه، ذلك أَوْلَى لهم من هذه المغالطات والمماحكات التي يسرفون فيها، ويقفون أقلامهم وأموالهم على إذاعتها، فقد ذكر الكتاب الشريف أسلافهم ممن حاولوا التشكيك في الإسلام والصد عن سبيله، وبشرهم بالفشل والخيبة وسوء المُنْقَلَب، فقال تعالى فيهم: ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[(١)][(٢)].

(١) سورة الأنفال، من الآية ٣٦.

(٢) مجلة الأزهر ـ المجلد التاسع، سنة ١٣٥٧هـ، ص٢٨.

إن قلنا: واجب الشباب نحو ربهم، كان معنى ذلك واجبهم نحو الكمال المطلق والخير المحض والمُثل العليا في كل أمر، فإن الله جل وعز لم يكلفنا إلا بما فيه صلاحنا وفلاحنا، وتكاليفه أيًا كانت عباداتٍ أو آدابًا، المقصود بها تربيتنا تربية عالية، وإعدادنا لرجولة صحيحة، وإيصالنا إلى الحقائق التي ترتبط بها سعادتنا المرجوّة من طريق العلم والعمل والفضيلة.

مضى الزمان الذي كان يُعْتَبَرُ الدين فيه سخرة، أو تقييدًا للحرية الصحيحة، أو حرمانًا للنفس من مشتهياتها في الحدود العلمية، وهذا زمان تجلي فيه بالدليل القاطع أن الدين حاجة أولية للروح لا مَعْدَى لها عنه. وإذا قلنا الدليل القاطع قصدنا به الدليل العلمي المؤسَّس على علم النفس. ولا يتسع لي المجال الآن لبيان ذلك على وجهٍ يوفي بالحاجة العقلية من كل نواحي هذا الأمر الجَلَل، ولكني أستطيع أن أقول على عجل إن الفلسفة المادية التي حاولت في خلال قرون ثلاثة أن تقطع كل صلة بين الإنسان وما فوق المادة، قد مُنِيَتْ بفشل حاسم لا قيام لها بعده من طريق العلم الطبيعي نفسه لا من طريق العلوم الدينية، فقد توصل العلم إلى إحالة المادة إلى قوة، أي إلى إثبات أن لا وجود لها، وأنها عَرَضٌ من أعراض القوة. وبزوال هذه العقبة الكَأْداء من طريق العقل الإنساني انفتحت أمامه باحَةٌ لا حد لها إلى عالم القوى التي هي مصدر كل موجود في عالم الشهادة.

نعم، إن زوال هذه العقبة لم يخرج العلوم من مجالها الطبيعي، ولكن كان من آثار زوالها اتساع هذا المجال الطبيعي بحيث لا يتصور العقل له نهاية، وهذا وحده كان ذا أثر بعيد في تأديب الإنسان ورَدْعِهِ عن البَتِّ فيما ليس من شأنه أن يَبُتَّ فيه، وفي

تشكيكه في كل ما أسسه من الأصول العلمية، وإعادة وضعها في الميزان تحت ضوء النقد الصارم والتمحيص الدقيق. فسقط بذلك العجب الذي كان يخيَّل للعلماء أنهم أدركوا حدود كل شيء، وأصبح لهم الحق في الحكم بالوجود أو بالعدم على كل ما يَعْرِضُ لهم البحث فيه، حُكمًا لا يقبل المراجعة، ولا يحتمل التشكيك.

يقول قائل: وما تأثير كل هذا في تقوية عاطفة الدين؟

نقول له: في ذلك أبلغ تأثير، فإنه بعد أن كانت تعتبر المادة مبدأً ومرجعًا لكل مخلوق، انتقل هذا السلطان للقوة، وعالم القوى أرفع من عالم المادة بما لا يقدر، ونواميسه أعلى وأعم بقدر هذا التفاوت بينهما، والمحتملات التي تنشأ من هذا الانتقال لا تقف عند حد. وإذا أردتَ أن تقف على مبلغ التحول الذي طرأ على مذاهب العلماء من حدوث هذا الاكتشاف، فإليك على عجل:

قال الدكتور (فيلبون) في مجلة: (العلم والحياة) صفحة ٤٥١ من مجلة سنة ١٩١٧:

"لقد حلت كلمة (القوة) محل كلمة (المادة)، فما يدرينا هل تحل كلمة (روح) محل كلمة (قوة)؟ هذه المسألة المحيرة لا تزال سرًّا من أسرار المستقبل".

وقال العلامة (جوستاف لوبون) في كتابه: (تحول المادة):

"دامت العقيدة في صحة المقررات الكبرى للعلم العصري حافظةً لقوتها إلى أن حدثت في الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظَرة قضت على العلم العصري أن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه نهائيًّا، فإن الصرح العلمي الذي كان لا يرى صُدُوعَهُ إلا عدد قليل من العقول العالية قد تزعزع فجأة بشدة عظيمة، وصارت المتناقضات والمحاولات التي فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث لا تبلغها الظنون، فأدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين، وأسرعوا يتساءلون: هل الأصول المكوِّنة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن إلا فروضًا واهية تحجب تحت غشائها جهلاً لا يُسْبَرُ له غَوْر؟".

ثم نقل الأستاذ (جوستاف لوبون) قول العلامة الرياضي (لوسيان بوانكاريه) وهو: "لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولاً تامًّا، ويجمع عليها المجرِّبون إجماعًا عامًّا، بل يسود اليوم عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى".

وعَقَّب عليه الأستاذ (جوستاف لوبون) بقوله: "من حسن الحظ، لا شيء أكثر ملاءمة للترقي العلمي من هذه الفوضى، فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها، والحجاب الذي يحجبها عنا منسوج غالبًا من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي (تأمل)، فلا يمكن عمل خطوة للأمام إلا بعد أن تتفكك عُرَى الآراء السابقة".

نقول: يظهر مما قدمناه أن تأثير سقوط صرح المادة كان بليغًا إلى أقصى ما يمكن تخيله، فهل تتأدى العقيدة في القوة التي تنحل إليها المادة إلى العقيدة في روحانيتها، فيكون ثمرة هذا الهدم والبناء في مصلحة الروح من كل وجه؟

هذا ما يبدو صريحًا من أقوال أقطاب العلم، فقد جاء في دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية تحت كلمة (مادة) – بعد أن عرضت جميع المذاهب عليها – ما يأتي:

"على هذا، فجميع الفروض التي فرضت الآن تعجز عن حل تناقضاتها الذاتية ولا تنطبق على الحوادث. فماذا نستنتج من هذه الحال غير أن مدركاتنا العلمية عن المادة – وهي تتفاوت في صلاحيتها كوسائل للترتيب والتحليل – لا تستطيع أن تزعم أنها الحقيقة المطلقة. وهذه الفروض باعتبار أنها لا وظيفة لها إلا تسهيل وتعميم صفات وعلاقات الظواهر المحسوسة، لا يمكن أن تكون حتمًا إلا رمزيةً وخدّاعةً كهذه الظواهر نفسها".

ثم ختمت الدائرة الفرنسية هذا الفصل بقولها:

"وعلى هذا، فلو صرفنا النظر عن المذهب اللا أدرى الذي هو عبارة عن رفض أي محاولة لتفسير الحوادث، فإن المذهب الذي يرمي إليه علماء العِلَل الأولية هو: أن

المادة باعتبار أصلها تنحل – كما فكر في ذلك (لبنتز) – إلى وجود روحاني (تأمل) طبيعته كطبيعة الوجود الذي يتجلى لوجداننا.

والمسألة التي تبقى بعد ذلك غير محققة هي أن نعرف: هل الوجود مؤلَّف من ذرات روحية متميز بعضها عن بعض، أو أنه كائن واحد عام لا يقبل الانقسام ومستمر على الدوام، وأنه العلة والمعلول العام"؟

نقول: إن أثر تدهور الصرح المادي كان بعيدًا إلى حد أن حلت الروح محلها في التعليلات العلمية الطبيعية كما ترى، فهل بعد هذا إِهابَةٌ بالعاطفة الدينية إلى اليقظة والعمل فيما خُلِقَتْ له؟

الإنسان يتألف من جسد وروح، ولكل منهما مطالب، فكما يَأْلَمُ الجسد إن قُطِعَ عند المَدَدُ المادي، كذلك تَأْلَمُ الروح إن قُطِعَ عنها المدد الروحاني. وحرمان الجسد من مقوماته يُفْضِي إلى تعطل وظائفه وإلى تحلله، وحرمان الروح من مقوماتها يؤدي إلى الحيلولة بين إشراقاتها وبين صاحبها، وفي تلك الحيلولة كل ما يُتَخَيَّلُ من اضطراب النفس، وفساد القلب، وغِلَظِ الشعور، والسقوط إلى الحيوانية البحتة، بل إلى ما هو أسفل منها. فتجد المبتَلى بهذا الحرمان من المدد الروحاني يستسيغ ارتكاب القبائح، ومُقارَفَة الدَّنايا، والانغماس في الخسائس، والخوض في المَقَاذِر، ظنًّا منه أن في هذه الإباحة الجنونية سكنًا لنفسه الجامحة، وُمتَنَسَّمًا لقلبه المحترق، ولكنه لا يزداد إلا هَلَعًا على هلع، ولا يزال يعالج هذه النيران المتسعرة في باطنه حتى ينتهي أجله، ويذهب إلى حيث يذهب التائهون.

ماذا تتطلب أَعْصَى العقول على الدين بعد أن ألقى الإلحاد سلاحه كما يُرى على رءوس الأشهاد؟ وماذا تنتظر أن ترى من أعلام الحق بعد أن صرّح العلم بأن المادة تنتهي إلى روح، وأن الروح هي أصل الخلق ومنتهاه؟

فهلم ننقذ أنفسنا من سيادة المادة علينا، لا باحتقارها ولا بالهرب منها، ولكن بإخضاعها لسلطان الروح، حتى لا تطغى علينا فتقودنا من شهواتنا

إلـى حيث تفقدنا كرامـة الإنسانيـة، وشـرف العمـل عـلى إقامـة دولـة المدنيـة الفاضـلة في الأرض.

عمل الإنسان لإقامة دولة الروح هو في الحقيقة خدمة لنفسه وللإنسانية وللعلم وللمدنية ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1] فإن الله غني عن العالمين. فإن كلفنا الله بطاعته فإنما يكلفنا بما يحيينا ويرقّينا ويشرفنا، ويتناسب وغرائزنا الفطرية ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)﴾[2][3].

---

(١) سورة الإسراء، من الآية ٧.

(٢) سورة المائدة، من الآية ٦.

(٣) مجلة الأزهر – المجلد السادس، سنة ١٣٥٤، ص٦٥٩.

(جواب عن سؤال)

تسألون عن حكمة إيعاد الله المشرك بعدم المغفرة، وبالخلود في النار... إلخ، فيلُوح لنا أنكم تستعظمون أن تستوعب مكافحة الشرك الجزء الأكبر من جهود المرسلين، ويخيَّل إلينا أنكم ترون أن الشرك وإن كان في ذاته ضلالاً إلا أنه لا يَعْدُوكَوْنَه خطأً عقليًّا بسيطًا لا يستدعي أن يَخْلُدَ صاحبُه في النار، وأن يُطْرَدَ أَبَدِيًّا من رحمة الله. بل ربما تسرب إليكم قول خصوم الأديان: بأن الأمم وهي في دور طفولتها لا تستطيع أن تدرك الوحدة الإلهية، وأن لابد لها من دور طويل الأَمَد تمضيه في الوثنية، فكيف تعاقَب بالخلود في النار أمم لا تُحْصَى لخضوعها لحالة لا تستطيع الافْتِكاك منها؟

ويتبادر إلى ذهننا أيضًا، أنكم تستكبرون كذلك أن تُحارَب أمة لا لشيءٍ غير أنها مشركة، أفلم يكن أَجْدَى عليها من ذلك أن نَصْرِفَ هذه الجهود الجبارة والأموال التي تُنْفَقُ في جهادها، في سبيل تعمير بلادها، وإحياء مَواتِها، ودَفْعِها في طريق الحياة دفعًا رحيمًا. أما الشرك السائد فيها فيُتْرَكُ حتى يَسْتَنْفِدَ دوره تحت تأثير ثقافةٍ نَيِّرَةٍ وتربيةٍ حكيمةٍ؟

يلُوح لنا أن هذا روح سؤالكم، وهو عينه قول خصوم الأديان المعاصرين، وهو بهذا الاعتبار يكون جديرًا بالعناية، ولا مَناص من دحضه بأسلحة العلوم الحديثة التي يخضع لها هؤلاء الخصوم، فنقول:

أما أن الأمم في دور طفولتها لا تستطيع بحكم قصورها العقلي أن تدرك وحدة

الذات الإلهية، وأنه لا مَحِيص من أن تمضي أول أدوارها في الوثنية، فهذا القول سقط عن المرتبة العلمية، بعد أن أثبت الأستاذ الألماني الكبير (ماكس موللر) – عمدة الباحثين في الأديان البشرية القديمة ومناشئها وتطوراتها – أن الناس كانوا في أول عهودهم موحِّدين للذات الإلهية لا معدِّدين للآلهة، عاشوا على ذلك التوحيد دهرًا طويلاً، ثم طرأت عليهم الوثنية بفعل زعمائهم الدينيين، فقد سَوَّلُوا لهم تعديد الآلهة للتأثير في عقولهم لِيَسْهُلَ قِيَادُهم في أيديهم، وليصرفوهم فيما يشتهون، ويرتفعوا في نظرهم إلى مرتبة خَزَنَةِ الأسرار الإلهية، ومهبط العلوم العلوية. (ارجع إلى كتاب: "الدين وترقيه" للأستاذ "ماكس موللر"، وكتاب: "اللادينية المستقبلة" للفيلسوف الفرنسي "جيو").

هذا رأي العلم اليوم، والأستاذ (ماكس موللر) لا هو من رجال الدين، ولا من العلماء الاعتقاديين، وإنما هو بَحّاثة في تاريخ الأديان القديمة ومناشئها، وقد وقف على هذا الاكتشاف الأثري الخطير من طريق تتبع سلسلة الأديان بالاعتماد على الآثار والنقوش والكتابات، لا من طريق التَّوَهُّمِ والظن. فيكون من أروع المعجزات العلمية للقرآن أن يوافق هذا الاكتشاف العلمي الخطير ما جاء فيه عن أصل الدين، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (أي متفقين على الفطرة ثم اختلفوا)، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾[2].

فإذا تركنا هذا التحقيق العلمي جانبًا ورجعنا إلى معالجة هذه المسألة من ناحية أخرى، رأينا أن مجرد النظر للإنسان في سذاجته الأولى يُشْعِرُ بأنه كان لا يَعْتَدُّ

(١) سورة يونس، من الآية ١٩.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٣.

بالسلطان (أي السلطة) إلا في فرد لا في جماعة، فكان لا يقبل الشركاء في سلطانه على أسرته، ولا الشركاء في سلطان رئيس قبيلته، فمبدأ الفردية كان متغلّبًا على جميع مشاعره، فهل يُعْقَلُ أن يَعْصِيَ هذا الميل الطبيعي فيه بالنسبة لخالق الكون، فيرضَى له ما لا يرضاه لنفسه ولا لرئيسه؟

هذا، ولو عُنِيَ الباحث بدراسة علم الأساطير الدينية (الميتولوجيا) فإنه يرى في وثنية الشعوب من آثار الصنعة، وخَوادِعِ الخيال، ما يَقْصُرُ عنه الإنسان في أول عهده، ويدل على أن كل ذلك حدث بعد عصور كثيرة من وجود الخليقة.

إذا تقرر هذا، ثبت لدينا أن الشرك عصيان متعمَّد للفطرة التي فطر الله الناس عليها، واستسلام مَعِيبٌ من الجماعات لأفراد اغتصبوا حق القَوامَةِ الدينية عليها، فأخذوا يُمْلُون عليها من التقاليد والعقائد ما يزيدها إيغالاً في الوحشية، ومُضِيًّا في ارتباك العقلية، ليلهوها بالخيالات والأباطيل، وينفردوا هم بالسيطرة على نفوسها وعواطفها، فيسوقوها للحصول على مجد حربي، أو مَغْنَمٍ مادي، حرصًا على تحقيق مطامعهم، وتوفيةً لحاجات شهواتهم.

فأصبح الشرك على هذا النحو (أداةً) في أيدي المتلاعبين بالأمم، يأتونها باسمه بكل ما يُناقِض بَداهَةَ العقل، وكل ما يخالف حقائق الأشياء، ويشذ عن الموازين المنطقية.

وقد عاش الإنسان من حياته الأرضية دهورًا دَهارِيرَ مُنْقادًا للقُوَّام على عقائده انقيادًا أعمى على هذا النحو. ولما كانت رحمة الخالق تأبى أن تبقيه في هذه الحَمَأَةِ كان يوالي رسله إليه تَتْرَى، محاولين زحزحته عن موقفه، ولا سبيل لهم إلى الوصول إلى غايتهم إلا بمكافحة عقيدته الرئيسية وهي الشرك، وهو – كما قلنا – كان الأداة الشيطانية في أيدي مغتصبي السلطان على عقله، يصدونه به عن كل إصلاح اجتماعي وتَرَقٍّ أدبي. ومن أراد دليلاً محسوسًا على خطر هذه الأداة، وعلى أن المرسلين – وهم أَرْشَدُ مُصْلِحي الأمم – كانت دعوتهم تصطدم بهذه الأداة ولا تجد

لها مَساغًا إلى الأذهان مع وجودها، وأن أول ما كان يجب عليهم حيالها أن يبذلوا أبلغ جهودهم في تحطيمها، قلنا: من أراد دليلاً محسوسًا على ذلك كله فليتأمل في العقبات التي قامت في وجه الدعوة المحمدية، وهي آخر الدعوات الإلهية، ليرى أن الشرك كان هو وحده الحائل المنيع الذي قام في وجهها، ولولا أن الله أراد إنفاذ إرادته فهدى لدينه قومًا آخرين، لَصَدَّ الشرك العرب أجمعين عن هداية الإسلام، ولبقوا إلى اليوم فيما كانوا فيه. ولأجل أن يتحقق الباحث من مَبْلَغِ تأثير الشرك في صَدِّ أهله عن الأخذ بالتعاليم الحقة والأصول الصحيحة، نتلو عليه قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧)﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[2].

إذا تأمل الباحث في هذا، رأى أن أهل الجاهلية لم يصدهم عن الأخذ بالمبادئ المُحْيِيَةِ التي أتى بها النبي ﷺ غيرُ هذا الشرك. أفلا يكون من الحكمة أن يبدأ بمكافحة هذا الحائل القوي حتى يزول من طريق الدعوة، ليفتح المجال للخير العام الذي ابْتَنَتْ عليه هذه الدعوة، لا سيما والتوحيد هو الفطرة التي فُطِرَت العقلية الإنسانية عليها – كما ثبت ذلك علميًّا بفضل البحوث القيمة التي قام بها الأستاذ (ماكس موللر) ومَن سار على طريقته من المُنَقِّبِينَ في تاريخ الغريزة الدينية عند الجماعات الأولى للنوع الإنساني؟

وإذا صَحَّ هذا، وثبت أن الشرك مَثارٌ لجميع الانحرافات الخلقية، ومصدر لكل العادات الوحشية، فكيف لا يكرر الله ذكره في كتابه ويمقته أشد المَقْتِ، ويُوعِدُ عليه الآخذين به بأشد العذاب وأَدْوَمِه؟

---

(١) سورة ص، الآيات ٤-٧.

(٢) سورة الصافات، الآية ٣٦.

كان الناظرون في تطور المعتقدات البشرية يظنون قبل هذا العهد – كما قدمنا ذلك – أن الإنسان بدأ مُعَدِّدًا للآلهة بحجة أنه لم يكن يدرك التوحيد ولا يتذوقه، فكان الناس يتخيلون له عذرًا في وثنيته، ولكن ماذا يقولون وقد ثبت بالأدلة المحسوسة أنه بدأ حياته الدينية مُوَحِّدًا، ثم استسلم لزعمائه فزينوا له التَّعْدِيدَ فانقاد لهم؟

والذي يؤيد هذا التقرير العلمي سرعة سَرَيان الإسلام في الأمم في أول ظهوره، حتى دخلت فيه أمم بِرُمَّتِها طواعيةً بدون دعوة، وحتى بلغ أتباعه في مدى قرن واحد نحو مليون نسمة. ومما يؤيد ذلك أيضًا سرعة انتشاره في القبائل المجردة من أية ثقافة علمية، فتراها تترك دعاة المِلَلِ الأخرى وتستغنى عن المُغْرِياتِ الكثيرة التي يبذلونها لها، وتُقبل على دعاة الإسلام على فقرهم، وتَقبل الإسلامَ دينًا لها. حتى إن الكاردينال (لافيجري) الفرنسي ذكر ذلك في تقريره الذي قدمه للبابا، وقال: إن ستين مليونًا من الزنوج دخلوا في الإسلام في النصف الأخير من القرن التاسع عشر بدعوة بعض الشيوخ الفقراء والتجار. أليست هذه السهولة في التَّفَلُّتِ من الشرك والإقبال على التوحيد تدل على أن التوحيد هو الفطرة الأصلية، فتقبله النفوس – حتى الساذجة منها – إذا قُدِّمَ إليها ولم تكن ذات مصلحة ذاتية في تأييده كما كانت عليه الحال عند أهل مكة؟

إذا علمتَ كل هذا، أفلا تقضي الحكمة أن يُبْدَأَ بالشرك – وهو الداء الرئيسي – فيُجْتَثَّ من النفوس لتخلو لما يُبَثُّ فيها من التعاليم الإلهية الرشيدة: من إقامة معالم العدل، وتأسيس دولة الحق، وإسقاط أولئك المتحكمين في نفسيات الخلق؟

رأيتكم تقولون: إذا كان المشرك لا يَنْفَكُّ عن إشراكه، فما فائدة النصح له؟

كيف تقولون ذلك، وقد رأيتم نجاح الدعوة المحمدية في أمم برمتها، ورأيتم نجاحها في هذا العصر أيضًا في الأمم المشركة التي لا تَمُتُّ إلى المسلمين بصلة؟

وإذا كان هذا الشرك مخالِفًا للفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهو في الوقت نفسه علة رئيسية لجميع ضروب الرذائل، والآفة الحائلة دون جميع الفضائل، أفلا يكون من الحكمة أن يُشَدَّدَ في العقوبة المترتبة عليه، لتفطن النفوس إلى خطورته، وتتنبه العقول إلى شناعته؟

ولستُ أستطيع أن أدل على أن الشرك مصدر لجميع الوحشيات التي يرتكبها الإنسان أبلغ من لفت النظر إلى ما يحفظه التاريخ القريب عنها، ولا يزال ماثلاً أمام الأعين منها، فمما حفظه التاريخ القريب من ذلك أن استكشاف (مكسيكا) بأمريكا صادف مهرجانًا كان يقيمه أهلها للاحتفال بافتتاح معبد لهم. فما كان أشد دَهَشِ الرُّوّادِ عندما رأوا أن أولئك المحتفِلِين قد أعدوا من أسرى أعدائهم سبعين ألف نسمة ليريقوا دماءهم على مذبح ذلك المعبد، وقد أمضوا ما اعتزموه فسالت دماؤهم أنهارًا بين هتاف الشعب وتصفيقه، وزَمْزَمَةِ رجال الدين وصلواتهم! كل هذا كان تزلفًا للآلهة وتلمسًا لبركاتها!

ومن عادة كثير من المشركين إلى هذا اليوم ذَبْحُ زوجات مَن يُتَوَفَّى منهم وبعض خَدَمِهِ، وقد عد الأستاذ (هربرت سبنسر) في كتابه: (أصول الاجتماع) عددًا من القبائل لا تزال تجري على هذه العادة.

وأَشْنَعُ من هذه عادة إحراق الزوجة التي يموت عنها زوجها، وكانت هذه العادة شائعة في الهند أيضًا، وما توصل الإنجليز إلى إبطالها إلا بعد بذل جهود كثيرة.

ومن ضلالات المشركين اعتبارهم طائفة منهم أنجاسًا منبوذين لا يمسونهم ولا يعاملونهم، ومن يفعل شيئًا من ذلك يعد آثمًا ويجب عليه أن يحرق ثيابه وأن يغتسل. وبذلك تجد عشرات الملايين من البشر في حالة يرثى لها: يفترشون

الأرض، ويتغذون من القمامات، وهم أَبْغَضُ إلى إخوانهم في الدين والجنس من الكلاب الكَلِبَةِ[1]، وأَذَلُّ عندهم من فَقْعٍ بِبَلْقَعٍ[2].

وقد رأى الناس كيف خاب المصلحون الكبار في مساواة المنبوذين بإخوانهم في الدين لدى بعض الأمم، ولم يكن الحائل دون هذا الإصلاح الواجب سوى ما عليه تلك الأمة من الشرك. وقد خاب مصلحوهم إلى حد أنْ رماهم الغُلاَة بالأحجار وتَقَصَّدُوهُم بالقتل. فاضطر هؤلاء المصلحون إلى لزوم الصمت، وبقيت الحال على ما كانت عليه.

هذه العادات الوحشية لم تُوجِدْها قلة الثقافة العقلية، ولكن أوجدها الشرك، بدليل وجودها عند المثقفين من هذه الأمم، وبدليل عدم وجودها لدى الجماعات الإسلامية التي تقيم في بلاد هؤلاء المشركين وهي منهم جنسًا ولغةً، وليست أرفع من عامتهم علمًا ولا فهمًا.

تُسَائِلُنا قائلاً: ما الفرق بين المشرك والمنافق؟ وهذا سؤال لا يمت إلى موضوعك بسبب. فأما الشرك بالله فقد عرَفْتَه، وأما النفاق فهو أن يَبْطُنَ الإنسان عقيدةً أو رأيًا ويتظاهر بخلافهما مجاراةً لغيره، أو مُداراةً له مداراة مشوبةً بسوء النية.

أما التوفيق بين قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[4]، فليس فيه كبير كلفة. فإن الله يقول إنه أرسل محمدًا ﷺ رحمةً للعالمين، أي بأن يحط عنهم الآصار التي حَمَّلوها أنفسهم، وبأن يهديهم إلى منجاتهم بأحسن الأساليب وأكملها، وبأن ييسر لهم الوصول إلى الكمالات العليا من أقرب الطرق وأَقْوَمِها، وبأخف التكاليف وأنفعها. وهذا

---

(١) الكَلِبَة: أي المصابة بداء الكَلِب (السُّعَار).

(٢) فَقْعٌ ببَلْقَع: الفقع نوع من الفِطرِ الأرضي، والبلقع المكان القَفْرُ لا أحد فيه. والجملة كناية عن الذليل.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٤) سورة الإسراء، من الآية ١٥.

لا يتنافى وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ فإنها تذكر عدل الله في أنه لا يعذب أمة على ما اقترفت حتى يبعث إليها رسولاً ينبهها إلى الطريق السوي، والخُلُق الأمثل.

ولعلكم أردتم بقولكم إن محمدًا ﷺ بُعِثَ وليس بأرض الجزيرة نهر وانتقل إلى عالم الآخرة ولم يحفر نهرًا، لعلكم أردتم بقولكم هذا أن عنايته بمكافحة الشرك استوعبت جهوده كلها فلم يجد وقتًا لعمل ينفع الناس في حالتهم المعيشية..

فنرد على هذا بقولنا: إن النبي ﷺ أنفق السنين القليلة التي لبثها بين ظَهْرَانِيِّ قومه في إحياء قلوبهم، وبَعْثِ هممهم، واستنهاض عزائمهم، ليعملوا لأرواحهم وأجسادهم، وقد بلغ الغاية القُصْوَى من مراده، فَهَبَّ أصحابه من بعده فملأوا الأرض فضلاً وعدلاً، وعلمًا وعمرانًا، ومدنية.

أما النهر الذي تذكُرونه فمن المحال إحداثه في البقعة التي بعث فيها النبي ﷺ.. فالأنهار لا يُتَحَصَّلُ عليها بالحفر، ولو كان الحفر هو الوسيلة لإيجادها لما وَجَدْتَ شبرًا مَوَاتًا في الأرض.. فالأنهار إنما تفيض فيضانًا من البحيرات، والبحيرات تستمد مياهها من سيول زاغِبَةٍ[1] تنزل إليها من قُنَنٍ[2] جبالٍ شامخةٍ قائمة بجوارها. وهذه السيول تحدث من ذوبان الثلوج التي تتكون فوقها من الأمطار الغزيرة التي تسقط عليها. فإذا حَمِيَتْ عليها الشمس، ذابت ونزلت في حالة سيول، فتفيض الأنهار المشتقة من تلك البحيرات وتجري لتغذية الأراضي التي تمر بها. وليس ببلاد العرب الشمالية جبال تصلح لتكوين البحيرات، ولا في قدرة أحد إيجادها بالصناعة.

هذا جواب ما سألتنا عنه، والله يهدينا إلى سواء الصراط[3].

---

(١) زاغبة: أي متدفقة.

(٢) قنن: جمع "قُنَّة"، وهي قمة الشيء.

(٣) مجلة الأزهر – المجلد السادس سنة ١٣٥٤هـ ص٤٠٣.

المذهب المادي فلسفة لا علم، وفرق كبير بينهما..

فالعلم يَرُودُ بوسائله مجاهيل هذا الوجود الضخم، ويدوّن العلاقات الموجودة بين ظواهره منها، ويضم الأشياء إلى نظائرها، ثم يبذل وسعه ليجد النواميس العاملة في كل طائفة منها. وهو يحلل المواد ليعرف عناصرها الأولية، ولكنه يعترف بأن ما يسميه عناصر أولية قد تكون مركبة من عناصر أدق منها، لم تُمَكِّنْهُ ذرائعه الناقصة من العثور عليها. ألم يكن العلم إلى عصر "لافوازييه" في القرن الثامن عشر يقرر بأن العالم المادي يقوم على أربعة عناصر: الهواء والماء والنار والتراب، فلما اتفق لهذا الكيميائي تحليل الهواء إلى عنصريه: الأوكسيجين والأزوت، امتنع علماء وقته عن التسليم بما أدته إليه التجربة، إبقاءً منهم على صرح العلم الذي قام على هذه العناصر الأربعة أن ينهار. فظل خمسًا وعشرين سنة يدعوهم إلى تجربة ما يدعيه فيَأْبُون، حتى قضت عليهم الأحوال بقبول اقتراحه، فسلموا بعد التي واللتيا بأن الهواء مركب من عنصرين، وما كادوا يفعلون!

ولعلك تسألني: ما حال كيمياء كان لا يُعْرفُ فيها الأوكسيجين؟ فأجيبك: هكذا كانت الحال، وأنت حر بعدها.. فإما أن تَجْمُدَ على ما وصلتْ إليه العلوم في عصر من العصور، وإما أن تفتح ذهنك لتَلَقَّى كل اكتشاف جديد يتحقق فيه شرطا العلم من التحليل والتركيب، وركناه من المشاهدة والتجربة.

هذا هو العلم.

أما الفلسفة فهي جهاد من العقل وراء إدراك الحقيقة الكلية للوجود. وقد

دخلت من عهد نشوئها إلى اليوم في أطوار كثيرة. فبعد أن كانت تعتمد على العقل وحده، أصبحت اليوم تعتمد عليه وعلى العلم أيضًا. ومن هذا الطريق وصلت الفلسفة التي وصفت نفسها بالطبيعية – وهي التي يعتمد عليها المذهب المادي – إلى الحكم بأن الوجود مادة محضة، ومحكوم بنظام آلي لا يتخلف. وأن ما يسمى عقلاً ورُوحًا وعواطف حالات راقية من المادة وليس لها وجود خاص تستمده من ينبوع سواها.

ولكن العلم في الخمسين سنة الأخيرة – عقب اكتشافات خطيرة في قوى المادة الكامنة، وفي خصائص البروتوبلاسما، أي: المادة الأولية للخلية، وفي الأحياء الميكروسكوبية، ومن احتمال وجود أدق منها مما شوهدت آثارها ولم يُعْثَرْ على أشخاصها، ومن الأشعة المعتمة وما إليها ـ دخل في طور جديد من التشكك دفع بأقطابه أن يضعوا يقينياته في الميزان من جديد، فنظروا فيها نظراتٍ انتقادية لم يكونوا لينظروها من قبل. وتغيرت لهجة ممثليه فأصبحوا يكثرون من قولهم: إن الوجود مشحون بالمجاهيل حتى فيما ندّعي أننا قد فرغنا من بحثه. فإلى القارئ كلمة قيمة في هذا الباب لعالم من أشهر علماء الأرض هو "جوستاف لوبون"، أتى بها في مقدمة كتاب: "تحول المادة" قال:

"كان إذا اتفق أن فيلسوفًا من المنصرفين إلى درس الموضوعات ذات الحدود المبهمة والنتائج غير المحققة – كعلم النفس والسياسة والتاريخ – قرأ منذ عدة سنين كتابًا في العلم الطبيعي، كان يدهش من وضوح التحديدات فيه،ومن صحة البراهين وضبط التجارب، إذ كان يرى كل ما في ذلك الكتاب متسلسلاً بعضه يشرح بعضًا بدقة، وكان يرى أن بجانب كل ظاهرة طبيعية مهما بلغت من التركب تفسيرًا يبين غامضها ويوضح مبهمها.

فإذا حمل حب الاطلاع هذا الفيلسوف نفسه على أن يبحث عن الأصول العامة لهذه العلوم المضبوطة إلى هذا الحد، كان لا يتمالك نفسه من التعجب من بساطتها

المدهشة، ومن عظمتها المهيبة، فيجد في قاعدة علم الكيمياء نظرية: (الجوهر الفرد) الذي لا يقبل الانقسام. ويجد في قاعدة علم الطبيعة: (القوة) التي لا تتلاشى. ويرى معادلات علمية ولّدتها التجربة أو العقل المحض، تشمل في نظريات صارمة العناصر الأساسية الأربعة للأشياء، وهي: الزمان والفضاء والمادة والقوة، ويعرف أن جميع الجواهر الوجودية – من الكوكب العظيم الدائر في الفضاء دوراته اللولبية الأبدية، إلى ذرة الغبار الحقيرة التي يظهر أن الرياح تَذْرُوها اتفاقًا – تخضع كلها لنواميس سائدة عليها.

كان العالِم يختال بهذا العلم الذي هو ثمرة جهود بُذِلَتْ في عدة قرون، وكانت الوحدة والبساطة سائدتين بفضله في كل مكان، حتى إن بعض العقول المغرَمة بالنظريات كانت تعتقد إمكان تبسيط العلم أكثر مما هو عليه بعدم اعتبار شيء غير العلاقات الرياضية بين الظواهر الطبيعية. فإن هذه الظواهر كانت تتراءى لهم كأنها مظاهر لموجودٍ واحدٍ وهو القوة. وكان يخيل لهم أن تكون بعض المعادلات الفرقية تكفي لتفسير جميع الحوادث التي تقع تحت المشاهدة. وكانوا يظنون أن الغرض الأول للعلم هو كشف نظريات جديدة تُعْتَبَرُ على الفور كأنها نواميس عامة يجب أن تخضع لها الطبيعة.

فكان الفيلسوف المتقدم ذكره لا يسعه إلا الانحناء أمام هذه النتائج الفخمة، معترفًا بأنه إنْ عَدِمَ اليقين في البيئة الفلسفية التي هو فيها، فمن الممكن الحصول على ذلك اليقين في مجال العلم المحض.

كيف يعقل أن يشك في ذلك؟ أما كان يرى أن أكثر العلماء كانوا من الوثوق ببراهينهم بحيث لا تتطرق أخف الشكوك إليهم؟ وأنهم بتسلطهم على التيار المتحول للأشياء، وعلى فوضى الآراء المتغيرة والمتناقضة، يسكنون هذا الجو الصافي من الإطلاق الذي تتلاشى فيه جميع الشكوك، وتشرق فيه أنوار الحقيقة النقية الآخذة بالأبصار؟..

دامت هذه العقيدة في المقررات الكبرى للعلم العصري حافظةً لقوتها، إلى أن حدثت في الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمي أن يكابِد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه إلى الأبد. فإن الصرح العلمي – الذي كان لا يرى صدعه إلا عدد قليل من العقول العالية – تزعزع فجأة بشدة عظيمة، وصارت المتناقضات والمستحيلات التي فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث لا تكاد تبلغها الظنون.

أدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين. وأسرعوا يتساءلون: هل الأصول التي كانت مؤلفة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن إلا فروضًا واهية، تحجب تحت غشائها جهلاً لا يُسْبَرُ له غَوْر؟ فحدث إذ ذاك في المقررات العلمية مثل ما حدث قبل ذلك في العقائد الدينية عندما شرعوا يناقشونها الحساب. فكان دور الانحطاط، ثم تلاه دور الزوال والنسيان.

لا مشاحة في أن الأصول التي كان العلم يختال بها اختيالاً لم تَزَلْ كل الزوال أمدًا طويلاً في نظر الدَّهْماء كحقائق مقررة. وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها، ولكنها قد فقدت ما كان لها من الإجلال في نظر العلماء الحقيقيين.

تلك المكتشَفات التي نَوَّهْتُ بها آنفًا قد كشفت اللثام عن الظَّنِّيَات التي بدأت تفضحها الكتب الحديثة. وبذلك دخل العلم نفسه في دور من الفوضى كانوا يظنون أنه قد سَلِمَ منه إلى الأبد. وأصبحنا نرى أصولاً كان يُظَنُّ أنها ذات قاعدة رياضية محققة صارت موضوعًا للنزاع بين العلماء الذين من وظائفهم تعليمها والدفاع عنها. وقد صدرت كتب على مثال الكتاب القيم المسمى: "العلم والافتراض" لهنري بوانكاريه، تأتينا بالبرهان على ما نقول في كل صفحة من صفحاتها. ولقد أرانا هذا الرياضي المشهور أننا نعيش وسط الافتراضات والاتفاقات حتى في مجال العلوم الرياضية.

وقد بَيَّنَ لنا زميل كبير له في مجمع العلماء – وهو العالم الرياضي "إميل بيكار" في

بعض مؤلفاته – مقدار تنافر الأصول الحالية لعلم الميكانيكا، وهو العلم الأساسي الذي يتطاول إلى تصوير النواميس العامة للكون. فإليك ما قاله في هذا الموضوع:

"في آخر القرن الثامن عشر كانت أصول علم الميكانيكا تظهر فوق متناول كل نقد. وكانت أعمال مؤسسي هذا العلم تؤلف كتلة ظن الناس أنها تكافح الزمان، ولكن منذ ذلك الحين أخذ التحليل العلمي الدقيق يبحث القواعد التي يقوم عليها هذا البناء بمساعدة الزجاجات المكبِّرة. وقد أَفْضَى ذلك إلى أننا نصادف الآن عقبات صعبة التذليل، حيث كان لا يتخيل أمثال العالمين: (لاجرانج) و(لابلاس) إلا بسائط وممهدات. ولقد شعر كل من تكلفوا تعليم بداءات الميكانيكا بعد قليل من التروي بمبلغ تنافر أصولها التقليدية إذا أُرِيدَ عرضها على الناظرين.

وقد أبدى الأستاذ (ماتشي) في كتاب: (علم الميكانيكا) الذي نشره حديثًا رأيًا من هذا القبيل، فقال: "إن الأصول الميكانيكية التي تُظْهِرُ أبسط الأصول هي في الواقع من طبيعةٍ تعتبر غاية في التركّب، فإنها أُسِّسَتْ على تجارب لم تتحقق ولا يمكن تحقيقها. وعليه، فلا يمكن بأية وسيلة من الوسائل أن تعتبر كلها حقائق مثبَتة.

إننا نملك الآن ثلاثة مذاهب لعلم الميكانيكا يَصِمُ كل منها الآخر بالبُطلان. فإذا لم يكن واحد منها يستحق هذا الوصف فيمكن أن تعتبر جميعها ناقصة للغاية. ولا يمكن أن تعطينا إلا قليلاً من التفسيرات المقبولة عن حوادث الكون".

وقد كتب المسيو (لوسيان بوانكاريه) من جهة يقول: "إنه لا توجد لدينا نظريات كبيرة الآن يمكن قبولها قبولاً تامًّا، ويجمع عليها المجرِّبون إجماعًا عامًّا، بل يسود اليوم على عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى. وقد اتسع المجال للاجتراءات الممكنة، ولم يظهر أن ناموسًا من النواميس يعتبر ضروريًّا ضرورة مطلقة. فنحن نشهد في هذه الآونة أعمالاً هي بالهدم أشبه منها بإقامة بناء نهائي. فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسيسًا ثابتًا صارت

اليـوم لدينا موضوعًا للمناقشة. وقد رُفِضَ اليوم عـلى وجـهٍ عـامٍّ الـرأيُ القائـلُ بأن كل الظواهر الطبيعية تقبل تفسيرات ميكانيكية؛ فإن أصول علم الميكانيكا نفسها صارت مشكوكًا فيها. وقد شُوهِدَتْ حوادث جديدة زعزعت عقائدنا المتعلقة بالقيمة المطلقة للنواميس التي اعْتُبِرَتْ أساسية إلى اليوم". انتهى كلام الأستاذ (لوسيان بوانكاريه). ثم ختم العلامة الأستاذ (جوستاف لوبون) مقدمته بهذه الكلمات:

"من حسن الحظ، أنه لا شيء أحسن ملاءمة للترقي العلمي من هذه الفوضى، فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها، والحجاب الذي يحجبها عنا منسوج غالبًا من الآراء الضالة أو الناقصة التي تُوجِبُها علينا تقاليد العلم الرسمي، فلا يمكن عمل خطوة للأمام إلا بعد تفكك عُرَى الآراء السابقة. والأشد خطرًا على تقدم العقل الإنساني هو تقديم الظَّنِّيَات للقراء لابِسَةً حُلَلَ الحقائق المقررة على نحو ما تفعله كتب التعليم، والتطاول لوضع تُخُومٍ للعلم، ورسم حدود لما يمكن معرفته كما كان يود ذلك (أجوست كومت).." انتهى.

وقال العلامة الجليل الأستاذ (شارل ريشيه) المدرس بجامعة الطب الباريزية، والعضو بمجمع العلماء الفرنسي، من مقدمةٍ كتبها لكتاب: "الظواهر النفسية" للدكتور (ماكسويل) قال:

"لماذا لا نُصَرِّحُ بصوتٍ جَهْوَرِيٍّ بأن كل هذا العلم الذي نَفْخَرُ به إلى هذا الحد ليس في حقيقته إلا إدراكًا لظواهر الأشياء. وأما حقائقها فتفلت منا ولا تقع تحت مداركنا. والطبيعة الصحيحة للنواميس التي تقود المادة الحية والجامدة تتعالى عن أن تُلِمَّ بها عقولنا. مثال ذلك: أننا إذا ألقينا حجرًا في الهواء نراه يسقط إلى الأرض. فلماذا سقط؟ يجيبنا (نيوتن): سقط بجذب الأرض إياه جذبًا مناسبًا لكتلته وللمسافة التي سقط منها. ولكن ما هو هذا الناموس إن لم يكن مجرد تحصيل حاصل، وإلا فهل فهم أحد تلك الذبذبة الجاذبة التي تجعل الحجر يسقط على

الأرض؟ إن ظاهرة سقوط حجر على الأرض من الشيوع بحيث لا تدهشنا، ولكن الواقع أنه لا يوجد عقل إنساني يفهم ذلك. إن هذه الظاهرة عادية وعامة ومقبولة، ولكنها غير مفهومة لكل ظواهر الطبيعة بغير استثناء (تَأَمَّلْ).

نرى البيضة تُلَقَّحُ فتصبح جنينًا. ونرانا نصف أدوار هذه الظاهرة ونحن بين مخطئين ومصيبين، ولكن هل فهمنا على الرغم من وصفنا الدقيق لها سر ذلك التحوّل الذي يحدث في البروتوبلاسما الخلوية فيقلبها إلى كائن حي عظيم؟ وبأي معجزة تحدث تلك التجزؤات؟ ولماذا تتجمع تلك التحببات هنالك؟ ولماذا تتهادم هنالك لتعيد تكونها في مكان آخر؟

إننا نعيش في وسط ظواهر تتوالى حولنا ولا نفهم سر واحدة منها فهمًا يليق بدرجتها، حتى إن أكثرها سذاجة لا يزال سرًّا من الأسرار المحجوبة كل الاحتجاب. فما معنى اتحاد الأيدروجين بالأوكسيجين؟ ومن الذي استطاع أن يفهم ولو مرة واحدة معنى هذا الاتحاد، وهو يفضي إلى إبطال خواص الجسميْن المتحديْن وإيجاد جسم ثالث مخالف للأوليْن كل المخالفة؟ إن العلماء لم يتفقوا للآن حتى على طبيعة الجوهر الفرد الذي يوصف بأنه غير قابل للوزن، وهو مع ذلك يصير قابلاً له متى اجتمع عدد كبير منه.

فالأوْلَى بالعالم الحق أن يكون متواضعًا وجريئًا في آن واحد، متواضعًا لأن علومنا ضئيلة، وجريئًا لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه".

وقال العلامة الكبير (وليم كروكس) من أعضاء المجمع العلمي الملكي الإنجليزي، من خطبة له وقد أسندت إليه رئاسة هذا المجمع كما ورد في صفحة ٨ من مجموع خطبه:

"من بين جميع الصفات التي عاونَتْني في مباحثي النفسية وذلَّلَتْ طرق اكتشافاتي الطبيعية – وكانت تلك الاكتشافات أحيانًا غير منتظَرَة – قلتُ: من بين تلك

الصفات عندي اعتقادي الراسخ بجهلي. وأكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلاً أو آجلاً إلى إهمالهم الكلي لجانبٍ عظيم من رأس مالهم العلمي المزعوم، لأنهم يرون أن رأس مالهم هذا وَهْمِيٌّ محض".

وقال الأستاذ الجليل والفيلسوف الطائر الصيت (هربرت سبنسر) في كتابه: "الأصول الأولية" – صفحة ٢٤٧..

قال بعد أن سرد الأصول التي يحاول بها فهم الوجود:

"أي وظيفة تؤديها هذه الأصول في تكوين هذا الفهم؟ هل يستطيع واحد منها أن يعطينا وحده فكرة عن هذا الوجود، أعني عن مجموع ظواهر الموجود الذي لا يُسْتَطاعُ إدراكه؟وإذا اعتبرناها مجتمعة فهل تستطيع أن تعطينا فكرة تساوي جلالة هذا الوجود؟ وإذا رُتِّبَتْ وجُعِلَتْ مذهبًا فهل تستطيع أن تكون لنا هذه الفكرة المرجوة؟. ليس لنا على كل هذه المسائل إلا جواب واحد وهو: لا".

قلنا: إن المذهب المادي يستمد وجوده من الفلسفة الطبيعية. فهل سَلِمَتْ هي الأخرى من النقد؟ وهل لا يزال ينخدع بها ممثلوها في أعلم بقاع الأرض؟

ليس لنا في الجواب على هذا السؤال إلا استشهاد أحد كبار ممثليها، وهو العلامة (أندريه كريسون) مدرس الفلسفة في جامعة ليون في كتابه: "قواعد الفلسفة الطبيعية"، فقد قال في صفحة ١٧٠ منه:

"العلم لا يعطينا على الوجود في جملته إلا معارف مُبْهَمَةً للغاية. فإننا لا نعلم العدد الحقيقي للنجوم ولا للكواكب التي تحيط بالشموس البعيدة. فإبداء فرض – والحالة هذه على تركيب مجموع الكون – لا يمكن أن يكون إلا تحكّمًا. فالفلاسفة الطبيعيون المتحفظون يرفضون أن يبنوا من النظريات ما يمكن أن يسمى بالقصة الخيالية للسماء، فهم لذلك يفضلون القيام على أرض ثابتة أقرب إلى روح العلم"..

إلى أن قال:

"ما الفلسفة الطبيعية اليوم في الواقع إن لم تكن إيمانًا بالغيب فوق متناول العلم؟

هل يقتصر الطبيعي على قول ما يعرفه؟ وهل يمتنع عن الحكم على الأشياء التي يجهلها؟ لا، فإن مذهبه يكبر ويمتد لأنه في كل خطوة من خطواته يُحَمِّلُ العلم ما ليس عنده، فتراه يؤكد لك تصريحًا أو تلميحًا بأنه سيحل مسائل لم يَحُلّها العلم، وأنه سيَبُتُّ فيها من ناحية معينة. أحقق الكيميائيون التركيب الحيوي وأثبتوا إمكان التولّد الذاتي؟ أَفَسَّرَ أحدٌ منهم أصل التمثيل الوجداني؟ أأصبحت أصول فلسفة النشوء والارتقاء تامة، وتَنَزَّهَتْ عن كل إعْضال؟ أقامت نظرية المادة والقوة على حالة نهائية؟ أأتفق العلماء على جميع المسائل التي يبحثونها؟ أصار مما لا جدال فيه أن جميع ما في الوجود خاضع لنظام محدد لا يتغير؟ ألا يوجد عالمُ إطلاقٍ تتخلف فيه النواميس في ناحية أخرى؟

يستطيع العالم المدقق أن يجيب عن هذه الأسئلة بأنه ربما كانت له على هذه المسائل عقائد مؤسَّسة على المُرَجِّحات، ولكنه لا يستطيع أن يَبُتَّ فيها بالقول الفصل الذي يتطلبه العلم. ومع ذلك فالفيلسوف الطبيعي يتنكب هذا التحفظ ويبني مذاهب وهو هادئ البال، فِعْلَ مَن يعتقد أن الاستكشافات المقبلة لن تكذبه"..

إلى أن قال:

"فالذي يَغْتَرُّ بنتائج الفلسفة الطبيعية لا يجوز له أن ينسى أن هذه النتائج لم تثبت ثبوتًا مطلقًا،ولا يمكن أن تصل إلى هذه الدرجة أبدًا. فهي تَفُوقُ جهد العلم العصري بما لا يقدر، ولا يمكن أن تُعْلِنَ صحتها دون التسليم بهذا الغرض الخطير وهو: أن الشيء الذي لا يستطيع عقلنا أن يشك فيه هو مظهر الحقيقة الواقعة. فَلْنَقُلْ بإيجاز: إن الفلسفة الطبيعية مَلأَى بعقائد غير مثبَتة ولا تقبل الإثبات" انتهى.

نقول: فماذا بقي للمذهب المادي من مصدر علمي يستمد منه وجوده بعد أن أعلنت الفلسفة الطبيعية نفسها أنها غير قائمة على أساس يقيني؟ وليت الأمر قد وقف بها عند هذا الحد، فإن كبار الماديين المعاصرين قد صرّحوا على رءوس

الأشهاد بأن مذهبهم قد تَصَدَّعَ إلى حد أنه لابد له من إدخال عنصرٍ روحانيٍّ في بنائه ليستطيع أن يقوم كمذهب يأخذ على عاتقه تفسير قيام الكون بنفسه، ومتى سمح بقبول هذا العنصر الروحاني فيه استحال إلى فلسفةٍ رُوحانية، وأصبح ضربةً قاضيةً على الفكرة الإلحادية التي انْتُدِبَ المذهب المادي لنشرها بين الناس.

قال الفيلسوف (جيو) في كتابه: "عدم التديّن في المستقبل" في طبعته السادسة – وهو كما ترى من أَلَدِّ أعداء الأديان:

"إن الافتراض الذي مؤداه أن الجوهر الفرد لا يقبل الانقسام ولا التَّجَزُّؤَ يعتبر من الناحية الفلسفية من الآراء الطِّفْلِيَّة. فقد أثبت (طومسون) و(هلمولتز) أن الجواهر الفردة زوبعات متشابهة التركيب مكونة من الأبخرة (كبخار كلوريدرات الأمونياك مثلاً)، فقالا: إن كل حلقة زوبعية منها تتألف من جزيئات واحدة ولا يمكن فصل إحداها عن سائرها. فلكلٍّ - والحالة هذه – شخصية ثابتة.

إذًا، وَسِعَ المذهب المادي، ووَجَبَ عليه أولاً نسبة الحياة إلى العنصر العام بدلاً من أن يفترضه مادة عمياء. قال الفيلسوف (سبنسر): "كل جيل من الطبيعيين يكتشف في المادة المسماة "عمياء" قُوَى ما كان يحلم بوجودها أَعْلَمُ علماء الطبيعة قبل ذلك بسنين معدودة". فإننا لما رأينا أجسامًا جامدة تحس على الرغم من جمودها الظاهر بتأثير قُوَى لا يُحْصَى عددها، ولما أثبتت لنا آلة التحليل الطيفي (السبكترسكوب) بأن الذرات الأرضية تتحرك بالاتفاق مع الذرات الموجودة في الكواكب، ولما اضْطُرِرْنا إلى أن نستنتج من ذلك أن ذبذباتٍ لا يُحصَى لها عدد تخترق الفضاء في كل وجهة وتحركه – لما رأينا ذلك كله وَجَبَ علينا أن ندرك كما يقول سبنسر: (أن الوجود ليس بمؤلَّف من مادة ميتة، ولكنه وجود حي في كل ناحية من نواحيه.. حَيٌّ بأَعَمِّ معاني هذه الكلمة إن لم يكن بأَخَصِّ معانيها)...

الإصلاح الثاني الذي يحتاج إليه المذهب المادي – لكي يفي بحاجة البحث عن العِلَلِ الأوّلية – هو أن يفترض أن للمادة مع الحياة جرثومة رُوحانية. ولما كانت هذه

المادة الأوّلية هي عبارة عن قوة صالحة للحياة وللفكر معًا، فليس هذا ما يُفْهَمُ عقليًّا بل ولا علميًّا من معنى المادة، فضلاً عما يُفْهَمُ من معنى الأيدروجين (الذي يظن البعض أنه المادة الأوّلية). فالمادي البحت الذي يلمس بيديه كرة الدنيا معتمِدًا على الحاسة الغليظة – وهي حاسة اللمس – يصيح قائلاً: الكل مادة. ولكن المادة نفسها تستحيل في نظره إلى قوة. والقوة ليست إلا صورة أوّلية من صور الحياة. وعلى هذا، يستحيل المذهب المادي إلى مذهب روحاني. وتجده مضطرًّا أمام الكرة الأرضية الدائرة لأن يقول إنها حية، وإذ ذاك يتدخل شخص ثالث يضرب هذه الكرة برجله كما فعل "غاليليه" ويقول: نعم هي قوة، هي حركة، هي حياة. نقول: ومع ذلك، فهي أيضًا شيء آخر؛ لأنها تفكر فِيَّ وتدرك ذاتها بي"..

ثم قال:

"إذا كان المذهب المادي الذي يدّعي أنه علمي محض لا يقبل أن الطبيعة تعطي بقدر ما يدرك العقل، وإذا أنكر وجود الفكر والطبيعة معًا، كان بذلك مُنْكِرًا انطباق الطبيعة على أحكام العقل، وهو الأصل الذي تعتمد عليه كل فلسفة تدّعي أنها علمية محضة"..

ثم قال:

"إننا عِوَضًا عن أن نحاول إدماج المادة في العقل، والعقل في المادة، يجب أن نعتبر الاثنيْن معًا في هذا التركيب، وهو الحياة.. وهذا التركيب اضْطُرَّ العلم نفسه في تَنَزُّهِهِ عن الغرض – سواء أكان أدبيًّا أم دينيًّا – للاعتراف به. فالعلم يوسّع كل يوم دائرة الحياة حتى صار لا يوجد خط انفصال ثابت بين العالم العضوي والعالم غير العضوي" انتهى.

لا مُشاحة بعد هذا في أن العلم نفسه قد أتى على المذهب المادي من أساسه الذي يقوم عليه، وإذا أضفت إلى هذا فتوحات علمية أخرى وُفِّقَ إليها العلم نفسه في مجال المباحث النفسية، أدركتَ أن دولة ذلك المذهب قد دالت، وأن عهدًا جديدًا قد

بدأ يظهر، تتمثل فيه حاجة العقل وحاجة الروح على أسلوب علمي محض، فيزول النزاع القديم بينهما زوالاً أبديًا، ويزول بزواله مذهب سمم العقول والقلوب آمادًا طويلة، وكاد يدفع بالناس إلى إباحةٍ حيوانيةٍ لا يعرف غير الله ماذا كانت تجنيه عليهم.

وإن اليوم الذي يعلن فيه العلم أن الأصل الروحاني ضروري لبناء مذهب يحل مُعْضِلات الكون، لهو أَجَلُّ يوم في تاريخ العقل البشري، وأول عهد الإنسانية بمدنية فاضلة تصل بها إلى ما لا يتخيله التصور من الجلال والكمال.[1]

---

(١) مجلة الهلال – الجزء الأول، نوفمبر سنة ١٩٣٣م.

الصيام عند الأمم القديمة:

المتتبع لتاريخ الأمم من الناحية الدينية، يجد أن تلك الأمم قاطبة اعتبرت الصيام ركنًا من أركان عباداتها. فنصّت شريعة (مانو) في الهند على ضرورته، عادّةً إياه من خير الأعمال العبادية، وقد عمل البراهمة بهذه الشريعة من أقدم عهودهم.

والمعروف أن البراهمة من أشد الأمم مراعاة للصيام، حتى إنهم لا يعفون منه الشيوخ ولا المرضى.

والطائفة المعروفة عندهم باليُوغِيِّين – وهم المنقطعون للعبادة – يصومون من عشرة أيام إلى خمسة عشر يومًا لا يذوقون طعامًا غير صُبابات من الماء.

أما بُوذِيُّو التِّبتِ فلهم نوعان من الصيام، أحدهما: مدته أربع وعشرون ساعة لا يذوقون فيها شيئًا حتى ولا يجوز لهم ابتلاع ريقهم، وقد يمد بعضهم هذا الصيام إلى ثلاثة أيام لا يفطر في كل يوم إلا على قدح من الشاي.

والنوع الثاني: مدته أربع وعشرون ساعة كالنوع الأول، غير أن الصائم فيه له أن يفطر على ما يشتهي من الأطعمة دون أن يكون مقيدًا بالإفطار بالشاي.

وعرف الصينيون الصيام من أقدم عصورهم، فكانوا يقومون به تعبدًا، ويُوجِبُونه على أنفسهم في أوقات الفتن.

وكان المصريون القدماء يصومون في جميع أعيادهم الدينية. وكان قساوستهم يصومون من سبعة أيام إلى ستة أسابيع.

وكان الألوزينيون والتسموفوريون من قدماء اليونانيين يكلفون نساءهم بالصيام فيجلسن على الأرض في حالة اكتئاب وكَمَدٍ قيامًا بآدابه عندهم.

وكان اللاسيديمونيون من القبائل اليونانية القديمة يصومون أيامًا متوالية قبل شروعهم في حرب.

وكان قِسِّيسُو جزيرة كريد في ذلك العهد لا يأكلون طوال حياتهم لحمًا ولا سمكًا ولا طعامًا مطبوخًا.

أما الرومانيون فقد عرف عنهم أنهم كانوا يصومون، وكانت جميع شعوب إيطاليا يصومون كذلك، حتى لقد روى أن التارانتيين لما حاصرهم الرومانيون صاموا عشرة أيام استنزالاً للنصر.

أما لدى اليهود، فقد ورد في كتابهم إشادة بذلك الصيام، وكان قدماؤهم لا يكتفون منه بمجرد الامتناع عن الطعام من المساء إلى المساء، ولكنهم كانوا يمضون الصيام مضطجعين على الحصى والتراب، ومستشعرين حزنًا عميقًا على ما أصابهم من الفتن، حتى إنهم ما كانوا يعقدون في أثنائه زواجًا.

واليهود المعاصرون، لا يصومون في السنة أكثر من ستة أيام، أما أتقياؤهم فيصومون شهرًا كاملاً، ويفطرون على أربع وعشرين ساعة مرة واحدة عند ظهور النجوم.

ويصوم اليهود اليوم التاسع من شهر آب في كل سنة، ذكرى لخراب هيكليْ أورشليم، وكانوا يستعدون للصيام قبل حلوله، فكانوا يقتصرون قبله على تناول لون واحد. ويزيد أتقياؤهم على هذا أكلهم الخبز مَأْدُومًا بالتراب، ونومهم ليلتهم على الأحجار، وهم في حالة عويل ونُواح على ما أصابهم من تلك الكارثة العظيمة.

والنصارى يصومون في كل سنة أربعين يومًا مقتدين بعيسى عليه السلام. وكان

الأصل في صيامهم الامتناع عن الأكل بتاتًا، والإفطار في كل أربع وعشرين ساعة مرة، ثم قَصَرُوهُ على الامتناع عن أكل كل ذي روح وما ينتج منه من اللبن والزبد والجبن.

ولدى النصارى أيضًا صيام الفصول الأربعة، وهو صيام ثلاثة أيام في كل منها. ولديهم أيضًا صيام الأربعاء والجمعة تطوعًا لا فرضًا.

الصيام في الإسلام:

فرض الله على المسلمين أن يصوموا شهر رمضان، فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**(١).

وللصيام عند المسلمين آداب لابد من مراعاتها، منها: غَضُّ البصر عن كل مَذْمُومٍ ومكروه وما يثير الشهوة، وحفظ اللسان من الهَذَيان والكذب والغيبة والنميمة والخصومة والمِراء، وكَفُّ السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه، وكف بقية الجوارح عن الآثام والشهوات، وأن لا يستكثر من الطعام وقت الإفطار والسحور، فيكتفي بما يحفظ عليه صحته ولا يوقعه في التخمة، أو سوء الهضم.

والغرض من هذا أن يتأهل المسلم للاستفادة من مزايا الصيام الروحية والجسدية، فإن الله لم يفرض الصوم على الناس تعذيبًا لهم أو انتقامًا منهم، ولكنه

---

(١) سورة البقرة، الآيات ١٨٣:١٨٥.

فرضه لمصلحة نفوسهم وجسومهم، كما قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

الصوم من أفعل العوامل للترقي الروحاني:

الإنسان جسد وروح، أَلَّف الخالق بينهما على اختلاف طبيعتيهما إلى حين. فأكثر الناس تتسلط المطالب الجثمانية عليهم فتَزُجُّ بهم في حَمَأَةِ الشهوات؛ فيصبحون خطرًا على أنفسهم وذويهم ومجتمعاتهم.

وقد شُرِعَ الإسلام ليبلِّغ الإنسان في حدود الاعتدال، ودائرة الإمكان درجة عالية في الرفيق الأعلى، فكلفه بآداب وأخلاق، مراعيًا فيها ضعفه، وملاحظًا قابليته، وأوجب عليه عبادات تتكافل كلها في إيتائه بقوة معنوية يتغلب بها على العوامل التي تدفعه لخلع العِذار[2] والـمُضِيِّ خلف الأهواء. فَشَرَعَ له الصلاة ليستمد منها الخشية من الله ودوام مراعاة أوامره في كل معاملاته لغيره، وشرع الصوم ليؤهله للعُرُوجِ في معارج الكمال والتجرّد بقدر الإمكان من عالم المادة.

نعم، فإن الإنسان في حالة الاعتدال تتعادل فيه قوتاه: الروحية والجسدية، فإذا غلَّب على نفسه صفات البهائم، بطل تعادل قُوَّتَيْهِ واقترب من العالم الحيواني.

أما إذا امتنع الإنسان عن الطعام والشراب، وراعى ما ذكرناه من الآداب، فقد اتصف بما عليه الملائكة من التجرد عن سلطان المادة فالتحق بعالمهم، وكان وهو في تلك الحالة آهَلُ ما يكون للتجليات الإلهية، والإشراقات الروحانية، فيكتسب بذلك قدرة على مغالبة الشهوات، وقوة على مكافحة الأهواء، ويزداد من الله قربًا ومن عوامل الشر بعدًا.

أما من الناحية العبادية، فإن الصيام الإسلامي بالمكان الأرفع منها، حتى شرفه الله بنسبته إلى نفسه، فقال النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه من حديث قدسي: "الصوم لي

---

(١) سورة المائدة، من الآية ٦.

(٢) العذار: أي الحياء.

وأنا أجزي به". ذلك لأن في كَبْحَ النفس عن أحب شهواتها إليها، إيذانًا من الصائم بكمال التسليم لأوامر مبدعه، والتسليم غاية غايات العبودية، بل هو معنى الإسلام وحقيقته. والصوم مع أنه قُرْبَةٌ من أكبر القُرُباتِ في ذاته، يَعِدُ النفس البشرية ويؤهلها لجميع الخصال الكريمة التي أمر الله عباده بالأخذ بها: كالعطف على المساكين، والحَدْبِ على المحرومين، والرحمة بالضعفاء والمصابين، وإغاثة الملهوفين، والتنفيس عن المَكْرُوبِين، والشعور بحاجات المحتاجين. وهذه الخصال مجتمعة تنبه القلوب لضرورة التكافل بين الأقوياء والضعفاء، وبين الأثرياء والفقراء. وفي أعقاب هذه الصفات تَضَامُّ الآحاد وتضافرهم على القيام بمهام الاجتماع كله، والاضطلاع بأعبائه. وثمرة ذلك توحد الوجهة، واجتماع الكلمة، وقيام دولة الحق في الأرض.

وقد عرف علماء النفس حديثًا أن الصيام يقوي الإرادة الإنسانية، ويمد النفس بوسائل معنوية تتغلب بها على المطالب الجسدانية، فيَصْرِفُ وجوده المادي على ما يقتضيه عقله، لا على ما تطبعه فيه غرائزه البهيمية.

وعلى هذا الأساس العلمي، وضع الأستاذ الألماني (جبهاردت) كتابًا في تقوية الإرادة، جعل أساسه الصوم، وذهب فيه إلى أن الصوم هو الوسيلة الفعالة لتحقيق سلطان الروح على الجسد، فيعيش الإنسان مالكًا زمام نفسه، لا أسير ميوله المادية، تقوده إلى الهلكات وهو يعلم أنه مَقُودٌ إليها لا محالة.

فحكمة الصيام لا تقدر من هذه الناحية، وطريقته في الإسلام أحسن الطرق، وأكفلها لتحقيق جميع الأغراض المَرْجُوَّةِ منه، كما ستراه هنا.

أثر الصوم في صحة الأجسام:

قد ثبت علميًّا أن مزايا الصوم لا تقتصر على الناحية الروحانية من الإنسان، ولكنها تشمل الناحية المادية منه أيضًا.

وتبين للمشتغلين بعلاج الأمراض منذ وُجِدَ علم الطب، أن للأغذية دخلاً

عظيمًا في إصابة الأجسام بالأَدْواءِ المختلفة، لا من ناحية الإفراط فيها فحسب، ولكن من ناحية التسمم بالعناصر الداخلة في تركيبها أيضًا.

أما تأثير الإفراط فيها فمعلوم، ومن آثاره: التخمة، وسوء الهضم، وأمراض المعدة والسِّمَن، والترهل، وخمود الفطنة، والبول السكري، وتشحم القلب... إلخ، حتى قال (أبوقراط) منذ نحو خمسة وعشرين قرنًا: "أكل الناسُ أكل السباع فمرضوا، فغَذَوْناهُم بأغذية الطيور فصَحُّوا".

وقد اتضح للناس كافَّةً أن الحِمْيَةَ رأس الدواء، فجرى عليها الأطباء منذ أقدم عهود التاريخ. وقد جاء فى ذلك: "المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء".

وأما تأثير الأغذية من ناحية التسمم بها فأمره مُقَرَّرٌ معروف، وذلك أن الإنسان باستكثاره من ألوان الطعام يُدْخِلُ إلى معدته ضُرُوبًا شتى من المواد المتعاكسة الطبيعة تتركب في القناة الهضمية تَرَكُّبًا جديدًا، فتُوَلِّدُ مُتَحَصَّلاتٍ ضارة بالبنية. فقد شوهد أن زيادة تناول المواد الزلالية يُفْضِي إلى استحالة ما يزيد منها عن حاجة الجسم إلى بولينا، وهذه بائتلافها بقليل من الأوكسيجين تصير حمضًا بوليًّا، وهو سم شديد الفعل يصيب البدن بأمراض ثقيلة، ولا يمكن التخلص منه إلا بحمية طويلة وأدوية كثيرة. هذا مصداق لقول النبي ﷺ: "ما ملأ ابن آدم وعاءً شَرًّا من بطنه". وقوله: "حَسْبُ الإنسان من الطعام لُقَيْماتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ".

فاعتمادًا على هذا الأساس العلمي يعتمد الأطباء في معالجتهم للأمراض على الحِمْيَةِ، فقد شُوهِدَ أنه بالتقليل من الطعام، وتناول الخفيف من الأغذية، تَفْرُغُ البنية للتخلص من السموم المُنْبَثَّةِ فيها.

وقد ثبت أن اللجأ إلى الصوم ينجي الإنسان من أمراض قَتَّالَة، أهمها البول السكري، فقد روت المجلة الطبية المصرية أنه عولج به ثلاثمائة شخص دفعة واحدة فشفوا جميعًا. وفي الأثر: "جوعوا تَصِحُّوا".

الصوم الإسلامي خير أنواع الصيام:

الصوم في الإسلام عمل عبادي يُقْصَدُ به مصلحة الإنسان جسديًّا وروحيًّا، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ . وقد علمتَ مدى تأثير الصوم في الجسم والنفس معًا، وقد دل تاريخ المسلمين الأَوَّلين على مدى ما بلغوه في سنين معدودة من الصحة الجسدية والسُّمُوِّ الروحاني، وهو ما عجزت التربية الحديثة عن تحقيقه منذ وجودها إلى اليوم.

وهنا نريد أن نذلل على أن الصيام في الإسلام هو خير ضروبه على الإطلاق.. فقد وُضِعَ على أسلوب حكيم بحيث يُنْتِجُ جميع ما يُنْتَظَرُ منه من فائدة جسدية وروحية، ولا يضر بالبِنْيَةِ كما قد تضرها ضروبه الأخرى.

فالذين يصومون أربعًا وعشرين ساعة متوالية، ثم يفطرون على الشاي أو الخبز المغموس في الماء أو المُلْتَاثِ بالتراب، هؤلاء يضرون أنفسهم ضررًا كثيرًا، فقد أثبت الأستاذان الفيزيولوجيان: (هنريو) و(ريشيه) أن الجسم يفقد من وزنه بالحرمان من التغذي في أربع وعشرين ساعة مقدارًا محسوسًا، ويقل طرد حمض الكربون من الدم، وتبطئ تهوية الرئتين، فينزل مقدار ما يدخل من الهواء فيهما من ٥٠٠ إلى ٤٠٠ لتر في تلك المدة.

فإذا كان الذي يريد الاقتصار على أكلة واحدة يعمد إلى تناول كل ما يحتاج إليه دَفعة واحدة، اِضْطُرَّ إلى مَلْءِ معدته مَلْئًا لا يتفق وسهولة الهضم، فلا يكتسب من وراء صيامه خيرًا.

والذين يجعلون صيامهم منحصرًا في الانقطاع عن أكل اللحم وما يُشْتَقُّ منه، فإن صيامهم لا يعتبر صيامًا، ولا ينتج المزايا الجسدية والروحية المنتظَرَة منه. فإنهم يستعيضون بالبقول والزيوت عن اللحم والسمن والجبن، وهي أغذى من تلك،

ويمكن الاكتفاء بها مدى الحياة، فإن البوذيين لا يأكلون اللحوم بجميع أنواعها وهم عائشون كسائر الناس.

ولكن الصيام في الإسلام يحقق مزاياه من كل وجه، فهو يأمر الإنسان أن يمتنع عن الطعام والشراب من الفجر إلى غروب الشمس، وقد سَنَّ له أن يعجل الإفطار وأن يتلطف فيه، وأن يؤخر السحور ما استطاع إلى قبيل الفجر، لقول النبي ﷺ: "دامت أمتي بخير ما أَخَّرَت السحور وعَجَّلَت الإفطار".

وكان صيام المسلمين الأَوَّلين كما رسمه النبي ﷺ أن يمسكوا عن الطعام والشراب والاتصال الجنسي إلى غروب الشمس، ثم يفطرون على قليل من الماء أو التمر أو غيره، ثم يُصَلُّونَ المغرب، ثم يمضون هَزِيعًا من الليل في الطاعة، ثم ينامون إلى قبيل الفجر فيتناولون طعام السحور وينتظرون الفجر فيصلّونه، ثم ينصرفون إلى أعمالهم.

فهذا النظام الحكيم يسمح للبنية أن تَفْرُغَ للتخلص من سمومها بإراحة المعدة أكثر من عشر ساعات متوالية، ولا يَدَعُ عوامل التحليل تتسلط على الجسم، فإذا توالى هذا التطهير الجثماني ثلاثين يومًا، فإن البنية تَخْلُصُ من جميع سمومها، فيشعر المؤدي لهذه الفريضة على هذا النحو بصحة كاملة، وغِبْطَةٍ تامة، وبارتقاء محسوس في نفسيته، وقوة في إرادته.

نعم: إن من الناس مَن يتوسعون في الطعام في شهر رمضان، ويضيّعون أوقاتهم في السهر الضار بصحتهم، ويفرطون في السحور ثم ينامون قبل تمام الهضم، فهؤلاء لا يتبعون النظام الذي وضعه الإسلام للصوم، وعليهم تَبِعَةُ أعمالهم. وفيهم يقول النبي ﷺ: "كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش".

فنرجو الله أن يوفقنا لتَفَهُّمِ أسرار هذا الدين، وأن يلهمنا العمل به، فإن فيه خَيْرَيِ الدنيا والآخرة.[1]

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الخامس ـ سنة ١٣٥٣هـ، ص٦٢٢.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1]..

صدق الله العظيم، لقد مضى على نزول هذه الآية نحو ثلاثةَ عشرَ قرنًا ونصف قرن ولا تزال تتجاوب بأصدائها أقطار الأرض إلى اليوم. وقد امتد مداها بتوالي الأحقاب حتى اجتازت السُّهُوبَ والأُقْيَانُوسَاتِ، وأصبحت عالمية عامة، ليس لها في العالم شبيه كما ترى.

أثر واضح شديد الوقع في النفس لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[2]..

يَعِد قَيُّومُ الوجود الآخذين بهذا الدين بأن الناس سيرون آياته على توالي الأيام في آفاق العالم، وفي أنفسهم حتى يتبينوا أنه الدين الحق. وَعْدٌ غير مَكْذُوب، ظهرت تباشيره في كل مكان، حتى اضطر مثل الكاتب الفيلسوف الأشهر (برنارد شو) أن يقول: إن المستقبل كله للإسلام، وإن مصير العالم إليه على أكبر تقدير بعد قرنين.

لا تُجِيلُ بصرك في أي بقعة من بقاع الأرض حتى ترى الدعوة إليه تَسُودُ كل دعوة، وهل بعد أن يجد هذا الدين من الفلاسفة ورجال العلم مُعَضِّدًا له شك في أنه سيكون دين العالم كله بعد قرنين أو بعد عدة قرون؟

دين يدعو إلى الأخذ بكل حَسَنٍ مما هو معروف، وما سيعرف إلى آخر الزمان،

(١) سورة الحج، الآية ٢٧.

(٢) سورة فصلت، من الآية ٥٣.

وإلى التعويل على ما عُرف أنه حق، وما يثبت أنه كذلك في خلال العصور،وإلى الخضوع لسلطان العقل والميل معه حيث مال، ولو بتأويل النصوص التي يُوهِمُ ظاهرها غير ما يُقِرُّهُ هذا العقل المستنير بالعلم والحكمة. دين كهذا لا يعقل أن يقف حيث هو أو يَضْمَحِلّ، ولا يُتَصَوَّرُ أن لا يكون دين العالم كله متى زالت الجهالة، وامَّحَى أثر التقليد، وبَطَلَ سلطان الوراثات.

ألا ترى أن جميع الأديان قد تراجعت إلى الوراء إلا الإسلام؟ وهي لم تتراجع لأنها من توليدات الأوهام، ولكن لأنها قد حُمِّلت آصارًا من آراء قادتها، وتحجرت حتى لم تَعُدْ سائِغَةً في عقول الآخذين بها، وخَلَّفَها الإسلام، لا لأنه شيء جديد، ولكن لأنه هو هي خالصةً لا تشوبها شائبة من هوى، كما نزل بها الروح الأمين، على قلوب الأنبياء والمرسلين: **﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ؟﴾**[1].

هذه كلمة نَسُوقُها بين يَدَي ما سنذكره عن الحج، وقد رأينا أفواجَهم تَسْتَقِلُّ الفُلْكَ مُيَمِّمَةً البلاد المقدسة، مُلَبِّينَ داعي الله إلى بيته المحرم.

مَظهرٌ يلفت النظر، ويستدعي التفكير، لا لأنه طريف، فالسفر إلى الحج مألوف في جميع بلاد المسلمين، ولكن لأن الحجيج في هذه السنين الأخيرة يكثر بينهم من كان لا يخطر لهم على بالٍ من المترَفين والسُّرَاة، وقد كان في الفترة التي تقدمت هذا العهد يكاد يكون مقصورًا على طبقة معينة من الأمة.

ظاهرة دينية تستدعي التأمل، ولقد تأملنا فيها فرأيناها ترجع إلى ثلاثة أسباب: أولها: الأمن على النفس، وثانيها: تحسن وسائل الانتقال، وثالثها: يقظة العاطفة الدينية في القلوب.

فأما الأمن على النفس فيرجع الفضل فيه للحكومة الحجازية، فإن جلالة الملك (ابن السعود) لم يَأْلُ جهدًا في الأخذ على أيدي العابثين بحياة الحَجِيج وأموالهم، حتى طُهِّرَت الطرق من مَناسِرِهم، وخلت الصحارى من غوائلهم.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٦٨.

وأما تحسين وسائل النقل، فهو من مآثر رجال بنك مصر وعلى رأسهم المالي العظيم (محمد طلعت حرب باشا)، فإنه لا يَفْتَأُ يبذل في هذا السبيل جهدًا محمودًا، فمن سفن مستكملة وسائل الراحة، إلى أوتوموبيلات تنقل الناس لمكة وعرفة ومِنَى والمدينة، إلى دُورٍ ورِيَاشٍ يأوي إليها الحجاج، يؤتون فيها بما تعوّدوه من مأكل ومشرب وأماكن للنوم.

أما يقظة العاطفة الدينية فهي ذات التأثير الغالب في حَمْلِ عِلْيَةِ القوم ومتعلّميهم على أداء هذه الفريضة، وهي تستمد عواملها من البحوث القيمة التي كتبت في التدليل على صحة الدين، وعلى سلامة أصوله من الوَهَن، وعلى تَأْدِيَتِهِ لسعادتي الحياتَيْن معًا.

ولا يَحْسُنُ بنا في هذا الموطن أن نَغْمِطَ حق العلم، فإنه بفضل المستكشَفات التي هُدِيَ إليها العلماء في المادة، حتى انتهى الأمر إلى تحليلها إلى قوة، وفي النفس البشرية من الناحية التجريبية حتى ثبت علميًّا استقلال الروح عن الجسد وإمكان قيامها بدونه، مما أَفْضَى إلى القول بخلودها في عالم روحاني، وقد شُوهِدَتْ آثار هذا العالم بما لا يمكن التشكك فيه.. بفضل هذه المستكشَفات كلها قام الدليل العملي على صدق الأديان فيما أتت به من العقائد الغيبية. كل هذا كان له تأثير عظيم في إيقاظ العاطفة الدينية، وصَرْفِ الإنسان عن التعاليم الإلحادية، التي بذل أنصارها نحو ثلاثة قرون في بَثِّها في العقول، وحَمْلِها على مُنَابَذَةِ الأديان، والتَّفَصِّي من علائقها.

وبما أن ما حَصَّلَهُ العالم في هذا المجال يُعْتَبَرُ من العلوم اليقينية، فيُنْتظَر أن تزداد أصول الدين قوة على قوتها، وتجد من النفس ميلاً إلى تقوية الارتباط بها.

فعلى هذا النحو، زالت أكبر عَقَبَةٍ كانت قائمة باسم العلم أمام الأديان، بل أمام الإسلام، وأصبحت الطريق مفتوحة حِيَالَهُ ليصل بالناس إلى السموّ الروحاني والخُلُقي الذي خلقهم الله ليصلوا إليه، واعْتَبَرَ الحياة بدونه لهوًا ولعبًا، ليست من شأن الإنسانية في شيء.

يختلف الحج في الإسلام عن الحج في جميع الأديان، فإن الحج فيها كان الغرض منه التَّبَرُّكَ بقبول القِدِّيسِين، وما تركوه من الآثار والمباني، وأفضله عندها ما حَمَّلَ الإنسان نفسَه في سبيله المشاق والمهالك. وكان الكهنة والرَّهابِنَة يَفْتَنُّونَ لهم في تعيين ضروب المرهقات البدنية. فكان منهم من يُثْقِلُ كاهِلَه بالسلاسل والأغلال، ومنهم من يمشي على قدميه المسافات الشاسعة، ومنهم من يمشي داخل كيس يتعثر فيه في كل خطوة، ومنهم من كانوا يطوفون حول معابدهم زحفًا على بطونهم. ولكن الإسلام كره كل ذلك، فشرط أنْ لا يحج إلا مَن كان قادرًا على الحج، ونهى أن يُحَمِّل الإنسان نفسه ما يرهقها، حتى إن النبي ﷺ رأى هَرِمًا يمشي بين وَلَدَيْه، فسأل عن شأنه فقيل له: إنه نَذَرَ أن يحج ما شيًا، فكَرِه ذلك، وقال: إن الله غني عن تعذيب هذا نفسه. وأَمَرَ أن يُحْمَلَ على بعير. وكان هذا منه ﷺ عملاً بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾[(1)].

ذلك، لأن الإسلام قد رمى في كل ما شَرَعَ إلى إبلاغ الإنسان كماله الذي خُلِقَ له، ومُنح القُوَى الأدبية التي توصله إليه، وهذا الكمال كما قرره الإسلام لا يُنَالُ إلا بالعلم الصحيح، وتطهير العقل من الوساوس، والقلب من طَبَع الصفات البَهِيمِية. وهذا عَيْنُهُ ما تراه الفلسفة ويؤيده العلم الطبيعي. وقد جرى الإسلام في كل أوامره ونواهيه على هذه السُّنَّةِ قبل أن يكون للعالم في هذا الشأن علم قائم بنفسه.

نعم، إن الفلاسفة القدماء من اليونانيين قد كتبوا كتابات قَيِّمَةً في هذا الشأن، ولكنهم لم يصلوا في كثير من مقوّمات العقل والقلب إلى المدى الذي وصل إليه الإسلام. ونحن نضرب لذلك أمثلة:

اعتبرت الفلسفة اليونانية الجنس الإغريقي خير الأجناس البشرية، ولكن الإسلام لم يجعل الجنس مقياسًا للتَّفَاضُلِ بين الناس، فقد ساوى بين جميع الأجناس، وجعل معيار التفاضل التقوى. وهذا أصلٌ أَقَرَّهُ العلم في القرون

---

(١) سورة البقرة، من الآية ١٨٥.

الأخيرة، ولا يزال يوجد في الفلسفات الحديثة ما لا يُقِرُّهُ ذهابًا منها إلى أن الجنس الأبيض خير الأجناس كلها، وأَقْبَلُ من سائرها للكمال الأدبي، وهذا خطأ فاحش.

وحَسِبَتِ الفلسفة اليونانية أن للأَرِقّاء منزلة أمام العدالة أدنى من منزلة الأحرار، ولا يرى الإسلام ذلك، ويحسب جميع الناس سواءً أمام الشريعة، أما الرِّقُّ في نفسه فعَرَضٌ اقتضَتْه شئون لا دخل لها في أصل المساواة العامة، التي هي نصيب الكافة على السواء.

وعَدَّت الفلسفةُ اليونانية المهن المختلفة سببًا للتفاوت بين الناس في الحقوق الوطنية، فسَلَبَتِ العمال كلَّ هذه الحقوق، وجعلتها وَقْفًا على الأشراف وأهل اليسار، والإسلام عَدَّ الناس كلهم سواء في التمتع بهذه الحقوق، لا فرق بين عاملٍ ماهِنٍ، وسَرِيٍّ كبير، ولا بين فقير مُدْقِع، وثَرِيٍّ خطير.

فهذا وأمثاله يُعْتَبَرُ نقصًا عظيمًا في الفلسفة الأدبية، والأخذ بها لا يوصل الإنسان إلى السموّ الخالص من الشوائب، الجدير بالقلب الإنساني الذي يُعَكِّرُ صفاءه أن يكون فيه أثر من أمثال هذه الأخطاء الفاحشة في تقدير العدالة والمساواة والحقوق الطبيعية.

فلم يصل الناس إلى تذوق الديموقراطية الصحيحة إلا في هذا العهد، بعد أن رسم الإسلام دائرتها بنحو ألف ومائتي سنة.

فلا عجب بعد هذا أن يَشْرَعَ الإسلام الحج للآخذين به، وينص على أنه شُرِعَ لَمحْضِ مصلحتهم يقومون به قادرين عليه، أَصِحَّاءَ الجُسُومِ والعقول، بأَكْمَلِ الوسائل وأَوْفَقِها لراحتهم الجسدية والعقلية، ولو استطاعوا أن يقطعوا المسافة الشاسعة بين بلادهم والأماكن المقدسة في ساعة من زمان.. فإذا تَوَهَّمَ بعضُهم أن يَعْدِلَ عن هذه الوسيلة المريحة إلى ما هو أَشَق على نفسه منها، فإن الإسلام يكره منه ذلك ولا يعتبره مُوَصِّلاً إلى الكمال الذي ينشده، وقد دله على أن ذلك الكمال لا يَتَأَتّى إلا من طريقَيْه: العلمي والتطهيري، لا من تعذيب النفس وإرهاقها بالمَشَاقِّ

وتعريضها للأمراض والقَواطِع، حتى إن النبي ﷺ - جَرْيًا على هذه القاعدة - أَمَرَ من يَؤُمُّ الناس أن يخفف في صلاته، لأنه قد يكون فيمن يَأْتَمُّونَ به المريض وذو الحاجة.

فسُقْيا للرجال الذي يعملون على تسهيل الحج على المسلمين، فإنهم إنما يعملون لخدمة الإسلام من أَخَصِّ النواحي، وأَعْوَدِها بالخير على أهله![1].

---

(١) مجلة الأزهر - المجلد السابع - سنة ١٣٥٥هـ ص٧٢٤.

(١)

يرى المتأمل في الوجود أن الشئون العالمية تجري كلها مُتَّبِعَةً سُنَنًا ثابتة لا يعتريها أقل انحراف. فالشموس في السماء تحيط بها الكواكب تخترق مواكبها الفضاء بسرعة لا يدركها العقل؛ وفيها من الكائنات ما لا يدخل تحت حَصْر؛ وجميعها محكوم بنواميس طبيعية لا تتخلف عن عملها بأي مؤثر من المؤثرات. ويرى الرائي رَأْيَ العين أنها من النظام والإحكام والاستمرار بحيث يقف العقل حيالها دَهِشًا، ولا يرى بُدًّا من الاعتراف بأنها من وضع بارئ الكون الذي وَسِعَ كل شيء علمًا.

هذه النواميس قد أحس بوجودها الإنسان من أول عَهْدِهِ بالنظر والتفكير، واعتبر ما تُحْدِثُهُ أعمالاً صادرةً من خالق الوجود، وهي كذلك عند المحقِّقين، ولكن الطائفة التي حاولت أن تنكر وجوده جل وعز، من قدماء الفلاسفة ومُحْدَثيهم، اعتبروها نواميس طبيعية، وُجِدَتْ مع الكون من أزل الآزال، وهو وَهْمٌ خطير استنكره كبار المتأمِّلين.

لسنا هنا بصَدَدِ البحث في حقيقة النواميس، ولا في إثبات وجودها، فهي ماثلة أمام أعيننا تُدَبِّرُ الوجود، وتهيمن عليه، وتَحْفَظُهُ من الخَبْطِ والتخاذل؛ وإنما نحن بصَدَدِ إثبات وجود ناموس أدبي عام، إلى جانب النواميس المادية، يقود الأعمال الإنسانية ويَرُبُّها ويرقيها، ويَدْأَبُ على توجيهها إلى المثل الأعلى من الوجود الإنساني.

وُجِدَ الإنسان على هذه الأرض عاريًا وبغير سلاح، فكان هَمُّهُ الأول أن يَقِيَ

نفسه من غَوَائِلِ الوحوش الضَّارِيَة، والتقلبات الجوية المهلِكة، وأن يُحَصِّلَ ما يقيم أَوَدَهُ من ثمرات الأرض. هذه الأمور كانت شغله الشاغل أَمَدًا حتى هداه عقله إلى بناء الأكواخ، وعمل بعض ضروب السلاح من الأحجار. كل هذا كان تحت هداية مواهبه الذاتية، وتدبيره المحدود، وعلى طريقة التدريج خِلافًا للحيوانات، فقد خُلِقَت في أجسادها القوى والأسلحة التي تكفيها مُؤْنَةَ الإنشاء والتدبير.

لسنا بسبيل الكلام في هذا الموضوع، ولكن بصدد الرقي الأدبي الذي حَصَّلَهُ الإنسان في مدى بضعة ألوف من السنين التي عاشها على الأرض. فقد وُجِدَ على الأرض وليس لديه أثر من أدب أو مجاملة أو حياء أو سياسة أو نزوع إلى تَكَمُّلٍ في الأخلاق والتقاليد... إلخ، مما شغل العقل الإنساني واستوعب تفكيره آمادًا طويلة، حتى أصبح – بعد أن كان على نحو ما عليه إلى الآن متوحشو أستراليا وإفريقيا من العُرْيِ المطلق والحيوانية البحتة، والبهيمية الصرفة – مُتَجَمِّلاً بأدب راق، وتقاليد سامية، ومعاملة مبنية على التعاطف الأخوي، وتَرَفُّعٍ عن إتيان المنكَرات علانية، وتعالٍ عن ركوب الخَنَا جَهْرَةً. وقد وصل كثير من آحاده إلى درجة الإيثار، فيُجِيعُون أنفسهم ليُشبِعوا الجائع المحتاج، ويُعَرِّضُونَ أنفسهم للخطر ليدفعوا الأذى عن ضعيف لا جَرِيرَةَ له، بل ويلقون بأنفسهم للهلاك صيانةً لِعِرْضِهم أن يُدَنَّس.

هنا نتساءل: ما الذي أدى بالإنسان إلى هذه الدرجة من التَّصَوُّنِ والعَفاف والوَرَع، إن لم يكن يوجد ناموس طبيعي يُدْعَى بالناموس الأدبي، حاصل على جميع مميِّزات النواميس الطبيعية وتَبِعاتها؟

مما يدلك على أنه ناموس طبيعي، تأثيره العام على جميع النوع البشري في جميع قارات العالم. فالصفات الأدبية من الحِلم والوَداعة والكرم والإيثار والنجدة والقناعة والتَّرَفُّع والحياء والتَّصَوُّن وحسن المعاملة والاستقامة... إلخ، كلها صفات معتبَرة في جميع كتب الأخلاق عند جميع الأمم: شرقيها وغربيها شمالِيها

وجنوبيها أبيضها وأسودها، وليس بعد هذا دليل على أن هذه الآداب البشرية صادرة عن ناموس طبيعي عام، مثله كمثل جميع النواميس الطبيعية.

وإذا كان الأمر كما ذكرنا، فإن على مخالفة مقتضيات هذا الناموس الطبيعي العام، نتائج سيئة تقع على الهيئات التي تنحرف عنها.

إذا تقرر هذا كله، فإن ما نراه من حَيْدِ الناس عن الآداب الموروثة، وميلهم إلى التَّحَلُّلِ منها، يُفْضِي إلى حدوث فتن اجتماعية تنتاب الجماعات على صور شتى، وفي نواحٍ متعددة من مقوِّمات حياتها.

وإذا كان هذا كله حَقًّا لا مِرْيَةَ فيه، فلا يجوز لأمة من الأمم أن تترك هذه الناحية الخطيرة من وجودها الاجتماعي لذوي الميول الحيوانية، والنَّزَغات الشَّهْوَانِيَّة، فيَسِنُّوا للناس في أَلْبِسَتِهِمْ واجتماعاتهم وعاداتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض، سُنَنًا تُمْلِيها عليهم الإباحة المطلقة؛ فإن هذه الإباحة المطلقة لا تستند إلا على أصل واحد، وهو إشباع الشهوات البهيمية إلى أقصى حد، وفي أسلوب تَمْوِيهِيٍّ مفضوح، أو ذهابًا من مبادئ إلحادية وقعوا في فخها ولم يَفْطِنُوا لِـمَغَبَّتِها.

على أن المسألة ليست مسألة إيمان أو كفر، فهي مسألة اجتماعية بحتة. فإن الأمم التي تريد أن تبقى وأن تزداد قوةً وفُتُوَّةً، وأن تبلغ أقصى غايات المدنية، يجب أن تتجنب ما يَعْدُو على كيانها، وما يؤثر على سرعة تقدمها، وخاصة إذا كانت متخلفة عن غيرها في ميدان الحضارة والعلم.

فإذا ظلت تتخيل أن الناموس الأدبي استعارةٌ بيانيةٌ، لا حقيقة عالمية، وأنْ ليس وراء مخالفته من تَبِعَةٍ مادية، وألقت بنفسها في تيار التقليد لمن سبقها في الوجود، واعتبرت ما هي عليه من الأمور المنافية لهذا الناموس من لوازم المدنية، فإن هذه بتَسَكُّعِها في أهوائها، وتماديها في باطلها، إن حصلت على شيء فلن يكون إلا مظهرًا خَدّاعًا من الملبس والمأكل والعادات التي تقتبسها من الأمم التي تَحْتَكُّ بها؛ أما في الواقع فإنها بهذا التقليد الأعمى إنما تعمل لهلاكها، وتتهافت على مُبِيداتها.

إني أرى أول ما يجب على المصلحين في مثل هذا الدَّوْر الذي تكون فيه

الجماعات، أن يعملوا على تجنيبها ـ في دور نهوضها ـ ناحيةَ اللهو والترف والإباحة الشائعة في الأمم المُتَمَدِّنَة، وذلك بالتدليل لها على أن هذه الأمم لمّا بدأت ترتقي لم تكن على ما هي عليه اليوم من هذه المُوبِقَات الاجتماعية، وإلا لَمَا وصلت إلى هذه الدرجة من المدنية والعلم، ولهلكت قبل أن تصل إلى شيء منها.

وإنها لحقيقةٌ يمكن التدليل عليها؛ فإن الدولة الرومانية كانت إبّان نهوضها على أخلاق وفضائل ووطنية لم تكن لها حين اعتراها الهَرَم، واعتراها الضعف، فانتشرت فيها الرذائل، وفَشَتِ الفحشاء، وسادت حكامها الرِّشْوَة، واعوجاج السيرة، وانحطاط النفس، فأضاعت هذه السَّفالات دولتهم، وجعلَتْهم أحاديثَ لمن بعدهم.

وبعد هذا الاستطراد أقول: إن ما رميتُ إليه بمقالي هذا، ولَعَلِّي أول قائل به، من الناحية العلمية، هو: وجود ناموس على مثال جميع النواميس، يُدْعَى بالناموس الأدبي، ينظِّم العلاقات بين بني الإنسان على قواعد العقل والحكمة والأدب العالي، وإن الدليل على وجوده نشوءُ آثاره في جميع الشعوب والجماعات البشرية بعد أن لم تكن، وإن السعي لقلب أوضاعه في الجماعات يقابل بعقابٍ يَعُمُّ الجماعة التي تُقِرُّ هذا القلب وتعمل به، وهذا العقاب مشاهَد محسوس ممن يدرس المآسي البَيْتِيَّة، والخسائر المالية، والمفاسد الاجتماعية، التي تَنْخِرُ عظام كل هيئة اجتماعية في العصور الإنسانية، وهي في هذا العصر أشد منها في جميع العصور السابقة، وقد وصلت إلى درجة احتمال تلاشي النوع الإنساني كله بتأثير القَلاقِل الموجودة في جماعاته، والأَضْغَان المُتَأَجِّجَةِ بين حكوماته. فالذين يدفعون منّا الرجال للإباحة الحيوانية، والنساء للتجرد من الخَفَرِ والتعدي على الآداب النسوية، ويُرَبُّون أطفالهم على عدم احترام أبويْهم... إلخ إلخ، سيُلاقون وَبَال أمرِهم في نشوء أجيال لا تقف من الطغيان عند حد، وتجد من العقوبات الطبيعية على تَعدِّي حدود الناموس الأدبي، مثل ما تجده من التعدي على أي ناموس طبيعي. والفَعّالُ في هذا كله مُدَبِّرُ الوجود الأعظم، فإنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.[1]

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الحادي والعشرون ـ سنة ١٣٩٦هـ ص٩.

(٢)

كتبنا في الجزء الماضي تحت هذا العنوان بحثًا أثبتنا فيه أنه يوجد في الكون إلى جانب النواميس الطبيعية المُتَصَرِّفَةِ في الحوادث الوجودية، ناموس أدبي عام مجاله: الشؤون الأدبية، وهذا خاص بالنوع الإنساني وحده، لأنه النوع الوحيد الذي خُلِقَ غير مفطور على لزوم حالة واحدة لا يَبْرَحُهَا في معلوماته وعاداته.

وقلنا: إن الخروج على هذا الناموس بإساءة السيرة، وإشاعة الفُسُوق، والتَّهَتُّك، والإشادة بالرذائل، والجَهْرِ بالمنكرات، يقع مرتكِبُها تحت طائلة عقوبات مناسبة لها، وتصاب الأمة التي تشيع فيها هذه الخبائث بنكبات شديدة، كالأمة التي تَحِيدُ عن الخضوع للنواميس الأخرى المادية سواءً بسواء.

أول ما نذكره اليوم عن هذا الموضوع، أن ننبه إلى أن الناموس الأدبي العام لم ينشأ في الجماعات طَفْرَةً، ولكن رُوَيْدًا رويدًا، وهذا أقوى دليل على أنه طبيعي استدعاه النمو التدريجي للحَوَافِظِ الإنسانية على توالي الأجيال، وبقَدْرِ ما وصلت إليه العقلية البشرية من الارتقاء. ولو كان نشأ فجأة لَمَا أمكن سَرَيَانُهُ على المجتمعات التي كانت تتألف من آحادٍ هم إلى الحيوانية أقرب منهم إلى الإنسانية.

ومما يدل على أن هذا التطور الأدبي للأفراد والجماعات أمر طبيعي، دفاع أصحابه عنه بأقصى ما يملكون من حَوْلٍ وحيلة، على نحو ما يبذلونه للدفاع عن شؤونهم المادية. وهذا من أقوى الأدلة على أن التسامح في الآداب المكتسَبة للمجتمع ضرورية لحياته الاجتماعية، كما يدل دلالة قاطعة على أنه قد كُتِبَ للإنسان

أن يبلغ في عالم الآداب النفسية درجة تناسب درجته في الشؤون المادية. فإذا حدث ما يُخِلّ بهذا التوازن بين هاتين الدرجتين تعرضت الجماعة التي تُقْدِمُ على هذا الإخْلال لِفِتَنٍ من ضُرُوبٍ شَتَّى تَحُلُّ بهم عقابًا على ما فَرَّطُوا في جنب آدابهم النفسية. أليس يدل ما تشهده من أحوال العالم المتمدن، وما يحدث فيه من صنوف المشاكل الشائكة، على أن أولئك الأقوام الذين بلغوا مدًى بعيدًا في الفتوحات العلمية، والمواهب العقلية، قد ارتكبوا في ناحية من نواحي حوافظهم الأدبية انحرافًا يتناسب وما يتعرضون له من الحروب الماحِقة، والفتن الكاسحة. إن هؤلاء الأقوام بعد أن اقتتلوا أربع سنوات متتالية في حرب عامة، عادوا قبل أن تَلْتَئِمَ جِراحُهم، وتَنْدَمِلَ قُرُوحُهُمْ إلى خَوْض غَمَرات حربٍ أخرى أشد من الأولى، كان مجالها أكثر بقاع الأرض عمرانًا، فأَتَتْ على ما لا تستطيع الأمم اسْتِعاضَتَهُ بعد جيل من الزمان يمضي في سلام وارف الظلال. ثم ما كادوا يلقون سلاحهم حتى عادوا للكلام في الحرب والصدام، ولكن بسلاح لا يُبْقي ولا يَذَر، يجتاح المدن والجماعات في مثل لمح البصر، ألا وهو القنبلة الذرية. أَلَيس هذا من الكوارث التي يسلطها قَيِّم الوجود على الأمم التي تنحرف عن صراطه وتخرج على قوانينه؟

فإذا كان الناموس الأدبي العام قد أَشْعَرَ الإنسان بالعدل والرحمة والمساواة والأخوّة والفضيلة، وفَطَرَهُ على أن يشعر بسموّها، وعلى أن يعتبرها مُثُلاً عُليا في الحياة الأفرادية والاجتماعية، وقد قرر الإنسان ذلك في فلسفته وعلومه الاجتماعية، أفلا يكون من الإجرام المتعدِّي حدود التعقّل أن لا يعمل بها، وأن يَخْتَطَّ لنفسه خطة تُدابِرُها، وتعمل على طمس معالمها، والتَّعْفِيَةِ على آثارها؟ هيهات! فإن ما كان طبيعيًّا لا يمكن مُلاشاتُهُ صناعيًّا، وما كان ثمرته القَلاقِلُ والفتن والشِّقاق، ولا يمكن أن يكون ثمرته السلام والهدوء والاستقرار.

فالأمم – والحالة هذه – بين عاقبتين: إما التآخي والتَّعاضُد والتَّحابُ، وإما التصادم والتناحر والفناء!

نقول هذا، ولسنا بيائسين من أن الأمم تحت تأثير عامليْ حفظ الذات واستكمال أسباب البقاء، ستتأدّى إلى التّهدِّي لبواعث هذه الشرور المُجْتاحَة، وتستقيم على الصراط من الحياة الاجتماعية، بنَبْذِ كل ما يَصُدُّ عن ذلك من نَزَغَاتٍ وأهواءَ وعاداتٍ موروثة، وقد يطول أَمَدُ ذلك التطور الخطير، ولكنه على أية حال صائر لا محالة، ويومئذ تكون الإنسانية قد وصلت إلى ذروة كمالها، وغاية عظمتها.

ولا يجوز لنا هنا أن نغفل عن أن هذه الدرجة النهائية من الكمال، ما كانت لتتأتى من أول عهد الإنسان بالحياة، وهو لا يفترق عن الحيوانات العُجْمِ في كبير شيء، وأن أمامه عقبات كَأْدَاءَ، عليه أن يجتازها واحدة بعد أخرى في أدوارٍ متتالية، وتحت تأثير ثقافات من ضروب شتى. ولستُ أبالغ إذا قلتُ: إن هذا المصير يَخْفَى على الكثرة الساحقة من الناس، وأن من يعرفه يشك في إمكان حصوله، ويرى أن الأرض قد تستنفد موادها الصالحة لبقاء الأحياء قبل حدوثه؛ وأن الأمم لا تلبث بسبب حروبها المواصلة أن تَرْتَكِسَ إلى همجية بحتة كما حدث لأمم كثيرة من أمم التاريخ التي ملكت زمام الأرض أجيالاً، ثم آل أمرها إلى الزوال؛ وأن هذا هو كل حظ الإنسانية من هذه الحياة.

ليكن ما يقولون صحيحًا؛ فهذا لا يَنْقُضُ مَهمة الدين، ولا يَعْدُو على القول بضروريته، بل يزيد هذه المهمة تأييدًا. فإذا كانت الحياة الدنيا أول مراتب الحياة الإنسانية، وأن الإنسان كُلِّفَ أن يبدأ أول درجات وجوده فيها، وأن يعمل بالمُثُل العليا مدة إقامته بها؛ فيكون بحاجة ماسّة إلى دستور أخلاقي يجري عليه، ويَتَهَدَّى به إلى الصراط السَّوِيِّ الذي عليه أن يجتازه دون سائر الصُّرُطِ التي تَلُوح له في مدة بقائه في هذا العالم.

وبعد: فإننا بعد أن وصلنا من بحثنا إلى هذه النقطة، فلا يَحْسُنُ بنا أن نهمل الإشارة إلى تلك الكارثة العقلية التي حَلَّتْ بالعالم المتمدن منذ نحو مائة سنة، ولا يزال لها السلطان القاهر على القلوب، ألا وهي سيادة المذهب التشاؤمي

Le Pessimisme. ومُؤَدَّاهُ أن الحياة الإنسانية رديئة رَداءَةً لا تقبل الإصلاح، فكل الأعمال التي توجه لإصلاحها لا تكون نتيجتها إلا زيادة رداءتها. فيكون الواجب الحقيقي لكل عاقل أن يعمل على إبادة الإنسانية. وقد ساعد على انتشار هذا المذهب ما يصاب به الناس من الأعراض والأمراض وأهوال الشيخوخة، ومَوتِ الأهل والإخوان، وسيادة الفَاقَةِ والبؤس على أكثر الأحياء.

انتشر هذا المذهب لدى أكثر العلماء الأوروبيين وكاد يَعُمُّ الناس هنالك، وتَخَطَّاهم إلى بلاد الشرق ونشَرَتْهُ كتبه ومجلاته، فذاع فيه ذيوعه في الغرب، فأصبح مَثَارًا لجميع ضروب الشذوذ الخُلُقي، والانحراف الأدبي في جميع بلدان العالم، وهو أصعب ما مُنِيَتْ به الديانة والآداب من الصَّوَارِفِ عنها، والمُزَهِّدَاتِ فيهما، ثقةً من أهله بأنه مادام الموت نهاية كل حي، فلا مُوجِبَ لأن يتكلف الإنسان آدابًا لا تتفق وأهواءه، وقيودًا لا تتناسب وميوله، لا سيما وقد عم هذا الشذوذ الخافِقَيْن، وأصبح المُراعُون لهذه الآداب قلة لا يُعْتَدُّ بها.

وقد تَأَدَّى بنا هذا التحليل كما ترى، إلى أن علة هذا الانحطاط الأدبي الذي يعم الناس أجمعين هو يأسهم من البقاء بعد الموت. فهم يقولون: ما دام مصير الإنسان الفناء والتلاشي، فمن الأَفَن[1] أن يُضَيِّقَ المرءُ على نفسه فيَضَنُّ عليها بمشتهياتها لغير حكمة.

هذا هو السبب لكفر الإنسان بالأديان، ولاستساغته ارتكاب جميع المنكرات، واعتبارها من المَلَذَّات. ولو بقى الناس على ما هم عليه دون أن تأتيهم من الله آية جيلاً آخر، فإن ضروب الفسوق والعصيان الموجودة الآن ستتطور إلى أفحش ما يتصوره العقل من الإباحة الحيوانية، وعند ذاك تنشأ إلى جانب هذه الأدْناس الشهوانية، ميولٌ حيوانية أخرى تجعل من الإنسان وحشًا ضاريًا لا يفكر في غير هَوَى نفسه، وتَضْمُرُ وتتلاشى جميع نزعاته العُلْوِيَّة، فيحاول أن يتصل بالأرض:

---

(١) الأفن بفتح الفاء: ضعف الرأي.

فَتَتَنَمَّرَ له لأنه ليس منها؛ فيعمل على أن يَسْتَعِيضَ عنها بعالم متوسط بين السماء والأرض فلا يجده بعد شدة الإحْفاء في طلبه.

فإذا بقى على ما هو عليه، سيبقي عليه ما دام لم يجد ما يصده عنه من مَثَلٍ أعلى يَرْتَكِنُ إليه، فسينتهي أمره بالتلاشي لا مَحَالة بالعلل التي أصابتْه بها ميوله المادية، وهو ما هو فيه اليوم من الحروب المجتاحة التي يشنها على مُزَاحِمِيه في الخارج، والخلافات المذهبية التي تأتي على استقراره في الداخل. فإن لم يَتَدارَكْهُ مُبْدِعُهُ رحمةً منه بآية تعيده إلى رُشْدِهِ، وتَقِفُهُ عند حَدِّه، فمصيره كما تنبأ به هو نفسه الفناء ولا كرامة! ولكن الذين أوتوا العلم يقولون إنه سيخرج ممازِجٌ نفسَه فيه إلى حياة إنسانية طيبة، وسلام دائم.[1]

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الحادي والعشرون ـ سنة ١٣٦٩هـ ص١٠٤.

شُرِعَ الإسلام ليكون دينًا عمليًّا لا خياليًّا، ولذلك لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يتصل بالحياة المادية والروحية للإنسان إلا أتى عليها، ووضع لها من القواعد ما يناسبها. ومن أهم ما عُنِيَ به الإسلام الصحة البدنية، ومن أُولَيَاتِ هذه الصحة النظافة، وقد نَدَبَ الله إليها بوجه عام فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1].

فرض الإسلام على الرجال والنساء الاستحمام من الجنابة، وخَصَّ النساء بوُجُوب الاستحمام من الطَّمْثِ أيضًا. وندب إلى الاغتسال أيام الجُمَعِ وأكد فيه، حتى عَدَّهُ بعض العلماء واجبًا. وشرط لصحة الصلاة الوضوء. ولما كانت الصلوات خمسًا كان على كل مسلم ومسلمة أن يتوضأ في كل يوم مرات. والوضوء من أجمع وسائل النظافة، وأَعْوَدِها على صحة الأبدان بالفوائد الجليلة. فقد ثبت أن الأتربة التي تتصاعد في الجو تحتوي على كثير من جراثيم الأمراض، فتثبت في حَوَافِي الجفنين، فتصيب العينين بالأرماد المنوعة، وتتسرب إلى الأنف والحَلْق فتكون سببًا في أمراضهما المختلفة، وتَنْدَسُّ إلى الأذن فتُحْدِثُ فيها آفات السمع. وتتخلل بقايا الأطعمة ثنايا الفم فتتولّد فيه جراثيم مَرَضِيَّة من ضُرُوبٍ شَتَّى. فالوضوء يقي المسلمين والمسلمات من هذه العَوارِض كلها، فإنه يبدأ بغسل اليدين، والمضمضة، وتطهير الأنف باستنشاق الماء ونثره، وبغسل الوجه وفيه العينان، ويلي ذلك غسل الذراعين إلى المرفقين،وهو أقصى ما يحتمل أن تصل إليه الأوساخ من الخارج،

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٢٢.

ويجيء بعده مسح الرأس والأذنين من الداخل والخارج، ومسح العنق، وغسل الرجلين، فيتم بذلك للإنسان القيام بعمل صحي أصبح العلم العصري يندب إليه الناس، مكافحةً للأمراض الثقيلة التي تعتري هذه الأعضاء وتتصل منها بالأعضاء الرئيسية فتصيبها بأَفْدَحِ الأَدْوَاء.

وقد شدد الإسلام في وجوب طهارة الماء الذي يستعمل في الاستحمام والوضوء، وجعل هذا النظام في النظافة مَقْرُونًا بعملٍ عباديٍّ لتطهير الروح على أساسٍ لا يمكن أن يُتَصَوَّرَ أكمل منه للوصول إلى درجة الطهر حسًّا ومعنى.

لم يكتفِ الإسلام فيما يتعلق بصحة أهله بما فرضه من الاستحمام والوضوء، ولكنه سَنَّ سُنَّةَ الاعتدال في كل شيء: الاعتدال في التغذي ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾[1]، الاعتدال في الإنفاق ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[2]، الاعتدال حتى في الدين "إياكم والغلو في الدين إنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين".

وعلى هذا الأصل المَكِين بنى الرُّخَصَ في العبادات، فقَصَرَ الصلوات في الأسفار، وقرر أنه يُجْزِئُ الناس من أعمال الصلاة ما يستطيعون عمله مراعاةً لحالتهم، فقَبِلَ أن يُصَلُّوا جلوسًا، فإن لم يستطيعوا فمُضْطَجِعِين، فإن لم يستطيعوا فبالإيماء على أي وضع كانوا، فإن عجزوا عن قراءة آية من القرآن سقطت عنهم مراعاةً للتيسير عليهم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾[3].

ورَخَّصَ للمرضى والمسافرين أن يفطروا في شهر رمضان، على أن يقضوا في زمن صحتهم الأيام التي أفطروا فيها.

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ٣١.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٦٧.

(٣) سورة البقرة، من الآية ١٨٥.

وحرم التَّغَذِّي بالدم، والميتة، ولحم الخنزير، وما ذبح لغير الله، والخمر، واستثنى من ذلك من يدفعه الاضطرار إلى تناول شيء منه محافظة على حياته، فقال تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾(١).

وأباح للذي يهدد بالقتل من أجل دينه أن يتظاهر بالكفر صيانة لنفسه، فقال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾(٢).

ومن شدة عنايته بصحة أهله حَظْرُهُ عليهم أن يأبوا العمل بهذه الرُّخَص، فإنَّ من الناس من يُؤَانِسُون من أنفسهم القوة، فيحملهم حب الدين على العمل بالعزائم في مواطن الرخص، فنهاهم الإسلام عن ذلك وعَدَّهُ غُلُوًّا منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله يحب أن تُؤْتَى رُخَصُه كما يحب أن تُؤْتَى عزائمه". وزاد هذا الأمر تأكيدًا فقال: "من لم يقبل رُخَصَنا فليس منا".

وجرى الإسلام على هذا الأصل في كل ما يخالف الاعتدال، ويشبه الغلو الذي نهى عنه. من ذلك ما روى أن النبي ﷺ رأى رجلاً طاعنًا في السن يمشي وهو يَتَهَادَى بين ولديْه، فسأل عنه، فقيل له: إنه نَذَرَ أن يحج ماشيًا على قدميه. فقال: "إن الله غني عن تعذيب هذا نفسه، احملوه" فحملوه على بعير.

وروى أن النبي ﷺ استدعى (عبدالله بن عمرو بن العاص) وكان وَرِعًا كثير العبادة، وقال له: "ألم يبلغني أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟"، قال: بَلَى يا رسول الله وإني على ذلك لَقادر: فقال: "كلا، بل نَمْ وقُمْ، وأَفْطِرْ وصُمْ، إن لبدنك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لِزُوَّرِكَ (أي لزائريك) عليك حقًّا" الحديث. فتأمل في قوله إن لبدنك عليك حقًّا، تعرف مبلغ ما يُعْنَى به الإسلام من أمر الصحة البدنية، حتى ولو كان الإنسان يبذلها في العبادة، لأن هذا الدين إنما شُرِعَ لسعادة الحياتين لا لسعادة إحداهما دون الأخرى، وقد أرشد الله عباده أن يتوجهوا إليه

---

(١) سورة البقرة، من الآية ١٧٣.

(٢) سورة النحل، من الآية ١٠٦.

بالدعاء ويطلبوا منه أن يرزقهم السعادتين جميعًا، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[1]. وأَمَرَهُم أمرًا صريحًا بأن لا يهملوا أمر دنياهم فقال: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾[2].

على هذا الوجه فِهِمَ المسلمون الأولون الإسلام، وقد حكى الله عنهم ذلك فقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[3].

من الناس من يتركون الاحتياط لصحتهم قائلين توكلنا على الله، ظانِّين أن التوكل عليه تعالى ينافي الاحتياط، وهو خطأ كبير، فإن التوكل على الله لم يطلبه الإسلام بهذا المعنى، ولكنه بمعنى الاعتماد عليه تعالى بعد استيفاء كل وسائل التَّحَوُّطِ التي يدركها العقل، وتدخل في حيز القدرة البشرية، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[4]، أي فإذا عزمتَ على أمر، ورأيتَ أنه أَوْلَى بالمُضِيِّ فيه بعد إعمال الروية في تدبير وسائله، فامْضِ فيه مستعينًا عليه بمعونة الله. ويدل على هذا دلالة صريحة أن رجلاً قال: يا رسول الله، أترك ناقتي بلا عِقَال وأتوكل على الله: فقال: كلا، اِعْقِلْها وتوكل. أي اتخذ كل الأسباب التي تمنعها الإفلات ثم توكل على الله. وإلا فماذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[5]؟ أليس الإنسان مأمورًا بهذا النص الكريم أن لا يتعرض للهلاك ما دام يعتقد أن ما يأتيه مُجَازَفَةً بنفسه؟

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٠١.

(٢) سورة القصص، من الآية ٧٧.

(٣) سورة النحل، الآية ٣٠.

(٤) سورة آل عمران، من الآية ١٥٩.

(٥) سورة البقرة، من الآية ١٩٥.

ومما يناسب هذا المقام قوله ﷺ: "تَنَقَّهْ وتَوَقَّه"، أي تنظَّف وتَطَهَّرْ واحذر ما يضرك. فالحذر لا يُنافي التوكل، بل المسلم مأمور به، وإلا فيكون من الذين يلقون بأنفسهم في التهلكة، وهو عصيان صارخ للأوامر الإلهية. وزاد النبي ﷺ هذا المقام تجلية فقال: "المؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ حَذِر" فجعل من صفات المؤمن التعقل والفطنة والحذر، وكلها حوافظ للذات لا تستقيم الحياة إلا بها.

فإن الذي لا يَتَعَقَّلُ ما هو بصَدَدِهِ تَغُمُّ عليه وجوه النجح فيه، ومن كان غبيًّا لا يُقَدِّرُ العقبات، ولا يتخيل القواطع، يوشك أن يَتَرَطَّمَ فيها لا قِبَلَ له به فيفوته مَطْلُوبُه، ومن لم يكن حَذِرًا أَقْدَمَ على المهالك بلاروية ولا احتراس، فلا يبعد أن تجتاحه ولا كرامة، وليس هذا من شأن المسلم الذي وُعِدَ أن تكون له سعادة الحياتين.

وكما كان الناس قبل اكتشاف الميكروبات يجهلون حكمة وجوب الوضوء، كذلك كانوا يجهلون حكمة الإسلام في صد الناس عن البول والتَّغَوُّطِ في المياه حتى مياه الأنهار الجارية، فكانوا يظنون أن اندفاع المياه بقوة إلى البحر يجرف كل ما يلقى فيه من قَذَرٍ وقَذًى، ويبعد أذاه عن الناس أجمعين. ولكن لما اكتُشِف مرض البلهارسيا أدرك الناس حكمة الدين، ورأوا في ذلك معجزة علمية للإسلام تضاف إلى سائر معجزاته الأخرى.

ونحن وقد تَأَدَّى بنا الكلام إلى ذكر البلهارسيا، نرى من واجبنا أن ندلي بكلمة فيه، فإنه الداء الذي يرزح تحت كَلاَكِلِهِ أكثر من نصف المصريين:

داء البلهارسيا هو البول الدموي الذي يصيب القرويين، لا فرق بين الرجال والنساء والأطفال، ويكون مصحوبًا بضعف في البنية، وشحوب في اللون، ونُحُولٍ في الجسم وخَفَقَانٍ في القلب، وهو منتشر في القرى انتشارًا عظيمًا حتى إن عدد المصابين به في بعضها يبلغ ٨٣ في المائة من أهلها، وهذا أمر لا يمكن السكوت عليه، لذلك عُنيت الحكومة المصرية بمكافحته، وبذلت في ذلك السبيل أموالًا جَمَّةً،

حتى وُفِّقَتْ إلى معرفة أسبابه، وطرق الوقاية منه، وكيفية علاجه، ومن الغريب أن استئصاله يتوقف على الائْتِمَار بأمر الدين في عدم البول والتبرز في الجداول والترع والنيل.

كان مرض البول الدموي معروفًا للفراعنة الأقدمين، وقد وُجِدَتْ له وصفات طبية في متخلفاتهم، ولكنها لا تشفيه.

فلما تولى مصر رأس الأسرة الملكية، وفتح المدارس لنشر العلم، كان من بين مُدَرِّسِي مدرسة الطب الدكتور (بلهارس)، فهَالَهُ ما رأى من انتشار البول الدموي في القرى المصرية، فأَكَبَّ على دراسة سببه حتى اهتدى إليه، فوجد أنه مُسَبَّبٌ من ديدانٍ صغيرةٍ دقيقةٍ ثَاوِيَةٍ في كُلْيَتَيِ المصاب به ومثانته، فإذا بال في الماء نزل عدد منها مع بوله وسبحت في الماء، فإذا استحم فيها إنسان أو شرب منها عَلَقَتْ به واخترقَتْه، وسبحت في دمه حتى تصل إلى كُلْيَتَيْهِ ومثانته، فتنشب فيها وتُدْمِيها وتصيب صاحبها بالأعْراض التي ذكرناها آنِفًا.

وقد اجتهد كثير من الأطباء في درس كيفية نشوء هذه الديدان ونشوبها في جسم الإنسان، فرأوا أن هذه الديدان مَثْواها الأول كلية الإنسان، وأنها تَنْفَرِزُ منه مع البول هي وبويضاتها. ومتى وصلت البويضات للماء فلا تلبث إلا دقائق معدودة حتى تفقس، فتخرج الديدان إلى الماء، فإذا أصابت جسم إنسان اخترقَتْه حتى تصل إلى كليتيه ومثانته، وإذا لم تصادف إنسانًا آوت إلى بعض القواقع وعاشت فيها.

فالوسيلة الوحيدة لحماية الناس من شر هذه الديدان هو الامتناع الباتّ عن البَوْلِ في المياه كما ندب إليه الإسلام.

وهناك ديدان أخرى يقال لها (الإنكليستوما) تتسرب بويضاتها إلى الأمعاء فتفقس فيها،وتكبر حتى تبلغ إلى شِبْرٍ فأكثر، وبعضها يصل إلى نحو أربعين مترًا وتسمى بالدودة الوحيدة. وأعراض هذا المرض كأعراض البلهارسيا ما عدا البول

الدموي. وقد درس الأطباء سبب الإصابة به فوجدوه في تَغَوُّطِ المصابين به في المياه، وهو ما نهى عنه الإسلام أيضًا.

وقد أسست الحكومة المصرية مستشفيات لمعالجة هذين المرضين، وحَثَّتِ الأهالي على تقديم أنفسهم لها ليخلصوا من أعراضهما الثقيلة، وقد نجحت في ذلك نجاحًا مّا، ولكن متى أخذ الناس بتعاليم الإسلام في النهي عن البَوْلِ والتَّغَوُّطِ في المياه الراكدة والجارية، أمكن مُلاَشَاةُ هذين المرضين وتخليص المصريين مما يسببانه من الآلام بَتَاتًا.

لم يترك الإسلام شيئًا مما يتعلق بصحة الإنسان إلى أتى عليه حتى الأسنان، فإنه جعل من سننه الِاسْتِيَاك، ولو درى الناس ما في الاستياك من الفوائد الصحية لأخذوا به ولم يهملوه يومًا واحدًا، فقد ثبت أن بقايا الطعام تثبت في خلال الأسنان وفي قواعدها، فتتعفن هناك، ومعنى التعفن في عُرْفِ الطب حدوث ميكروبات ضارة فيها تتسرب إلى المعدة فالدم بسبب عُلُوقِهَا بالغذاء الذي يَمْضَغُهُ الإنسان، فتتكاثر هنالك وتصيب الجثمان بأمراض مختلفة.

والطّامَّةُ الكبرى أن يَسْتَشْرِيَ ضَرَرُها فتصيب الأسنان بالتهاب سحاقي يتسبب عنه تَقَيُّحٌ في اللثة، وتَكَوُّن أكياسٍ صَدِيدِيَّة في جذور الأسنان، فإذا مضغ الإنسان الأغذية اِلْتَاثَتْ بالقَيْحِ الذي يَتَحَلَّبُ منها، والقَيْحُ مَرْتَعٌ لأخبث الميكروبات، فتنزل إلى المعدة وتتسرب منها إلى الدم فتصيب الإنسان بأفدح الأمراض.

ولكن الإنسان لو أخذ بأوامر الشرع من استعمال السِّوَاكِ أو ما يقوم مقامه من فرشاة، زالت هذه البقايا الغذائية من بين أسنانه وجدرانها أولاً فأولاً، فلا تتكون فيها ميكروبات، ولا يتعرض الإنسان لما تحدثه من السيئات.

وفي ترك الِاسْتِيَاك رَذِيلَةٌ أخرى وهو إصابة الإنسان بالبَخَر، وهو نَتَنُ ريح الفم، فلو لم يكن في إهمال الاستياك إلا هذه الآفة لكان فيها أكبر باعث على استعماله.

فالإسلام كما ترى يمزج المنافع الروحية بالمنافع الجسدية ليَتَأَهَّلَ الآخذ به لسعادة روحه وسعادة بدنه. وقد ظهر أثر ذلك في حال المسلمين الأَوَّلِينَ ومن جرى على سنتهم، فكانوا أصفى الأمم أرواحًا وأقواها أجسادًا.

هذه المَزِيَّةُ في الإسلام لا توجد في أي دين من الأديان المعروفة لنا الآن، بل فيها عكس ما قدمنا، فإنها تفرض على ذويها مختلف الرياضات الجسدية للحصول على سلطان الروح بإضعاف الجسم، فكان أثر ذلك أن تمكن منها أعداؤها وصَرَفُوها عن الفضيلتيْن معًا.

واليوم، وقد اعْتُبِرَتْ تقوية الأجسام من مُوجِبات تقوية العقل، حتى قالوا: العقل السليم في الجسد السليم، فسيجد الناس في الإسلام أكبر مُنَشِّطٍ لهم في نُزُوعِهِمْ هذا، وفي هذا دليل جديد على أن الإسلام يُماشي الميول الإنسانية الحَقَّةَ من كل وجه[1].

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الخامس ـ سنة ١٣٥٣هـ ص ٤٠٤.

للفيلسوف الكبير (باكون) الإنجليزي: مؤسس الدستور العلمي كلمة يَتَمَثَّلُ بها العلماء كلما رأوا شذوذًا من بعض الباحثين في الطبيعة عن الإيمان بالله، وهي قوله: "علوم الطبيعة إذا رُشِفَتْ بأطراف الشِّفَاهِ أَبْعَدَتْ عن الله، وإن شُرِبَتْ عَبًّا أوصلت إليه".

نعم: من الباحثين في الطبيعة من يقفون مع الظواهر، ويَعْمُونَ عن القوى الباطنة التي تحركها، وتقودها إلى الأغراض التي خُلِقَتْ لها، ولقد يعتريهم من الزَّهْوِ والخُيَلاءِ ما يوهمهم أنهم أدركوا العِلَلَ الأوّلية لتلك الظواهر، وهم في الواقع لم يروا إلا مظاهرها. فوقع كثير منهم في الضلال، فملأوا الجِوَاءَ بمزاعم باطلة، ذهبوا بها مذاهب لا تتفق والبَدَهِيّات التي لا يجوز أن يَعْمَى عنها من له بصر نافِذ، وعقل ناضج، حتى لَوَّثُوا العلم الطبيعي بما هو مُنَزَّهٌ عنه في الحقيقة من التُّهَمِ التي ليس لها أساس.

وقد كان أكثر ما مُنوا بهذا الداء النّاجِسِ من قِصَرِ النظر في القرنين الثامن والتاسع عشر، وكان أكبر ما رمى بهم في هذه الحَمْأَةِ قُصُور العلم الطبيعي في الأجيال التي كانوا عائشين فيها.

من أمثلة ذلك ما نشره في سنة (١٧٧٠) الأستاذ (البارون هولباخ) الألماني في كتابه: (نظام الطبيعة) وهو قوله: "إن العالم كله مادة وحركة، وسلسلة أسباب ومُسَبِّبات لا تنتهي عند حد، وإن المادة والحركة أَزَلِيّتَان، وإنه ليس في الطبيعة أمر عجيب إلا للذين لم يدرسوها حَقَّ دراستها، وإن الحُسْنَ والقُبْحَ اعْتِبَارِيّان في الوجود مثل النظام والاتفاق فيه".

فالناظر في هذا القول من الذين لهم إلمام بالعلم الطبيعي الحديث، وبما جَدَّ من المكتشَفات فيه، يدرك لأول وَهْلَةٍ أن السبب فيه تَسَرُّعُ (البارون هولباخ) في الحكم على ما لم يكن يعلم من حقيقة المادة وحقيقة نظام الكون، فقد استند في إلحاده إلى ما كان يذهب إليه علماء عصره من أن المادة والحركة أَزَلِيَّتَانِ، وقد تحطم هذا الرأي في القرن العشرين، وثبت أن المادة ليست بأزلية، وأنها تَؤُولُ إلى قوةٍ مَحْضَةٍ تلحق بقوى الكون العامة، وأنها ليست مُؤَلَّفَةً من جواهر صُلبة، ولكن من حركة زَوْبَعِيَّةٍ حاصلة في الأثير، كما قررنا ذلك في مقالة سابقة هنا. فالذي دعا (البارون هولباخ) لقول ما قاله هو الجهل. والاعتماد على الجهل في مثل هذا الموطن الدقيق ليس من التحفّظ الخَلِيقِ بأهل التَّثَبُّت. وأَدْخَلُ في الجهل من هذا قوله: إن الطبيعة ليس فيها من عجيب إلا للذين لم يدرسوها. وسنَسْرُدُ عليكَ من أقوال أئمتها المعاصرين بعدما اكتُشِفَ من ظواهرها ما اكتُشِفَ أنها من العَجَبِ بحيث تُحْتَقَرُ علومهم بإزاء أصغر حوادثها.

ومن أمثلة ذلك أيضًا ما نشره الفيلسوف (ديدرو) الفرنسي في كتابه: (المادة والحركة) حوالي سنة (١٧٥٠) وهو قوله: "إن ما نراه من خروج كائن حي من البيضة بواسطة الحرارة وحدها يَنْقُضُ كل تعاليم اللاهوتيين، ويهدم كل هياكل الأرض".

فكان يتخيل الفيلسوف (ديدرو) أن ذلك الكائن الحي يَتَوَلَّدُ في باطن البيضة تَوَلُّدًا ذاتيًا بوساطة الحرارة، ولو عاش إلى أن نبغ الأستاذ (باستور) الفرنسي لما قال مثل هذا القول الذي خُيِّلَ إليه أنه ينقض جميع التعاليم اللاهوتية، ويهدم جميع معابد الأرض. فقد أثبت (باستور) هذا أن الحي لا يَتَوَلَّدُ من حي، وأن التولد الذاتي مُحَالٌ. فإذا كان الحي يخرج من البيضة، فقد ثبت وجود جرثومة حية ميكروسكوبية فيه تنمو بالحرارة المناسبة، وتَغْتَذِي مما حولها من المواد المَشْمُولَةِ في البيضة حتى يتم تَكَوُّنُها، ثم تخرج فتسعى لحياتها مع مثيلاتها اللاتي من نوعها.

فهذا القول أيضًا قد وَرَّطَهُ فيه الجهل بهذه الحقائق العلمية التي يعرفها اليوم تلاميذ المدارس. فلو كان تَحَلَّى بفضيلة التَّثَبُّتِ لما ألقى بمثل هذه التأكيدات جُزَافًا لتصبح خرافة من الخرافات المضحكة في أجيال أخرى تأتي بعد الجيل الذي نشأ فيه.

وقد وقع في مثل هذا التسرع علماءُ من الذين خَلَّدَ تاريخ الفلسفة أسماءهم، ومن أمثلتهم الفيلسوف الكبير (أوجست كومت) الفرنسي واضع الفلسفة الوَضْعِيَّة وعلم العُمْرَان. فقد ذكر في عَرْضِ كلامه على ما يمكن الإنسان اكتشافه وما لا يمكن، أنَّ من المحال أن يكتشف الإنسان المادة التي تتركب منها الكواكب. فاتفق أنه بعد ما توفى بخمس سنين فقط اكتشف أحد الطبيعيين آلة التحليل الطَّيْفِيِّ المسماة بالسبكتروسكوب، فأثبت بها أن المواد الداخلة في تركيب الأجرام السماوية هي المواد نفسها الداخلة في تركيب الأرض، أي أنها الصوديوم والبوتاسيوم والمغنيسيوم والحديد والرصاص... إلخ.

ويحسن بنا هنا: أن نُورِدَ بعضَ أقوال علماء الطبيعة المعاصرين لنا في سُمُوِّ نظام الوجود، وفي عَجْزِهِمْ عن إدراك القُوَى التي تعمل فيه، وفي حيرتهم في فهم عجائبه وإبداعاته، وهي أقوال يجب أن تُوضَعَ حِيَالَ أقوال أولئك الملحدين الذين تَقَدَّمُوهُم، وينقلها بعض الذين يَلُفُّونَ لَفَّهُمْ من الأَغْرَارِ اليوم، وما يدرون أنهم يُحْيُونَ بذلك عهدًا أراد الله أن لا يعود بعد أن مَنَحَ النَاسَ من البَيِّنَاتِ العلمية ما لا قِبَلِ لأحد على طَمْسِهِ. قال الأستاذ (بيو) في كتابه: (شذرات علمية وأدبية):

"بقدر ما أَتَدَبَّرُ في نظام هذا الوجود وسَعَتِه، وفي جُمْلَةِ عجائبه، أَعْجَبُ من هذا الإبداع المدهش، وأراني عاجزًا عن تعليله. وإني لأَتَجَاسَرُ على القول بأن تلك التفسيرات الناقصة، والتعليلات الكاذبة أو المُبْهَمَةِ التي يريد أن يقنعنا بها بعض الكُتّابِ المعاصرين باعتبار أنها مَدَارِكُ سامية، لا تَظْهَرُ مُجْحِفَةً وتافهةً إلا إذا قُوبِلَتْ بالطبيعة نفسها، وإن الذين تشرفوا بإدراك بعض جمالها وتذوقوه، وجدوا أنفسهم

مُرْغَمِينَ على أن يعتبروا الذين يريدون أن يشوّهوا هذا الجمال بتَدْلِيسِهِمُ القبيح كفّارًا ملحدين".

وقال الفيلسوف الإنجليزي المشهور (ستوار ميل) كما نقله عنه (اللورد أفبري) في كتابه: (ثمرة الحياة):

"تبدو لنا الحياة الإنسانية مُحاطَةً بغَوَامِضِ الأسرار، فتُرَى دائرة تجاربنا الضيقة كأنها جزيرة صغيرة ضالّة في بحر لا نهاية له يرفع إحساساتنا، ويساعد قُوَّتَنا التَّصَوُّرِيَّةَ بعظمته وجلاله، ويزيد ذلك السرَّ غموضًا أن مجال حياتنا الدنيا ليس كجزيرة في فضاء غير مُتَنَاهٍ فحسب، ولكن في زمانٍ غير مُتَنَاهٍ أيضًا".

وقال العلامة (أوليفر لودج) عميد جامعة برمنجهام في إنجلترة من خطبة خَطَبَها في جمعية: "تقدم العلوم":

"إن الذي نَعْلَمُهُ ليس بشيءٍ في جانب ما يجب علينا أن نتعلمه. قد يقول ذلك بعضهم بغير عقيدةٍ راسخة، أما بالنسبة لي أنا فهي الحقيقة الحَرْفِيَّة. ثم إن إرادة قَصْرِ مَبَاحِثِنَا على المجالات التي افْتَتَحْنَاها نصف افْتِتَاح، يُعْتَبَرُ خيانةً لعهود الرجال الذين كافحوا للحصول على حرية البحث، وتَخْيِيبًا لأقدس آمال العلم".

وقال الأستاذ (كاميل فلاماريون) الفلكي الفرنسي المشهور في كتابه: (المجهول والمسائل النفسية):

"ليس لنا علم مطلق بشيءٍ من الأشياء، فكل معارفنا نِسْبِيَّة، أي ناقصة وقَاصِرَة. فالعقل العلمي يُوجِبُ علينا أن نَتَحَفَّظَ في إنكاراتنا، ولنا الحق في أن نكون متواضعين. ولنقل مع (أراغوا): "إن الشك لَدليل على التواضع، وما أَضَرَّ بتقدم العلوم إلا نادرًا"، ولكنا لا نستطيع أن نقول مثل هذا القول عن الإنكار المطلق.

"إن الذين يقولون: حاشانا أن نُصَدِّقَ هذه المستحيلات، لا لا، نحن لا نصدق إلا نواميس الطبيعة،وهذه النواميس معروفة، هؤلاء يشبهون قدماء الجغرافيين

الذين كانوا يكتبون على خرائطهم عندما يصلون في رَسْمِهِمْ إلى جبل طارق هذه العبارة: (هنا تنتهي الدنيا)، ولم يعرفوا أن في تلك الشُّقَّةِ القريبة المجهولة يوجد من الأرض ضِعْفُ ما كان يعلمه أولئك الجغرافيون الجَسُورُونَ في ذلك الحين.

"أَلاَ إن كل ما نعرفه من العلوم الإنسانية يمكن أن يُشَبَّهَ بجزيرة صغيرة، صغيرة للحد الأقصى، مُحَاطَةً بإقيانوس لا ساحل له" انتهى.

نقول: إن هذا القدر الكبير من التَّبَصُّرِ ما وصل إليه الباحثون في الكون إلا بعدما تَبَحَّرُوا في العلم، وأَدَّاهُم تَبَحُّرُهُم نفسُه إلى أنهم لا يزالون لا يعلمون شيئًا.

من أحسن ما نُسَجِّلُهُ في هذا الباب لأستاذ كبير من أركان العلم العصري وهو السير (وليم كروكس) الإنجليزي الذي تولى رياسة جمعية العلماء البريطانية، قولَه في خطبة له:

"من بين جميع الصفات التي عاونَتْني في مباحثي النفسية، وَذَلَّلَتْ لي طُرُقَ اكتشافاتي الطبيعية، وكانت تلك الاكتشافات أحيانًا غير مُنْتَظَرَة، قلتُ: من تلك الصفات اعتقادي الصحيح الرّاسخ بجهلي. وأكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أَمْرُهُم عاجلاً أو آجِلاً إلى إهمالهم الكُلِّيِّ لجانبٍ عظيمٍ من رأس مالهم العلمي المزعوم، لأنهم يرون أن رأس مالهم هذا وَهْمِيٌّ مَحْضٌ".

أَلاَ تَعْجَبُ بعد هذه الأقوال أن ترى رجالاً لا يصلحون أن يكونوا تلاميذ لهؤلاء العلماء، يتناولون الكون والكَوْنِيّاتِ بالإجمال والتفصيل، ويَبُتُّونَ في أحكامهم عليها كأنهم وضعوها بأيديهم؟! ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْـمُضِلِّينَ عَضُداً﴾[1][2].

(١) سورة الكهف، الآية ٥١.

(٢) مجلة الأزهر ـ المجلد الخامس ـ سنة ١٣٥٣هـ ص ٤٢.

ليس خيرُكم من ترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته، ولكن خيرَكم من أخذ من هذه وهذه.

وَقَرَ في نفوس أكثر الناس، ومنهم بعض المسلمين، أن الأديان لا تؤدي إلى المدنية، وأنها تُؤْثر شَظَفَ العَيْشِ على رَغَدِه، وأنها تَقِفُ جهود أهلها على العبادات وقَمْعِ الرغبات. وهذا خطأ محض، وبُعْدٌ عن فهم مَرَامِي الأديان، وخاصةً الإسلام. فقد شُرِعَت الأديان لحفظ نظام الجماعات، ونَهْجِ طُرُقِ السعادة الصحيحة لهم، وهي لا تنحصر في كثرة المال ولا في قلته كما يظنه أكثر الناس، ولكنها تتوقف على فَقْهِ معنى الحياة البشرية،وعلى معرفة الأصول التي توصِّل إلى إبلاغها إلى غايتها التي وُضِعَتْ لها؛ فكم من غَنِيٍّ لم يَذُقْ للسعادة طعمًا، ومن مُقِلٍّ وَصَلَ إلى نهايتها البعيدة، والعكس صحيح أيضًا. بل التَّناهِي في الإقْلال شر على أصحابه من التناهي في الاسْتِكْثار. وقد تَعَوَّذَ النبي ﷺ من الفقر، ودعا ربه أن يجعل رزقه ورزق آله كَفَافًا.

نعود إلى موضوعنا الرئيسي فنقول: إن النبي ﷺ على تَخَيُّرِهِ لنفسِهِ الكَفافَ على الغنى لم يحتقر الثراء، كيف وقد عَبَّرَ الله عنه بكلمة الخير في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ﴾[1]، وقد كان في أصحابه ذوو مال وفير فلم يأمرهم بتَبْدِيدِهِ، وقد أفاده مالُهم في مواطن كثيرة، فتولى (عثمان) مَرَّةً تجهيز جيش بِرُمَّتِهِ من ماله الخاص، وأنفق (عبدالرحمن بن عوف) مالاً عدًّا في سبيل تأييد الإسلام؛

(١) سورة البقرة، من الآية ١٨٠.

ولولا هذه الأموال الطائلة لقَصَّرَتِ الكَتائِبُ الإسلامية في القيام بمهامها في الدفاع عن حَوْزَتِها.

وقد عُنِيَ الإسلام، في عهد حاجة جماعته للمال، بتدبير إنفاقه؛ فقد جاءه أحد أصحابه يستأذنه في الخروج عن ماله في سبيل الله، فقال له: "لا تفعل، بل الثُّلُث، والثلث كثير، إنك إن تَدَعْ وَرَثَتَكَ أغنياء خَيْرٌ من أن تَدَعَهُم فقراء يَتَكَفَّفُونَ الناس".

وقد جعل ذلك أصلاً في شريعته، فقرر أن لا يجوز لأحد أن يُوصِي في سبيل الله بأكثر من ثُلُثِ ماله.

وقد نهى عن تبذير المال وسوء استعماله، وجعل للكَرَم حَدًّا معقولاً فقال تعالى: **﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾**[1]. **﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾**[2]. وهذا تأنيب قارصٌ يُشْعِرُ بأن تدبير المال من الأموال المهمة في الإسلام.

لما نزل قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾**[3] ظن الناس أن كَنْزَ الأموال حرام في الإسلام، فأَفْضَى رسول الله ﷺ بحديثٍ بَيَّنَ فيه حَدَّ الكَنْزِ من هذه الآية، فقال: "ما أَدَّيْتَ زكاتَه فليس بكَنْز" فأصبح ادِّخارُ المال وحِفْظُهُ، مهما بَلَغَ مقداره، مُبَاحًا للمسلمين، والدليل الواقعي على ذلك أن كثيرين من الصحابة كانت لهم أموال طائلة، وعايشوا النبي ﷺ على هذه الحال، وكانوا من خِيرَةِ صحابته.

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٢٩.

(٣) سورة التوبة، من الآيتين ٣٤، ٣٥.

ومن الأدلة العملية على ذلك: أن (أبا ذر) رضي الله عنه، كان يرى أن ادِّخار المال غير جائز،وأخذ يَبُثُّ مذهبه هذا في الناس، وكان بالشام، وواليها (معاوية بن أبي سفيان) إذ ذاك، فشكاه إلى (عثمان) رضي الله عنه، فاسْتَقْدَمَهُ ونهاه عن ذلك، فأَصَرَّ على رأيه، فنفاه إلى الرَّبَذَة، وهي قرية بقرب المدينة، فلبث بها إلى أن توفي.

هذه القصة تدل على حرص أولياء أمر المسلمين من شيوع المذاهب المجتاحة للثروة العمومية للأمة الإسلامية. وفي نَفْيِ (أبي ذر الغِفاري)، وهو من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، مثالٌ كبيرُ الدلالةِ على هذا الحرص. وما ذلك إلا لأن المال أساس التعامل للجماعات، وقِوَامُ المقاومة في تَنَازُعِ البقاء.

وقد حَثَّ الكتاب الكريم على البَذْلِ في سبيل الله، وفي إمداد الفقراء بما يُمَكِّنُهُمْ من الحياة، فإن لم يكن للأمة مال، وكانت منه في إقْلال، فماذا تبذل في سبيل الله، وبأي شيء تَمُدُّ المُعْوَزِينَ من أبنائها، وتُهَيِّئُ لهم وسائل العمل والحياة؟ هذه أمور بديهية، لا تَتَقَاضانا التَّدْلِيلَ على صحتها. لذلك أمر النبي ﷺ المسلمين بطلب السَّعَةِ في الرزق من جميع مَظَانِّها، في عبارات مُؤَثِّرَةٍ؛ فقال: "لَعَثْرَةٌ في كَدٍّ حَلاَلٍ على عَيِّلٍ مَحْجُوبٍ، أفضلُ عند الله من ضَرْبٍ بسيفٍ حَوْلاً كاملاً، لا يجف دمًا مع إمام عادل".

وأمر بالجِدِّ في طلب الرزق وعدم التَّكاسُلِ عنه، فقال: "إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن أرزاقكم"، وحَثَّ على استثمار الأرض فقال: "اطلبوا الرزق في خبايا الأرض".

وحَرَّضَ على التجارة فقال: "أوصيكم بالتُّجَّارِ خيرًا فإنهم بُرُدُ الآفاق، وأُمَنَاءُ الله في الأرض". هذا، وكتب الحديث مَلأَى بأمثال هذه الكَلِمِ النَّوَابِغِ مما لم يَرِدْ مثلُه في كتاب ديني لأمة من أمم العالم.

ومما هو غاية الغايات في هذا الباب، ما رواه المُحَدِّثُونَ من أن النبي عليه الصلاة والسلام دخل عليه قوم فقالوا له: يا رسول الله، لا يُدَانِيكَ في العبادة إلا رجل

عندنا يصوم النهار ويقوم الليل، لا يشغله شيء غير العبادة. فقال لهم النبي: "فمن يَمُونُه؟" قالوا: يا رسول الله كلنا نَمُونُه. فقال لهم النبي: كلكم أفضل منه"!

فالذين يتخيلون أن الدين مَقْطَعَةٌ عن الأعمال التي تَعُودُ بالنفعِ على الأفراد والجماعات، إنما يُجَرِّدُونَ الدين من معناه الصحيح، فإن الدين شُرِعَ ليصلَ بين الإنسان وبَارِئِهِ ليستمد منه رُوحًا عُلْوِيَّةً توجهه إلى ما خُلِقَ له من إنسانية كريمة وحياة شريفة، ورُقِيٍّ معنوي يصل به إلى غايةٍ ما قُدِّرَ له في وجوده الدُّنْيَوِيِّ من سُمُوٍّ في الخُلُق، وعُلُوٍّ في النفس، وكرامة في الوجود، وإبداع فيما وَكَلَ إليه من خلافته في الأرض، لا أنه خلقه ليعيش مُعَطِّلاً مواهبه الأدبية، مُكْتَفِيًا بما حَسَّنَهُ له الوهم من إيثار البطالة، والرضا بالجَهالَة.

إن الإسلام دين المدنية الصحيحة، والمعيشة الهنيئة، في حدود الحكمة، وحَيِّزِ الفضيلة. فهو لا يُحَرِّمُ إلا ما يُحَرِّمُهُ العلم الصحيح، ولا يُحِلُّ إلا ما يُحِلُّهُ الطبع السليم، فإذا كان يُحَرِّمُ على أهله الخمر والميسر والزنا والقتل والغيبة والنميمة والكذب والنفاق والسرقة والرشوة والخداع... إلخ إلخ، فذلك لأنها مَفْسَدَةٌ للأفراد والجماعات، مَجْلَبَةٌ للشرور والآفات، وهو يُحِلُّ كلَّ ما عدا هذه الصفات الذميمة؛ ولا يطالب الإنسان إلا بالاعتدال فيها؛ لذلك تَأَدَّى المسلمون في أول عهدهم إلى بلوغ جميع أغراضهم الاجتماعية بأسرع مما سجله التاريخ لكل الأمم التي آلَتْ إليها الخلافة في الأرض، حتى من ناحية المدنية المادية، فقد بلغوا فيها أَوْجًا أَدْهَشَ مُؤَرِّخي الفِرِنْجَةِ، ووصفوها بأنها لا تقل عن المدنية الحالية رَوْنَقًا. وإنّا لناقِلُونَ لك ذلك عن العلماء الغربيين أنفسهم؛ ليكون الوصف لغرابته أكثر إقناعًا للمُتَشَكِّكِين، وأَشَدَّ وَقْعًا على المنكرين.

قال العلامة (دريبر) Draper المُدَرِّسُ بجامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة الأمريكية في كتابه: (المنازعة: بين العلم والدين)، قال في المقارنة بين مدنيتي أوروبا في ذلك العهد ومدنية العرب:

"إن أوروبا في ذلك العهد (عهد مدنية العرب) كانت غَاصَّةً بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة. وكانت المستنقعات قد كَثُرَتْ حوالي المدائن؛ فكانت تنتشر منها روائح قَتَّالَةٌ اجتاحت الناس وأَكَلَتْهُم ولا مُغِيثَ لهم. وكانت البيوت في باريز ولو ندرة تُبْنَى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب. ولم يكن بها نوافذ ولا أرضيات خشبية. أما الأَبْسِطَةُ فكانت مجهولة لديهم، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض. ولم يكونوا يعرفون المداخن، فكان الدخان يطوف البيوت ثم يَتَسَرَّبُ من ثقبٍ صنعوه له في السقف. فكان الناس في هذه البيوت مُعَرَّضِينَ لكل ضُرُوبِ الإصابات الخطيرة. وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة، فيلقون بأحشاء الحيوانات، وأَقْذَاءِ المطابخ أمام بيوتهم أَكْوَامًا وأَكْدَاسًا تتصاعد منها روائح قاتلة ولا رَقِيبَ ولا حَسِيب. وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال، وكثيرًا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية.

"وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف كمخدة، وكانت النظافة معدومة لديهم لا يعرفون لها رَسْمًا.

"وكان الغني منهم لا يأكل اللحم إلا كل أسبوع مرة، ولم يكن للشوارع مَجَارٍ ولا بلاط ولا مصابيح.

"هذه الجهالة كان أثرها على أوروبا أَنْ عَمَّتْها الخرافات والأوهام، فانحصر التَّدَاوِي في زيارة الأماكن المقدسة، ومات الطب وحَيِيَتْ أَحَايِيلُ الدجالين، وقد كان إذا دَهِمَ البلادَ وباءٌ فَزِعَ رجال الدين للصلاة، ولم يلتفتوا لأمر النظافة، فكانت تَفْتِكُ بهم الأَوْبَاءُ فَتْكًا ذَرِيعًا" انتهى كلام الأستاذ (دريبر).

هذه كانت حالة أوروبا في أعظم مدنها حضارةً على عهد البعثة المحمدية، آلَتْ إليها بسبب ما أصابها من التَّدَهْوُرِ تحت سلطان رجال الدين فيها. فقارِنْ بين هذه الحالة، وبين ما آلت إليه حالة مدن الأندلس (إسبانيا) التي استولى عليها المسلمون

في القرن الأول من الهجرة وسَرُّوا عليها النظم الإسلامية. قال الأستاذ (دريبر) نفسه في كتابه: (المنازعة بين العلم والدين):

"لم تكن أوروبا في مدنيتها العصرية بأعلى ذوقًا، ولا أرفع مدنية، ولا ألطف رَوْنَقًا من عواصم الأندلس على عهد حكم العرب، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار، ومُبَلَّطَةَ أجملَ تَبْلِيط، والبيوت مفروشة بالبُسُط، وكانت تُدَفَّأُ شتاءً بالمواقد، وتُهَوَّى صيفًا بالنسمات المُعَطِّرَة، بواسطة إِمْرَارِ الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زَهْرًا. وكانت لهم حمامات ومكتبات ومحلات للغذاء، وينابيع مياه عذبة.

"وكانت المدن والخَلَوَاتُ مَلأَى بالاحتفالات التي كانوا يرقصون فيها على آلات الطرب. وكانوا بَدَلَ النَّهَمِ وإدمان السُّكْرِ في المآدب الليلية، كجيرانهم الأوربيين، يجملون مآدبهم بالقناعة. وكانت الخمر مُحَرَّمَةً عليهم، وكانت غاية لَذَّاتِهِمُ البدنية تنحصر في تَمَشِّيهِمْ في الليالي المُقْمِرَةِ في حدائقهم البالغة منتهى الجمال، أو بجلوسهم حول أشجار البرتقال يسمعون قصة مُسَلِّيَةً، أو يتجادلون في موضوع فلسفي، مُتَعَزِّينَ عن مصائب الدنيا وآلامها، بقولهم: إنها لو كانت مُنَزَّهَةً عن الآلام وعن الإصابات لنَسَوْا حياتهم الأُخْرَوِيَّة. وكانوا يُوَفِّقُونَ بين جهودهم في هذه الحياة، وبين آمالهم في النعيم المُقِيم في الآخرة". انتهى ما قاله الأستاذ (دريبر).

فقَدِّرْ بعد ذلك مَبْلَغَ ما أفاده الإسلام لذَوِيهِ من نعمتي الوجود المادية والأدبية، وتَحَقَّقْ مما يُفِيدُهُ هذا الدين لأهله من خَيْرِ المعاش والمَعَاد. أفلا يحق لنا بعد هذا أن نقول: لنا الدين والدنيا معًا[1].

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الحادى والعشرون ـ سنة ١٣٦٩هـ ـ ص ٣٨٨.

ما تَرَدَّدَتْ كلمة الحق في كتاب، بقَدْرِ ما ترددتْ في القرآن الكريم، حتى إن مُوحِيه – جل وعز – سمى الدين الذي بعث به خاتم رسله بدين الحق، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]. أي أرسله بالهُدَى الذي لا يَضِلُّ معه من اتَّبَعَهُ، وبالحكمة التي تؤدي إلى كمال المعرفة، ليجعله ظاهِرًا على الأديان كلها، وحَالاً مَحَلَّها. وقد تكررت هذه الكلمة الجامعة في الكتاب المجيد أكثر من ثلاثمائة مرة، وليس هذا بعجيب، فإن الحق قَيُّومُ كُلِّ عملٍ نافع، وكل علم ثابت، وكل خَصْلَةٍ شريفة، وكل نِيَّةٍ صالحة، حتى إنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾[2]. وقد ضرب الله مَثَلاً للحق والباطل فقال: ﴿أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾[3].

أي أن الله تعالى أنزل من السماء ماء إلى أَوْدِيَةٍ بالقَدْرِ الذي يكفيها، ويكون عليه زَبَدٌ عَالٍ من شدة التَّدَفُّق، ومما تُوقِدُونَ عليه في النار كالذهب والحديد لصُنْعِ حِلْيَةٍ أو أداة نافعة، زَبَدٌ مثله من شدة الغلَيان، فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفَاءً أي غُثَاءً لا يُنْتَفَعُ

(١) سورة التوبة، الآية ٣٣.
(٢) سورة يونس، من الآية ٣٢.
(٣) سورة الرعد، الآية ١٧.

به، وأما ما ينفع الناس كالماء والمعادن النافعة، فيبقى في الأرض للانتفاع به مادام العالم الأرضي صالحًا للبقاء.

وقد أشاد الله – جل وعز – بِذِكْرِ الحق في آيات تأخذ بالألباب رَوْعَةً، وتستولى على القلوب رَهْبَةً، دعوة إلى التمسُّك بالحق، وزَجْرًا عن التَّعْوِيلِ على الباطل، فقال تعالى: ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[1]، جاء الحق – أي الإسلام – بما اشْتَمَلَ من هِدَايات، وما كَلَّفَهُ أهلَه من رسالات، فأصبح الباطل هَالِكًا، والباطل لا يستطيع أن يُبْدِيَ ولا أن يُعِيد.

وقال تعال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [2].

أي قامت دولة الحق بقيام الإسلام، وهلك الباطل وَتَقَوَّضَتْ دولته، إن الباطل من طبيعته الزُّهُوقُ والاضْمِحْلاَل.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[3].

أي أننا لم نخلق الوجود المادي بقصد التَّلَهِّي والتَّسَلِّي؛ لو أردنا ذلك لاتخذناه من عندنا مما يليق بقُدْرَتِنا إن كُنَّا فاعلين. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي بل ليس من شأننا، ولا يليق بنَزَاهَتِنا أن نتخذ اللَّهْوَ، بل من شأننا أن ننصر الحق الثابت على الباطل فيَدْمَغُه، والدَّمْغُ كَسْرُ الدِّماغَ وشَقُّهُ المؤدِّي إلى إزْهاق الروح، وهذا تصوير بديع لإبطال الباطل بالحق، ومبالغة فيه على حال تخشع لها النفس. ثم قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي ولكم الهلاك مما تصفون الخالق به مما لا يليق بجلاله، ولا يصح لكماله.

---

(١) سورة سبأ، الآية ٤٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨١.

(٣) سورة الأنبياء، الآيات ١٦:١٨.

ومما هو أقوى وَقْعًا على النفس الإنسانية، وأشد تأثيرًا على مواطن الإذْعان منها، أن قَيِّمَ الوجود – جل شأنه – خَصَّ بالحق وموقف الإنسان منه سورة قال عنها (ابن عباس) رضي الله عنه: "لو لم يكن في القرآن إلا هذه السورة لكَفَتِ الناس"، ذلك لَمَا تَجَلَّى فيها من الروح الإلهي، وما أشرق بين سطورها من نور الحكمة الربانية، ألا وهي قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾[١].

يقسم الله، وهو غايةٌ في التأكيد، ولا يكون ذلك إلا في أمر جِدٌّ خطير، بأن الإنسان بما أُودِعَ من الميول الجَسَدَانِيَّة، وما استدعاه تركيبه من الحاجات الحيوانية، لفي خُسْرَانٍ مبين، إن تَمَحَّضَ لها، وتغلبتْ عليه بَجَواذِبِها، إلا الذين آمنوا بالله ووقفوا من شهواتهم الجثمانية عند الحدود التي رسمها لهم في كتبه السماوية، وانصرفوا إلى الأعمال الصالحة مؤدِّين رسالتهم التي حُمِّلُوها نحو أنفسهم ونحو مجتمعهم ونحو الإنسانية، متجهين في جميع محاولاتهم الحيوية نحو الحق، ومُوصّينَ بذلك بعضُهم بعضًا، ومُتَحَلِّينَ بشِيمَةِ الصبر، وهي أَخَصُّ ما يلجأ إليه أُولُو البصائر النَّيرةِ حِيالَ ما تقتضيه حياتنا الأرضية من المكاره، وما تثيره من الشدائد، لتتجرد الشخصية الإنسانية العلوية المُحْتَدّ مما يُحْجَبُ من أنوارها عَنّا، ويضيع من إشراقها علينا.

هذه السورة تعتبر من أمهات المُثُلِ الإسلامية العليا التي كان لها أكبر أثر في ترقية المجتمع الإسلامي، وتوجيه آحاده نحو الحياة التي جعلت منهم أمة فَذَّةً في تاريخ العالم الإنساني، وقد أَثَّرَتْ في تطوّره وتَكْمِيلِهِ ما لم يُرْوَ عن أمةٍ سواها في الأرض.

دُعِيَ الإسلام بدين الحق، وأُحِيطَتْ هذه التسمية في كتابه من الوصايا والتعاليم بما يجعل أَعْدَى أعدائه يعترفون بصحة هذه التسمية، فقد بُنِيَ على العقل، وقام على الدليل، وأُطْلِقَتْ لأهله في هذه السبيل حرية البحث، وقد حَثَّ المسلمين على

---

(١) سورة العصر.

الاجتهاد وراء إدراك الحقائق، حتى قرر أن للمخطئ أجرًا وإن أخطأ، وللمُصِيبِ أجرَيْن، ولم يُسْمَعْ في سيرة العالم كله ما يشبه هذا التنشيط على البحث.

وطُولِبَ الآخِذُونَ به أن ينظروا في الوجود وفي عقائدهم. وكُلِّفُوا أن يقيموا الدليل على صحتها، وُحُرِّمَ عليهم التقليد؛ ودُعوا للسياحة في الأرض وراء اكتساب العِبَر، والاستماع لكل قول، وتَلَقُّفِ الحكمة ولو من المشركين.

لا جَرَمَ أن دينًا يُحَاطُ بكل هذه التعاليم والوصايا يجب أن يُسَمَّى دين الحق، ولا عَجَبَ أن يبلغ أهله خلافة الأرض.

إن تحت ظلال هذا المثل الأعلى من التَّعْوِيلِ على الحق، وصل المسلمون إلى أرقى ما بلغ إليه الأَقْدَمُون، وزادُوا عليه ما جعل تراثهم العلمي المادة الأولية للعلم إلى يومنا هذا (راجع ما نقلناه عن جوستاف لابون ودريبر وغيرهم).

وتحت رعايته اختلفوا واحترموا خلافاتهم، وأَطَاقُوا أن تتعدد مذاهبهم.

وتحت نوره بحثوا ونَقَّبُوا، واحترموا كل صاحب علم من الأجانب، واحْتَفُوا به وأخذوا عنه، وشرحوا تعاليمه وتَدَارَسُوها.

وتحت قيادة هذا المثل الأعلى أسس أهله الجامعات في عواصم البلاد التي افتتحوها ودرسوا فيها العلوم المختلفة، وقبلوا فيها المخالفين لهم في العقيدة من نصارَى أوروبا ومن الإسرائيليين، وأخلصوا لهم في تثقيف عقولهم، وتنوير أذهانهم، فمهدوا بذلك السبيل لعهد البعث لهم، مما كان سببًا مباشرًا لنهضة أوروبا علميًّا ومدنيًّا، ولم يُخْفِ الأوروبيون هذا الأمر، فاعترفوا به على رؤوس الأشهاد، قال العلامة (جوستاف لوبون) في كتابه: "حضارة العرب":

"إن تأثير العرب في الغرب كان عظيمًا كتأثيرهم في الشرق، وإن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها...

"ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتَصَوُّرِ حال أوروبا حينما

أدخل العرب الحضارة إليها. وقال المسيو (ليبري): لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا عدة قرون".

وعاد الأستاذ (لوبون) فقال: "وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدرَ الوحيد للتدريس في جامعات أوروبا نحو ستة قرون".

وتحت سلطان هذا المبدأ ترجموا الكتب القديمة وتَدَارَسُوهَا، وقاموا بنشر ما فيها، وساحوا في الأرض لاستكشافها؛ وأحسنوا للأجانب وبروهم وساووهم بأنفسهم أمام الشريعة، وعاشروهم وأَصْهَرُوا إليهم؛ وهي مَيْزَاتٌ اختصوا بها دون سائر الأمم، جعلَتْهم قريبين من قلوب مخالفيهم في العقائد؛ وقد كان من أثر ذلك أن دخل في دينهم في مدى قرن واحد نحو مائة مليون نسمة، وهَدَأَ رَوْعُ مَقْهُورِيهِمْ وأخلصوا إليهم، فلم يَشْغَبُوا عليهم، ولم يحاولوا الاستقلال عنهم؛ ولولا هذه الخِلال الكريمة التي بَثَّهَا فيهم دين الحق لاشتعلت في تلك الأقطار الفتن، ولَعَجَزَ المسلمون عن حفظ إمبراطوريتهم مدى قرون عديدة. كل هذه الظواهر الاجتماعية ليس لها شبيه في تاريخ العالم كله. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[(١)][(٢)].

(١) سورة النور، الآية ٥٥.

(٢) مجلة الأزهر ـ المجلد الثامن عشر ـ سنة ١٣٦٦هـ ص ٤٠٦.

يُخَيَّلُ لبعض السَّطْحِيِّينَ أن التقرّب إلى الله تعالى ينحصر في الانقطاع عن أعمال الدنيا والتفرّغ للعبادات كالصلاة والصوم وما إلى ذلك، وما دَرُوا أن الله تعالى يُتَقَرَّبُ إليه بكل عملٍ مُبَاحٍ قُصِدَ به إسْداء الخير لجهةٍ خاصةٍ أو للناس كافة، متى تَمَحَّضَتْ فيه النية خالصة للخير، وأُرِيدَ به وجهه تعالى، فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ "إن المسلم لَيُؤْجَرُ في كل شيء حتى في اللُّقْمَةِ يرفعها إلى في(١) امرأته". وهذه مَيْزَةٌ للإسلام جعلت منه دينًا مَدَنِيًّا يصلح لكل زمان ومكان، ولكل أمة، في أي عهد من العهود الإنسانية.

لقد فتح المسلمون الأَوَّلُونَ الأرض بعملٍ دائمٍ مستمر، وحفظوها تحت سلطانهم بجهدٍ عظيمٍ متواصل، فلو كانوا اكتفوا بما يَجْبُونَهُ من خَرَاجِها وجِزْيَةِ أهلها، لوقعوا في شَرِّ حالات البَطَر، كما حدث للرومانيين حينما أَمِنوا أعداءهم، وأَثْرُوا من أموال مَقْهُورِيهِم، ولكن المسلمين عَفُّوا عن أموال الناس، وأَكَبُّوا على الأعمال فنالوا من ورائها ثروةً لم تَكُنْ لأمة غيرهم، فمنهم من اشتغل بالتجارة فكانوا أَبْرَعَ أهلها في سائر أقطار العالم، ومنهم من زَاولَ الصناعة فبلغوا منها شَأْوًا لا يزال مَضْرِبَ الأمثال إلى اليوم، وعملوا في الزراعة فأَوْجَدُوا فيها الأساليب التي يجري عليها الأوروبيون إلى هذا العهد، كما اعترف بذلك العالم الاجتماعي (درابر) وغيره.

ونظروا أيضًا في العلوم والفلسفات وترجموها إلى لغتهم، وتوافروا على الاشتغال بها فشرحوها وزَادُوا مادتها، واكتشفوا علومًا جديدة، ولم يهملوا الفنون

---

(١) في امرأته: أي فمها.

والصناعات، فوصلوا منها إلى حدود بعيدة لم تكن معروفة من قَبْلِهِمْ، ولم يهملوا حتى الكَمَالِيّات من الأمور، فاقتبسوا ضُرُوبَ الأعمال الزخرفية، وانتهوا منها إلى نهاياتٍ لا تزال تُعْتَبَرُ من الإبداعات الفنية.

ولم يهملوا حتى الرحلات القَصِيَّة، فبلغوا إلى أقصى ما بلغه مَن سبقهم من الفِنِيقِيِّينَ واليونانيين والرومانيين، وعادوا بمعلومات ثمينة عن الأمم والممالك، دَوَّنُوها في كتبٍ لا يزال يَسْتَهْدِي بها الأوروبيون في تدوين معارفهم الأرضية والجغرافية.

ولم يُقَصِّرُوا حتى في البحث عن المعادن، فحفروا المناجم واستخرجوا منها ما اسْتَكَنَّ في بطن الأرض من الذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس، وأنشأوا لها المَسَابِك فَنَقُّوها مما عَلِقَتْ بها مما ليس منها، وصنعوا منها ما احتاجوا إليه من الأواني والآلات.

وتفرّغ رجال منهم للّغة فجمعوها ونَقَدُوها وأَلَّفُوا فيها المعاجم، ووضعوا لها نَحْوًا وصَرْفًا، ودرسوا نَثْرَهَا وشِعرها فصاغوا علومًا خاصة بها، تبحث في درجات دلالاتها وفي مُحَسِّنَات ألفاظها، وفي جَزَالَةِ معانيها، وفي أوزان قَرِيضِها.

ومما يُدْهِشُ، أنهم لم يهملوا حتى العلوم السحرية والطِّلَّسْمِيَّة والسِّيميائية وغيرها مما كان يشتغل به الأَقْدَمُون على غير هُدَى، فدَوَّنُوها وبينوا رموزها، وكشفوا مَسَاتِيرَها.

هذا عجيب من أمة قامت بالدين، واضْطَلَعَتْ بنشر دعوته بين العالمين، ولكن متى أدرك الباحث أن الإسلام نفسه يَعُدُّ من الخير والتقرب إلى الله تعالى كُلَّ بحثٍ ونظرٍ واستقصاءٍ في كل شيء، متى أخلص الإنسان لله في الاشتغال به، وقَصَدَ به النفع العام أو الخاص. إذا أدرك الباحث هذا الأصل الإسلامي بَطَلَ تَعَجُّبُه، وأَمْكَنَهُ أن يُعَلِّلَ تَسَارُعَ المسلمين إلى اقتباس كل ما عَثَرُوا به، وإلى بَذْلِ الوُسْعِ في حَذْقِهِ وتَرْقِيَتِهِ إلى أقصى ما يصل إليه الإمكان.

ومما يثبت هذا من الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾[1]. وقال عن المؤمنين العاملين: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾[2] اعتبر عملهم هذا قُرْبَةً منهم. وزَادَ الله على هذا فأمر بالانسياح في الأرض وطَلَبِ الخير، فقال تعالى: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾[3].

فسَنَّ الله بهذه الآيات للمؤمنين سُنَّةَ الانتشارِ في الأرض، والتماس فضل الله، وفضل الله ليس قَاصِرًا على التجارة، ولكنه يَشْمَلُ الزراعة والصناعة والعلوم والفنون، وكل ما يَصْدُقُ عليه أنه فَضْلٌ إلهي؛ فنَدَبَ الله الناس بذلك إلى الأخذ عن الأمم. وقد جرى النبي ﷺ على هذه السُّنَّةِ بالعمل في وَقْعَةِ الأحزاب؛ وذلك أنه لمّا بلغه أن قُرَيْشًا قد جَمَعَتِ الجُمُوعَ لحَرْبِه، واتفقت مع قبائل مجاورة لها ومع اليهود النَّازِلِينَ قريبًا منهم، وتَقَصَّدَتْهُ بجيشٍ عَرَمْرَمٍ، أخذ رسول الله يستعد للقائهم، فقال له (سلمان الفارسي): يا رسول الله، إننا اعْتَدْنا في بلادنا في مثل هذه الأحوال أن نُنْشِئَ الخَنادِق حولَ مُدُنِنا، نُعَطِّلُ بها حركات العدو. فبادرَ النبي ﷺ إلى الأخذ بهذه الوسيلة الدفاعية، وكان العرب يجهلونها، ونَدَبَ أصحابه لحفر الخندق، واشترك بنفسه معهم، وكان يحمل التراب على عاتِقِه. فكان أَخْذُهُ بما صَلُحَ من وسائل الحرب وفنونها عن قومٍ كانوا يعبدون النار لاشك يُعْتَبَرُ سُنَّةً عمليةً سَنَّها لقومه ليأخذوا بما يَصْلُحُ من فنون الأمم وصَنَائِعِهَا مع عدم الِاعْتِدَادِ بعقائدها.

وقد أَعَدَّ الله نفوس المسلمين الأَوَّلِين لإسَاغَةِ هذا الاقتباس بما كَشَفَهُ لهم من الحقائق الاجتماعية، فقال لهم في محكم كتابه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ

---

(1) سورة البقرة، من الآية ١٩٨.

(2) سورة المزمل، من الآية ٢٠.

(3) سورة الجمعة، من الآية ١٠.

لا يَعْلَمُونَ﴾ [1]، فبيَّنَ لهم بهذا أن الاِسْتِوَاءَ بين الفريقيْن مُحَالٌ، وعدم الاستواء يُفْضِي إلى تفضيل أحدهما على الآخر في ثواب الآخرة وثواب الدنيا أيضًا. وكَشَفَ لهم بقوله تعالى: **﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** [2]، وبقوله: **﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾** [3]، أنهم في حاجة إلى العلم، وأنهم مُطَالَبُونَ بالتَّزَوُّدِ منه لدينهم ودنياهم. وأرشدهم النبي ﷺ إلى أن العلم يُتَصَيَّدُ من كل مَظَنَّةٍ ولو من المشركين، فقال: "الحكمة ضَالَّةُ المؤمن، يأخذها أَنَّى وَجَدَها". وفي حديث آخر: "خُذِ الحكمةَ ولا يَضُرُّكَ من أَيِّ وعاءٍ خَرَجَتْ". فهذا الإعداد لنفوس المسلمين للأَخْذِ عن الغير دَفَعَ بهم إلى تناول كل ما وجدوه من العلم والفلسفة، ولم يكتفوا بما كان شائعًا منه، فعَمَدُوا إلى مكتبات الأمم فترجموا أمهات الكتب ونشروها في بلادهم، وزادُوا مادتَها بفضل جهودهم.

ومن العوامل المُنْهِضَةِ: سَنُّهُ سُنَّةَ التَّخَصُّصِ في العلوم والفنون، لأن المُتَخَصِّصَ في بعضها يَسْتَوعِبُ من مسائلها ما لا يستطيعه الآخِذُ من كُلٍّ منها بطَرَف، فيستطيع أن يفتح لها مجالات جديدة، وأن يَزِيدَ مادتَها بما يُفْتَحُ عليه من كَشْفِ مَساتِيرِها، فقال تعالى: **﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾** [4].

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً عمليًّا كان نِبْرَاسًا لكل من أتى بعده، وعاملاً قويًّا في إنهاض الهِمَم، وذلك أنه مَرَّ على قوم يَأْبُرُونَ نَخْلاً، أي يضعون من الطَّلْعِ المستخرَج من ذكوره على الأعضاء المُوَلِّدَة للثَّمَرِ من إناثه، فقال لهم ﷺ: لو تَرَكْتُمُوهُ لأَثْمَر، فتركوه. فلما جاء وقت الإثمار لم يُثْمِرْ، فأخبروا رسول الله بذلك، فقال لهم: أنتم أَعْلَمْ بأمرِ دنياكم.

---

(١) سورة الزمر، من الآية ٩.
(٢) سورة الإسراء، من الآية ٨٥.
(٣) سورة طه، من الآية ١١٤.
(٤) سورة النحل، الآية ٤٣.

هذا الأدب النبوي العالي سَنَّ للناس سُنَّةَ الرجوع إلى الخبراء والعمل بإرشاداتهم.

وهذه المجموعة من الآيات والأحاديث كانت عوامل رئيسية للنهضة العلمية والفنية البعيدة المدى التي دخل فيها المسلمون الأَوَّلُونَ في سنين معدودة، وكانت سببًا لَمِصِيرِ ثروة العالم إليهم. وإن دينًا يَعْتَبِرُ كل عمل يُقْصَدُ به الخير ووجه الله قُرْبَةً يُتَقَرَّبُ بها إليه تعالى، سَواءً أكان علميًّا أم فنيًّا، هذا الدين جَدِيرٌ بأن يندفع أهله في كل مجال من مجالات النشاط العقلي والعملي، وأن يَبْلُغُوا منه أقصى ما يُقَدَّرُ للقائمين من الكِفاية والتَّبْرِيز. وهذا هو الذي حدث للمسلمين، فقد أخذوا كل علم وفن عن الأمم التي اختلطوا بها وبَرَزُوا فيها جميعًا، فكان علماؤهم أَوْسَعَ علماء الأرض علمًا، وأطباؤهم أعلى أطباء الأرض كَعْبًا، والمشتغِلون منهم بسائر الفروع العلمية أئمة يُرْجَعُ إليهم في حل مُعْضِلاَتِها، وفَكِّ مُعَمَّيَاتِها، وكان صُنَّاعُهم وفَنَّانُوهم أَرْفَعَ ذوقًا وأَصْنَعَ يَدًا من جميع نُظَرَائِهِمْ في الأرض.

يَلْغُو بعض الباحثين العصريين في تعليل هذه النهضة الإسلامية العجيبة، وهذا التفوق الباهِر الذي ناله المسلمون في العلوم والفنون في سنين مَعْدُودَة، ويَعْزُونَهُما إلى العناصر الأجنبية التي اعْتَنَقَتِ الإسلام كالفُرْسِ والرُّومِ والدَّيْلَمِ... إلخ، ويَتَغَابُونَ عن أن هذه الأمم كلها كانت عند بَعْثَةِ النبي ﷺ في دَوْرِ تَدَهْوُرٍ مستمر عَقِبَ دورٍ من النهوض كانت فيه منذ قرون طويلة، فكيف يُعْقَلُ أنهم بعد إضاعة استقلالهم، وزَوال دولتهم يكسبون حياة جديدة ليست من الإسلام، ترفعهم من تَدَهْوُرِهم وتُوجِدُ لهم نهضةً قويةً خِلاَفًا للسنن المعروفة بين البشر في مثل هذه الأحوال؟

لا شك في أن هذا البعث الجديد لهم ولجميع العناصر الْمُكَوِّنَةِ للأمة الإسلامية كان ببركة الإسلام، وحكمة تعليمه، فهو الذي وَحَّدَ بين هذه الأمم كلها بعد أن خَلَعَها من جنسياتها، وجَرَّدَها من جميع الفَوَارِقِ التي كانت سببًا في نزاعاتها، وصاغ

منها أمةً عالميةً حَلاَّها بروح منه، يُبْلِغُها أقصى مَرَاتِب الكمال الأدبي والاجتماعي والعُمْرَاني.

ولو كان الأمر غير ما ذكرناه لَلَفِظَتْ بِنْيَةُ الإسلام هذه النهضة، وحالَتْ بين الآخِذِينَ به وبينها، ولَوُجِدَ بين هؤلاء المجدِّدين وبين المحافظين نِزَاعٌ يُفْضِي إلى قَتْل الأَوَّلِين وإخْماد حركتهم كما حدث في كل أمة قبل الإسلام، ولكن المُقَرَّرَ تاريخيًّا أن الأمة الإسلامية اندفعت في هذه النهضة مُوَحَّدَةَ الأجزاء، مُتَكَافِلَةَ الأعضاء، وأن خلفاء المسلمين ووزراءهم وعِلْيَةَ علمائهم وقادتهم في كل بلد إسلامي كانوا يُنَشِّطُونَ هذه الحركة المدنية بأنفسهم وأموالهم، وليس يُعْقَلُ أن يندفع الكافة في تيارٍ يُحَرِّمُهُ عليهم دينهم الذي كان في أَرْفَعِ درجات سُلْطانِه.

وها نحن اليوم – وجميع عناصر العالم الإسلامي – في دَوْرِ نهضة قوية، فلِمَ لا يُحَرِّمُها علينا المحافظون ورجال الدين؟ أستغفر الله! بل هم قد أصبحوا في مقدمة الدَّاعِين لها كما كان عليه أوائلهم من قبل. فلا شَكَّ أن شُبْهَةَ أعداء الإسلام داحِضَة، وتعليلاتهم لنهضة المسلمين الأولى ساقِطة، وله الحمد في الأولى والآخرة[1].

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الخامس ـ سنة ١٣٥٣هـ ص ٣١١.

في الزواج، ووحدة الزوجة، وتعدد الزوجات

الزواج حاجة من الحاجات المعيشية، غَرَزَها الخالق الحكيم في الكائنات الحية لحفظ أنواعها، واستمرار وجودها. فإذا لم يجعله حاجة مَاسَّةً مُرْتَكِزَةً على أقوى الغرائز النفسية لم يَحْفِلْ به حَيٌّ، وبخاصةٍ في النوع البشري؛ لأن تكاليف الحياة الزوجية شاقة لا يتحملها الإنسان إلا إذا كانت حاجته إلى الزواج قاهرة.

وإنّا لَمُورِدُونَ كلامًا عامًّا عن هذه العلاقة الاجتماعية، ثم مُرْدِفُوهُ من الأبحاث بما يقتضيه موضوعه الخطير، فنقول:

وَحْدَةُ الزوجة:

وحدة الزوجة هو الأصل في الزواج، وهو أول ما حدث في العالم الإنساني، ثم تلاه تعدد الزوجات لأسباب سنَبْسُطُهَا في موضعها.

فَضْلاً عن أن وحدة الزوجة هي الأصل، فإن هُنَالِكَ أسبابًا مَعِيشِيَّةً واجتماعية تدعو إليها. مثال ذلك: الأمم التي يَصْعُبُ على آحادها الحصول على ما يكفيها من المواد الغذائية، كالقبائل الساذجة المنتشرة في البرازيل من أمريكا الجنوبية، فإن قلة الغذاء تُجْبِرُ رجالها على الاكتفاء بزوجة واحدة، لصعوبة الحصول على القُوت. وتجرِي هذا المُجْرَى عَيْنَهُ قبائل "البوشيمان" في إفريقيا، فإنهم مع سماح شرائعهم لهم بتعديد الزوجات يكتفون غالبًا بزوجة واحدة لتلك العلة عَيْنِها.

وقد شُوهِدَتْ عَلاقةٌ أكيدة بين وحدة الزوجة وبين شُغْلِ القبيلة لسَطْحٍ متسعٍ

من الأرض، وتَبَعْثُرِها عليه. مثال هذا: قبائل "الفيداه" في الهند، فإنهم يكتفون بزوجة واحدة، ويتشددون في ذلك للعِلَّةِ المتقدِّمة.

ثم إن ميل المُتَوَحِّشِينَ لخطف النساء بالقوة يَدْعُو إلى توحيد الزوجة، فإن الرجل لا يتفق له اختطاف امرأتين دُفْعَةً واحدة. فكانت وحدة الزوجة سابقة على التَّعَدُّدِ لا محالة.

وقد استمر بعض المتوحشين على توحيد الزوجة مُدَّةً مَدِيدَةً، مضطرِّين إلى ذلك بصعوبة حصول الرجل على أكثر من زوجة واحدة إذا كانوا في جهةٍ لا تَكْثُرُ فيها النساء.

ومع هذا، فلم تَكُنِ الرابطة الزوجية على شيء من المتانة، لأن الأقوى من المتوحشين كان يَعْدُو على الضعيف فيَسْبِي امرأته. قال العلامة اللورد (أفبري): إن الرجل من قبائل خليج هودسون بأمريكا لا يستطيع أن يَحْظَى بزوجة إلا إذا كان صيادًا ماهرًا، وقويًّا مِقْدَامًا. أما إذا كان ضعيفًا عاش عَزَبًا ولا كرامة.

ومن الأسباب الاجتماعية التي حددت وحدة الزوجة، ارْتِقاءُ فكرة المَلَكِيَّةِ عند المتوحشين وانتظام أمر الأَخْذِ والإعطاء بينهم. وقد قَلَّتْ حوادث خَطْفِ النساء عند ما أَعَدَّتِ القبائل لها عُدَّتَها في الدفاع، فقد كان المتعرِّض لها يجد من الصعوبات ما يُثْني عزمَه، أو يقع أسيرًا فيُلاَقِي صُنُوفَ التعذيب. واستمرت هذه القِلَّة لمّا بدأت الأمم تشتري النساء بالدراهم أو تُعْطَاهُنَّ في مقابل عمل يعمله الرجال على سبيل الأجر. ومَن دَفَعَ لامرأته ثمنًا أو تَحَصَّلَ عليها بعد خدمة السنين الطويلة عَزَّ عليه أن يسلم فيها إلا بعد جِهادٍ جَهِيد.

ولمّا كان رجال القبيلة كافةً لم يَتَحَصَّلُوا على نسائهم إلا ببَذْلِ جهودٍ كبيرة، فتراهم يَتَحَزَّبُونَ مع كل من يدافع عن زوجته. ونشأ من ذلك اعترافهم لكلٍّ منهم بحق صيانة امرأته. وهذا السبب عَيْنُهُ قَلَّلَ من حوادث الطلاق، فإن الرجل متى

أَدْرَكَ أنه لا يستطيع أَخْذَ امرأة غيرها إلا بدَفْعِ مبلغٍ من المال أو بخدمةِ سنين عديدة، تَبَصَّرَ في أمر الطلاق وكَبُرَ عليه طَرْدُ امرأته.

ثم إن هذا المبدأ ساد كل السيادة في البلاد حين تَسَاوَى فيها عدد الرجال والنساء، سواءً أكانت بسبب قِلَّةِ الحروب المُجْتَاحَةِ للرجال، أمْ بغيرها من الأسباب. وفي هذه الحالة ظهر أمام تَعَدُّدِ الزوجات حائلٌ طبيعيٌّ شديد. فإنه في مثل هذه الحالة لا يمكن أن يَحْتَازَ الرجلُ بِضْعَ نساء إلا إذا أَوْجَبَ العُزُوبَةَ على بضعة رجال. هذه الحالة المحرِجة تدعو الرجال لكَرَاهَةِ تعدد الزوجات، فيَتَكَوَّنُ رأيٌ عام مُضادٌّ للتعدد فيَبْطُل.

وقد رَوَى العَلاَّمَةُ (لاو) أن هذه الحالة حدثت في قبائل "الدياكس" من جزيرة بورنيو بالأقيانوسية، فإنها بعد أن كانت مُعَدِّدَةً للزوجات رجعت إلى مبدأ التوحيد، حتى إنه كان الرئيس منها إذا عَدَّدَ زوجاته فَقَدَ مكانته في أَفْئِدَةِ قومه.

ومن فوائد وحدة الزوجة في مثل هذه الحالة أنه متى تَسَاوَى عدد الرجال والنساء في مجتمع، كان ذلك أَدْعَى لكثرة النسل وحِفْظِه. والسبب الطبيعي في ذلك ما شُوهِدَ أن عدد الذُّرِّيَّةِ يكون أكثرَ نِسْبِيًّا في المجتمعات التي يكون لكل رجل منها زوجة واحدة، من عدد الذُّرِّيَّةِ في المجتمعات التي يكون لكل رجل منها أكثرُ من واحدة من النساء.

تَعَدُّدُ الزوجات:

تعدد الزوجات موجود في كل قارات العالم، ولدى جميع الأجناس البشرية، فهو منتشر لدى "الفويجيين" من أمريكا والأوستراليين والتَّسْمانيين، وفي كاليدونيا الجديدة وتاناوفات وإيروانجا وليفو، وعند قبائل الماليوبولينزيين وتاييتي وجزائر ساندويتش وجزائر تونجار وزيلاندة الجديدة ومدغشكر وسومترا. وشائع لَدُنْ قبائل أمريكا المتوحشة جنوبًا وشمالاً، وعامٌّ عند أهل إفريقيا كافة، وعند أكثر أهل

آسيا، ولا نجد بَأسًا من أن نقول وأوروبا أيضًا. والفارق بينه عند هذه الأمم وبينه عند أهل أوروبا أن الأَوَّلِينَ يعترفون به في قوانينهم، والأوروبيون لا يعترفون به، ولكنهم يَأْتُونَهُ باسم المُخَادَنَة. فإنَّ من الشائع هنالك أن يَخْتَارَ الرجل من النساء عددًا بقَدْرِ ما يستطيع الإنفاق عليهن، ولكن خارج نطاق القانون، بحيث لا يكون لأولئك النِّسْوَةِ أَدْنَى حق يُطَالِبْنَ به الرجال إذا هَجَرُوهُنَّ أو اسْتَوْلَدُوهُنَّ أطفالاً ولم يعترفوا بهم، وقد أصبحت هذه العادة من أَعْقَدِ المسائل الاجتماعية لديهم.

وتوجد أمم تسمح قوانينها بتعديد الزوجات، ولكن تَحُولُ الفَاقَةُ بين آحادها وبين العمل بهذه الرُّخْصَة. كما هي الحال لدى قبائل "الجوندس" و"الأوستياك" و"الفيداه" بالهند.. فإذا سمحت الأحوال في بعض البيئات للنساء بالحصول على قُوتِهِنَّ بمَحْضِ كَدِّهِنَّ وكَدْحِهِنّ، فلا تمنع الفاقة السائدة في مثل تلك القبائل من تعديد الزوجات، كما هي الحال عند الأستراليين والفويجيين.

ولا يَذْهَبَنَّ أحد القارئين عند ذكرنا للأستراليين إلى أننا نقصد الإنجليز المستعمِرين لها، فإن هؤلاء لا يختلفون في عاداتهم ونظمهم الاجتماعية عن إخوانهم في بيئتهم الأصلية، ولَكِنَّا نقصد بهم القبائل العائشة في أستراليا، وهم على حالة تَوَحُّشٍ تام، ولا يقبلون أن يدخلوا في المدنية بحالٍ من الأحوال.

يبالغ بعض السُّيَّاحِ في انتشار مبدأ التعدد عن جميع الرجال في البيئات التي تسمح به، وهذا غير معقول، فإنه يلزم منه أن يكون النساء في تلك البيئات أكثر من عدد الرجال أضعافًا كثيرة، ولا نرى لذلك سببًا علميًّا، فإن الخالق – جل وعز – جعل عدد الإناث بقَدْرِ عدد الرجال مع تَفَاوُتٍ يَسِيرٍ، فتَارَةً يزيد عدد النساء بِضْعَ عشرات من الألوف، وتارة يَنْقُصُ بذلك القَدْرِ، فلو كان ما يقوله أولئك السُّيَّاحُ صحيحًا لكانت للبيئات المتوحشة سُنَّةٌ خاصة، وليس ذلك بصحيح، فقد أَثْبَتَ الرُّوَّادُ العلميون أن تَعْدِيدَ النساء في تلك البيئات قاصِرٌ على الأغنياء والقادة دون

سائر الأفراد، فإن أهالي جاوة وسومترا تسمح قوانينهم بالتَّعْدِيد، ولكنه قاصِرٌ على الملوك والرؤساء. وقد شوهد مثل ذلك في جميع الأمم المُعَدِّدَةِ للزوجات.

لتَعْدِيدِ الزوجات أسباب متعددة:

ليس الداعي لتعديد الزوجات ينحصر فيما يَتَبَادَرُ للأَذْهانِ من حب الِاسْتِكْثَارِ من الشهوات، ولكن توجد أسباب تُوجِبُه على الآخِذِينَ به في كثيرٍ من البيئات.

من ذلك: أنه قد يمتاز رجال في كل قبيل بقُوَّتِهِمُ العَضَلِيَّةِ وحِيَلِهِمُ العقلية، فهؤلاء يُعْتَبَرُونَ من كبار المحارِبين، وقد يَرْتَقُونَ إلى درجةِ الرِّياسَةِ في قبائلهم. هذه المَيْزَةُ تُمَكِّنُهُمْ من اخْتِطَافِ عدة نساء، سواءً أَكُنَّ من قبيلتهم نفسِها أمْ من قبائل أجنبية. ومن هنا اعْتُبِرَ اختطاف المرأة من علامات الفَخَارِ والمَجْد. وكلما تعددت النساء عند رجل كان فخاره أعظم وشجاعته أَدْعَى للإعجاب. فنشأ مبدأ الاستكثار من النساء قائمًا في أكثر الحالات على عاطفة حب الظهور بمَظْهَرِ الممتازين في الرجال. فنقل الرَّحَّالة (كلافيجيرو) أن ملوك المكسيك بأمريكا كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون أن يحفظوا مكاناتهم إزاءَ الناس إلا إذا أَكْثَرُوا من النساء والسَّرَارِي.

وقد أَكْثَرَ أهل الوَجَاهَةِ في جزيرة مدغشكر من احْتِيَازِ النساء، اِسْتِزَادَةً من الوجاهة، حتى اضطرت حكومتهم للحَظْرِ على غير الرؤساء باحتياز أكثر من اثنتى عشرة امرأة.

وروى الرحالة (بورتون) أن الفَخْرَ باقتناء النساء بلغ لدى بعض قبائل إفريقيا حد الإفراط، فرأى أن لبعضهم نَحْوَ ثلاثمائة امرأة.

وانتقل مبدأ التفاخر بعدد النساء إلى أوروبا، فرَوَى المُشْتَرِعُ (مونتسكيو) الفرنسي المتوفى سنة ١٧٥٥، أن ملوك الأسرة الميروفنجية التي حكمت فرنسا من القرن الخامس إلى ٧٥٢، كانوا يعتبرون من المَفَاخِرِ استكثارَهم من النساء.

وهناك أسباب اقتصادية بَعَثَتْ على تعدد الزوجات، منها: أن المرأة كانت تُقْتَنَى لتشتغل في الحقل وفي البيت. وقد اعتاد رؤساء كاليدونيا الجديدة بالأقيانوسية أن يتزوج أحدهم من عشرة إلى ثلاثين امرأة بقصد تشغيلهن في الحِرَاثَةِ والسِّقَايَة.

هذا السبب الاقتصادي أَدَّى أهلَ إفريقيا أَجْمَعِين إلى تعديد الزوجات، فإنَّ عَمَلَ النساء هُنَالِكَ السُّرُوحُ إلى مَسَاوِفَ شَاسِعَةٍ لجَلْبِ الخشب والماء، وأزواجهن يُجْبِرُونَهُنَّ على الزرع والحصاد.

وعند أهل "الكَفْر" – وهو قطر من إفريقيا الجنوبية – يُشَغِّلُ الرجل امرأته في أَشَقِّ الأعمال وأقساها، وهو يعتبرها بَقَرَةً له. وقد كَلَّمَ الرحالة (شوتر) الإنجليزي أحد الكَفِرِيِّينَ في شَأْنِ تشغيل امرأته، فقال له: كيف لا أُشَغِّلُها وقد اشتريتُها بمالي؟

وبِنَاءً على هذا، فإنَّ كَثْرَةَ النساء عند هؤلاء الأقْوام هي بمثابة كَثْرَةِ الأَرِقَّاءِ والخُدَّام.

ومما ساعد على انتشار تعدد الزوجات، اعتبار هذه العادة من الصالحات الدينية. وقد دَلَّتْ أحوال قبائل "الشيبوي" على أنهم يعتبرون المُعَدِّدَ للزوجات مُحْتَرَمًا عند الروح الأكبر، وهو معبودهم الأَقْدَس.

وكذا كان الشأن عند قدماء المصريين. فإن تعديد الزوجات عندهم كان لا ينافي الأخلاق الفاضلة ولا التعاليم العالية. وما خَلَّفُوهُ من الآثار يدل على أن الله بارك في رجالٍ كانت لهم أزواج عِدَّة، وسَرَارٍ كثيرة.

ومن الغريب، أن هذا الاعتبار لمبدإ تعدد الزوجات ليس خاصًا برجال أولئك القبائل، بل بنسائهم أيضًا. فقد شُوهِدَ أن نساء قبائل "الكوش" من أمريكا الشمالية لا يَنْظُرْنَ لتعدد الزوجات بعَيْنِ الكَرَاهَة، ولَكِنَّهُنَّ يَعْتَبِرْنَها أمرًا حَسَنًا. والسبب في ذلك أن المرأة لما كانت مُعْتَبَرَةً كالبهيمة فهي تحب أن يكون معها شريكات لتَخِفَّ عنها الأعمال. وقد رَوَى الرحالة (لفنجستون) الإنجليزي أن نساء قبائل

"الماكولوس" من إفريقيا عندما سَمِعْنَ بأن الإنجليز لا يُعَدِّدُونَ الزوجات صِحْنَ قَائِلاتٍ: إنهن لا يستطعن أن يَفْهَمْنَ كيف أن النساء الإنجليزيات يَرْضِينَ بهذه العادة، فإن الرجل الفاضل يجب عليه أن يُعَدِّدَ زوجاته إدْلالاً على غِناه وسماحته.

هذه الآراء – كما يقول الرحالة المذكور آنِفًا – سائِدَةٌ لَدَى القبائلِ النَّازِلَةِ على طول نهر "الزامبيز" من إفريقيا الجنوبية.

ومما شُوهِدَ عند السُّودِ: أنه ليس لديهم حب ولا عطف على المرأة غير المَيْلِ البَهِيميِّ المعروف. فقد رَوَى (مونتيرو) الرحالة الذي مكث في السودان سنين كثيرة، أن الأَسْوَدَ لا يعرف الحب للنساء ولا الغَيْرَةَ عليهن، وليس في لغتهم ما يُعَبِّرُ عن هذه المعاني.

وذكر اللورد (أفبري) الفيزيولوجي الإنجليزي أن قبائل "الهوتنتوت" من إفريقيا ليس بين رجالهم ونسائهم تَعاطُف، حتى لَيَظْهَرُ أنهم يجهلون الحب جهلاً تامًّا. وذَكَرَ مثلَ ذلك عن أهل "الكَفْر" من جنوب إفريقيا. وقال إن في "يارينا" من السودان يتزوج الرجل بالمرأة ولا يهتم بذلك إلا بقَدْرِ ما يهتم بقَطْعِ سنبلة من سنابل القمح، ولا يُشَاهَدُ عليه أقل علامة للمَيْلِ إليها.

وليس هذا بعيب تعدد الزوجات، ولكنه عيب الجهل، إذ إنه يوجد بين القبائل المُوَحِّدَةِ للزوجة أيضًا.

ومما يجب لَفْتُ النظر إليه أن نتيجةَ هذه الجَفْوَةِ المُتَبادَلَةِ بين الرجال والنساء تظهر بأَفْظَعِ مظاهرها في سن الهَرَم، لأن الرجل لا يكون قد غَرَسَ في قلب امرأته حُبًّا في صباه يَحْمِلُهَا على العناية به في كِبَرِه، فتُهْمِلُهُ أو تُقَصِّرُ في خدمته، فيموت على أسوإ حالة.

مُتناقِضاتٌ أخرى لَدَى المتوحشين:

لا يَتَأَتَّى لباحثٍ أن يجد قانونًا تسير على مُوجَبِهِ أحوال المتوحشين، وذلك يرجع

لأن الإنسان لم يُطْبَعْ كما طُبِعَ الحيوان على أوضاعٍ واحدةٍ من الحياة، بسبب ما جُبِلَ عليه من الحرية في تصرفاته.

فبينما ترى كثيرًا من المتوحشين لا يَأْبَهُونَ برابطة الزواج، ولا يشعرون بأقل عَطْفٍ على نسائهم، ترى قبائل أخرى تخالفهم في هذه الميول كل المخالفة. مثال ذلك أمة "الفيداه" من بلاد الهند، فإنها تُقَدِّسُ الرابطة الزوجية إلى أقصى حد، فلا تسمح لزوجيْن أن ينفصل أحدهما عن الآخر لأيٍّ سببٍ من الأسباب، مُقَرِّرِينَ أنه لا يجوز أن يُفَرَّقَ بين الرجل وامرأته إلا الموت. وهذا مُسْتَغْرَبٌ من قبائل لا تزال في الدرجة الأولى من سلم الاجتماع.

هل صادف الباحثون عَلاقةً بين قوةٍ أو ضعف الروابط الزوجية وبين الأخلاق؟ لم يشاهَد شيء من ذلك، فهذه قبائل "التلنكيس" مع احترام رجالها لنسائهم، وحُسْنِ معاملتهن، ومع أن نساءها شديدات العَطْفِ على أزواجهن، ومُطِيعات لهم، تجدهم من ناحية أخرى أَكْذَبَ خَلْقِ الله أَلْسِنَةً، وأشدهم لُصُوصِيَّةً، وأَقْساهم قلوبًا. فتجدهم يُمَثِّلُون بأَسْراهم تمثيلاً مَرِيعًا لَعِبًا وَلهوًا، ويقتلون أَرِقَّاءَهم قسوةً وتَوَحُّشًا.

كذلك حال قبائل "البشاسان"، فبينما تصادفهم يقتلون النفس بلا أقل حَرَج، ويكْذِبون كذبًا لا حَدَّ له، تجد نساءهم من أفضل نساء الأرض محافظةً على الإخلاص الزوجي.

وعلى شَاكِلَتِهِم سكان جزائر "فيجي"، فبينما هم على غاية ما يكون من القَسْوَةِ والفَظاظَة، تجدهم يحفظون عهد الزوجية حفظًا لا مَذْهَبَ بعده.

ومن متناقضات المتوحشين أن المرأة في قبائل "كوتياجاس" مادامت بلا زوج، لها أن تعمل ما شاءت من الجَرْيِ وراء هواها، ولكن متى تزوجت حافظت على عِفَّتِها حِفْظًا ليس بعده مَرْمَى. ويجرى مجراها نساء قبائل "كوماناس".

وعند أهل بيرو من أمريكا الجنوبية لا يهتم الأب بالهَيْمَنَةِ على سيرة ابنته، ولا تُعَابُ لدى قومها أن يكون لها أَخْدَانٌ كثيرون. ولكنها متى تزوجت رَاعَتْ أَدَقَّ شَرَائِطِ العِفَّة، وأصبحت مثالاً في الإخلاص للرابطة الزوجية. وقبائل "السيبشاس" لا يهتم رجالها أقل اهتمام بسيرة نسائهم قبل الزواج،ولكنهم يحاسبونهن حسابًا عسيرًا على مراعاة الاستقامة بعد الزواج، ويتأثرون من خَرْقِهِنَّ سِيَاجَ العفة تَأَثُّرًا يخرجهم عن حدود الاعتدال.

العوامل التي تؤثر في تحسن حالة النساء:

الذي شاهده المُسْتَقْرُونَ لأحوال النساء عند المتوحشين، أن المرأة في القبائل الحربية تكون أكثر عبوديةً للرجل، منها في القبائل التي بدأت فيها حياة صناعية، لأن الحياة الحربية تجعل بين عمل الرجل وعمل المرأة حدًّا فاصلاً، خلافًا للحياة الصناعية، فإنها تُحْدِثُ بين الجنسين شبه تَسَاوٍ لاشتراك الكافَّة فيها، فتنشأ للرجل فكرة المساواة وتَنْصَلِحُ حالة المرأة.

من أصرح الأمثلة على ما تقدم ما يشاهَد في أحوال القبيلتين المتجاورتين في "بولونيزيا"، وهما "الفيجيون" والساموان"، فالأَوَّلُونَ يشتغلون بالحروب والغارات، وحكومتهم استبدادية مُطْلَقَة، وفي أفرادهم خشونة تبلغ حدود البَهِيمِيَّة. وللزوج على امرأته من الحقوق ما له على الحيوانات العُجْم، فيستطيع بيعها أو ذَبْحَها والتَّغَذِّي بلحمها إنْ شاء.

أما لدى "الساموان" الذين نشأت فيهم مبادئ الصنائع، فقد وصلوا في ظلال السلام إلى حالة حَسَنَةٍ في حكومتهم وآدابهم، وحَسُنَتْ حالة المرأة عندهم إلى حد أنّ الرجل لا يُحَمِّلُها من الأعمال إلا ما تطيق، ويترك مالا تطيقه لنفسه. وإذا حدث أن الرجل فَارَقَ امرأته بعد معاشرتها سنين، ترك لها شَطْرَ ماله لتعيش به.

هذه لَـمْعَةٌ من أحوال المرأة في البيئات المُنْحَطَّة لا غِنًى لباحثٍ عن الإلمام بها، ليُدْرِكَ فضلَ الديانة الإسلامية ومكانها من تَقْوِيمِ أحوال البشر[1].

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الثامن ـ سنة ١٣٥٦هـ ص ٤٩٢.

في الأفراد والجماعات

لا يَصْدُرُ من الإنسان أي عمل إرادي، حَسَنًا كان أو سيئًا، إلا تحت تأثير حالة نفسية تَدْفَعُ إليه؛ وهذه الحالة تَتَوَلَّدُ في النفس من شعورها بحاجاتٍ من ضُرُوبٍ شَتَّى، ولا تُسْتَثْنَى من ذلك الحيوانات العُجْم، ولكن مع هذا الفارق العظيم، وهو أن الإنسان يسيطر على أعماله مَذْخُورٌ من علم وعقيدة وخلق، وأما الحيوان فيندفع وراء شؤونه الحيوية المحدودة مَقُودًا بحاجاته المادية، وغرائزه الفِطْرِيَّة.

بدأ الإنسان حياته على الأرض على حالةٍ من السذاجة لا تميزه عن العَجْمَاوَاتِ في كبير شيء، بل كان العَجْمَاوَات بما فُطِرَتْ عليه من ضروب الصناعات الضرورية لحياتها، وما مُتِّعَتْ به من صُنُوفِ الأعضاء المناسبة لإحداث تلك الصناعات، وما غُرِزَ فيها من الإلهام لإتمامها على أكمل وجه، كان لها السَّبْقُ في هذا المجال حتى اضْطُرَّ الإنسان لتقليدها في كثيرٍ من أعمالها.

ولكن الإنسان بما أودِعَهُ صَمِيمُهُ من الروح الإلهي، أخذ ينظر فيما حوله ببَصِيصٍ من نور هذا الروح، فانفتحَت أمامه باحات النظر في نفسه وفي البيئة التي نشأ بها، وفيما يجب أن يعمله فيها، ليَأْمَنَ على نفسه أولاً ثم على زوجه وولده، ثم على عشيرته. فحصل على معارف بدائية ساذجة على حياته الشخصية ووجوده المحافظة عليها، ثم على الجماعة التي يعيش معها وأساليب الدفاع عنها؛ وأَدّاهُ شعورُه على وجوه الارتباط بها إلى النظر في الأصول التي يقوم عليها هذا الارتباط،وهذه أول ما جاش بصدره من معاني الحقوق والواجبات، ومبادئ المُبَاحَاتِ والمَحْظُورَات، كل ذلك في دائرة الضرورات الحيوية.

ولكن الروح الإلهي المُسْتَكِنَّ في صميم الإنسانية لم يَلْبَثْ، بعد أن أَمَّنَ الأفراد على حياتهم الشخصية، أنْ دَفَعَ بهم إلى النظر فيما هو حَسَنٌ وما هو قبيح، وفيما هو خير وما هو شر، كل ذلك في حدود الحالة البدائية؛ ولكن هذا الروح الكريم لم يَنِ بعد أن وجد الإنسان فراغًا في التفكير في ذاته: كيف نشأَت ومن أين أَتَتْ، وفي مصيرها إذا تَهَدَّمَ جُثْمانُه، وفيما آلَ إليه أمر آبائه وأسلافِه من قبله، أن يَجُولَ جولات بعيدة المدى في المُجَرَّدَاتِ العالية.

كان من حكمة قَيِّمِ الوجود عز وجل، ومن مُقَوِّماتِ العالم الإنساني، ومصلحته المتعلِّقة بتطوّره وكماله، أنْ جعل في كل بيئة بشرية رجالاً مَيَّزَهُمْ ببَصِيرَةٍ نَيِّرَة، وعقلية متميِّزة، اِسْتَأْهَلُوا معها أن يكونوا لغيرهم قادةً رُوحيين، يعينونهم على هَتْكِ حُجُبِ الحيوانية، وكشْف الأسرار الوجودية. وقد ثبت في علم الحفريات أن الإنسان اعتقد بوجود عالم الروح من أول نُشُوئِه، بدليل ما وُجِدَ على أسلحته من الطَّلاسِم والرموز. ولم توجد آثارٌ قَطُّ لأمةٍ كانت تخلو من هذه العقيدة.

كل هذا يدل على أن الإنسان بما مُنِحَهُ من الروح العلوي، لم يلبث بعد وجوده أن حام حول المُجَرَّدَات، ولو على أسلوبٍ بدائيٍّ ساذج، مُحَاوِلاً بذلك أن يَحُلَّ من العالم المَحَلَّ الممتاز الذي أعدتْه القدرة التي أوجدَتْه على هذه الشاكلة للحُلُول فيه، وهذا الإعداد يُبَرِّرُ كل ما نِيطَ به من خلافة الله في الأرض، وكل ما أُوعِدَ به من تَبِعَاتٍ إنْ هو قَصَّرَ عن هذه الغاية.

وهذا الاستعداد العالي في الإنسان لإدراك المُجَرَّدَاتِ اقْتَضَى أن يرسل الخالق إليه في الحِقْبَةِ بعد الحقبة من الدهر، رُسُلاً من بني نوعه مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ حتى لا تستولي عليه الغَفْلاتُ فتَحْرِمَهُ متابعةَ عُرُوجِهِ إلى الدرجة التي خُلِقَ لِيَشْغَلَها في هذا الوجود.

وقد مَرَّتْ على الإنسان وهو في هذا الدور دُهُورٌ دَهَارِير حَذَقَ فيها فَهْمَ أصول

المنطق الفطري المحصورة في آياتٍ من الوحي الإلهي الذي تَوَلَّى الإنسان منذ أقدم الأزمان، وهو مُؤَدَّى قوله تعالى في القرآن: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[1]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾[2]، ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[3]. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[4]، ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[5]، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[6]، ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[7].

كل هذه الأَوَّلِيَّاتِ الأدبية وردت في جميع الكتب السماوية التي تَوَلَّت الجماعات البشرية من أقدم العصور إلى يومنا هذا، فكان منها للإنسان ذُخْرٌ أدبي بَنَى عليه سيرتَه في قومه، وشَذَّ عنها بغَلَبَةِ الطبيعة عليه في معاملة غير الأَقْرَبين.

اعتمادًا على هذا الذُّخْرِ الأدبي، أعلن الحق جل وعز في وَحْيِهِ الأخير نامُوسًا اجتماعيًا تؤيده جميع المعارف الخاصة بحركات النفوس واستحالاتها إلى أعمال في الخارج، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[8]، أي أن الله جَلَّتْ قدرته لا يُغَيِّرُ ما بقَوْمٍ من بؤس وضَعَةٍ، أو من عِزٍّ وجاه

(١) سورة فصلت، الآية ٤٦.
(٢) سورة يونس، من الآية ٢٣.
(٣) سورة الإسراء، من الآية ١٥.
(٤) سورة الزلزلة، الآيتان ٧، ٨.
(٥) سورة البقرة، من الآية ١٩٤.
(٦) سورة البقرة، الآية ١٩٠.
(٧)سورة فصلت، الآيتان ٣٤، ٣٥.
(٨)سورة الرعد، من الآية ١١.

حـتى يغيِّروا ما بأنفسهم، إما مما يُنَافي مصلحة الوجود من نَوايا الشر، ومَرامِي الظلم والعدوان، وإما مما أَوْجَبَ لهم ما هم فيه من السُّؤْدَدِ باتِّباع السُّنَنِ التي أوصلَتْهم إليه.

هذا من النواميس الإلهية الخاصة بالشؤون الشخصية والاجتماعية مما يجب أن يُحْفَظَ ويُكَرَّرَ التأمل فيه.

يُخَيَّلُ لأكثر الناس أن الأمور الجزئية والكُلِّيَّةَ في هذا العالم تجري على غير نظام، فهي لا تَتْبَعُ سيرة الإنسان في حياته من صلاح أو فساد، ولا ما في نفسه من نية خير أو شر؛ ويؤيدهم في هذه العقيدة أن التوفيق يُوَاتِي الخَيِّرين والشِّرِّيرين بدون تمييز، وقد يُحَابِي الأخِيرِين فيُسَوِّدُهم على الأَوَّلِين؛ فيقولون لو كان في العالم قانون يَحُدُّ من مَتَاعِ الشِّرِّيرِين لَمَا حاد عن جَادَّةِ الاستقامة أحد.

والحقيقة أن هؤلاء المستشكلين وَاهِمُون، فليس المال ولا السُّؤْدَدُ من مَعايير السعادة التي يَطْمَحُ إليها الإنسان؛ فالسعادة شعور في القلب يَمُدُّ صاحبه بالطمأنينة والغِبْطَة، ويَحْبُوهُ بالسَّكِينَةِ والسعادة؛ وإنْ كان لا يملك قُوتَ يومه. ودليلنا على ذلك أن كبار القادة من المرسلين والأنبياء والفلاسفة والحكماء آثَرُوا الفقرَ على الغِنَى، وكان أحدهم لو أراد لادَّخَرَ لنفسه وذَوِيهِ أكبر قسم من ثروة الأمة التي كانت تَفْدِيهِ بروحها؛ ولكنه آثَرَ الكَفَافَ من العَيْشِ واحْتَذَى أهلُه وذَوُوهُ والمقرَّبون إليه مثاله، فخرج كثير منهم عن أموالهم وعاشوا فقراءَ اكْتِفَاءً بما يشعرون به من السعادة القلبية التي لا تَعْدِلُها لَذَّةٌ مادية مهما عَظُمَتْ. وفي سيرة النبي ﷺ وسيرة آله وصَحَابَتِهِ الأَقْرَبِينَ مثالٌ محسُوسٌ لما نقول، حتى إن النبي ﷺ تُوفِّيَ ودِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عند يهودي، وهو الرجل الذي كان تحت يده مال دولته، وتولى خليفته (أبو بكر) فأصبح يعمل لتَحْصِيلِ قُوتِهِ بكَدِّه، فاعترض عليه (عمر) قائلاً له: يا أمير المؤمنين، إنك لا تستطيع أن تجمع بين النظر في مصالح الأمة وبين العمل لمَعَاشِك، وإنما أنت

أَجِيرٌ للأمة اِنْتَخَبَتْكَ لِتُدَبِّرَ أمورَها، فخذ من بيت المال ما يكفيك. فاقتنع أبو بكر بقوله وكان يأخذ من مال الأمة ما يُقَوِّتُهُ هو وأهله كرجلٍ من عامة المسلمين.

فالذين يقيسون السعادة بالثروة وَاهِمُون؛ ألم تَرَ أن الله جعل العاقبة للمتقين، فنصر أصحاب هذه المبادئ وأَدَالَهُمْ من أعدائهم، وأَخْضَعَ هؤلاء لسلطانهم صَاغِرِين؟

ولا تَشِذُّ الجماعات البشرية عن هذه السُّنَّة؛ فالأمة التي تَبْنِي عظمتَها على القوةِ والغَشْمَرِيَّةِ وعدمِ المُبَالاَةِ بالنَّوَامِيسِ الإلهية لا تَلْبَثُ أن ينهارَ بُنْيَانُها، ويزول سلطانها، وتصبح كَأَنْ لم تَغْنَ بالأمس. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ﴾ [1].

فمَدَارُ السعادة للآحاد والأمم على الحالة النفسية الفردية أو الاجتماعية، فمن شَذَّ عن هذا الناموس وخُيِّلَ له أن الأمور تجري سَبَهْلَلاً فهو في ضلالٍ بعيد. ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [2][3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١١.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان ٢، ٣.

(٣) مجلة الأزهر ـ المجلد الثامن عشر ـ سنة ١٣٦٦هـ، ص٧٨١.

هل الحكومة العالمية تصبح علاجًا لأوروبا ؟

العالم كله يَنْشُدُ النهايات المطلقة اليوم، وقد كاد يَعُمُّ هذا الشعور العالي العامة أيضًا بسبب ما أَلانَت الدِّعايات الفلسفية من جُمُودِهِمْ على مَوْرُوثَاتِهِمْ، وتعصّبهم لعقلية آبائهم. فلم يَكُنِ العالم في عهدٍ من عهوده أكثر استعدادًا للتحقيق والتَّمْحِيصِ منه اليوم. وهذه الحالة العقلية كما هي مقدمة لكل تطور عقليّ، كذلك هي ما دعا إليها الإسلام لتجريد العقل للنظر بعيدًا عن المؤثِّرات عليه من الشَّوَائِب النظرية والوراثية.

هذه الحالة النفسية أَثَّرَتْ في العالم الغربي تأثيرًا شديدًا حتى يكاد لا يُطَاقُ أن يقوم فيه دَاعٍ لدين أو مُصْلِحٍ لمذهب، ولولا ذلك لأصبحت الأمم كلها اليوم تَدِينُ بالمذهب الرُّوحي بعد أن استَنفد القائمون به كلَّ ضُرُوبِ التَّمْحِيصِ في تحقيق ظَوَاهِرِهِ، لا سِيَّما والدّاعُونَ إليه جُلُّهُمْ من أئمة العلماء، أصحاب الخبرة الواسعة بكل ما يتصل بهذه البحوث من علاقات بالشخصية الإنسانية، وبِقُوَى النفس الكامِنَة؛ فوقوف الجماعات عن التَّرَامِي على هذه البحوث على ما فيها من المُغْرِيَات، يدل على مَبْلَغِ ما تأثرتْ به النفوس من النُّفُورِ من العقائد، ومن كل ما يتصل بها من شئون، وهو انقلابٌ شديدٌ اقْتَضَاهُ إسرافُ الذين كانت بيدهم مَقَاليدُ هذه الأمور في الاسْتِهَانَةِ بعقلية الجماهير.

ولكن هذه الحالة لا تَدُوم، ولا يُعْقَلُ أن تدوم، لأنها مُجَرَّدَةٌ من مُقَوِّمات الدَّوَام، فلا تزال العقول ظَمِئَةً إلى ما يَثْلَجُ عليه صدور أصحابها من فهم المَجاهِيل التي

تَحْتَوِشُهَا من كل جانب، والنفوس قَلِقَةٌ على مصيرها في مُضْطَرَبِ هذه الفِتَنِ التي لم يتبين في كل ما عُولجت به الحد الذي تقف عنده، بل الحل الذي تَتَصَافَى النفوس بعده.

وهنالك مسائل أخرى تتعلق بالأخلاق والآداب، وكلها مسائل شائِكة لا يُعْتَقَلُ بعد كل ما بُذِلَ فيها من البيانات والحلول ولم تَنْتَهِ إلى غاية، أن يوجد لها مدًى تنتهي عنده.

كان الفلاسفة الماضون يقولون: لا يَضِيرُ الإنسانَ أن تكون حياته مضطربة فهو صائِرٌ إلى التَّكَمُّل، حتى ولو أَفْضَى ذلك منه إلى الحروب المزعجة. ولكن لا يستطيع فلاسفة اليوم أن يقولوا مثل هذا بعد ما تبين أن الإنسان يتهيأ لأن يقاتل أخاه بما يُلاَشِيهِ ويُلاَشِي الممالك التي كانت تُؤْوِيهِ، فالحرب المُقْبِلَة حتى ولو لم تستعمل فيها القنابل الذرية ستأتي على كل عامر في الأرض، فتجعله بَلْقَعًا. فإن القلاع الطائرة وما تحمله من القنابل الفَتَّاكَة كَفِيلَةٌ بأن تجعل أَعْمَرَ المدن الأوروبية خرابًا يَبَابًا في دقائق معدودة.

وإذا جرى الإنسان في آرائه على هذا النحو، أصبحت هذه الحالة العقلية دَيْدَنًا له فلم يقف منها عند حد، بل ينسحب منها إلى اللا أدرية، فيصبح أمر الجماعات مَحَلَّ نزاع مستمر، وتنقسم الأحزاب على نفسها، وتتفرق كلمتها، فلا تعود تمثل وحدة محترمة ذات رأي له وزن في الشئون العامة، كما أصبح عليه الحال في دول أوروبا الوسطى حيث أصبح الخلاف دَيْدَنَ الأحزاب، فما يَرْضَى به جماعة تَسْخَطُ عليه جماعة أخرى، ولو نُفِّذَ على علاته كان خيرًا للجماعة من عدم تنفيذه، ولكنه يُعَلَّقُ وتدور حوله البحوث، وتنعقد في سبيله الجماعات، وتقوم من أجله المظاهرات والمعارك.

وقد يشتد السَّخَطُ لدى بعض الطوائف، فتَعْمَدُ إلى تحطيم المرافق العامة، وقطْع

الجسور والخطوط الحديدية على السَّابِلَة، وتعطيل آلات التلفون والتلغراف، حتى لا يَخِفَّ بعضُهم إلى إغاثة بعض، مُعْتَبِرِينَ ذلك كله من الحركات المشروعة التي للشعب أن يُعَبِّرَ بها عن مَحَابِّهِ ومَكَارِهِه، وهي وسائل - كما ترى - لا تدل على عقليةٍ محترمة، ولا على نفسيةٍ مُتَّزِنَة، بل هي حالة لا يتضح منها متى يَتَغَلَّبُ حكم العقل على هذه الحال من غَلَبَةِ الأهواء، وثورة الشهوات.

هل لهذه الحالة من التَّشاحِّ والتَلاَحِي بين الجماعات في كل أمة من حَدٍّ فتقف عنده؟

إن هذه الحالة تُنَافِي قواعد النظام في الأحكام، وتَنَاقِضُ مُوجِبَاتِ الاستقرار في الأمم، فلا تعيش الأمم في جَوِّها إلا كما يعيش المريض فى جوٍّ مُضْطَرِبٍ من حالته المَرَضِيَّة، لا تُوَفَّقُ فيه لخيرٍ ما تَرْجُوهُ لنفسها من سَيْرٍ منتظم في شؤونها الداخلية، وسبيلٍ سَوَاءٍ في علاقاتها الخارجية.

إن مَن ينظر إلى الحالة الأوروبية العامة من هذه الزاوية، يأخذه العَجَبُ من أن يَؤُولَ أمرُ الجماعات المُتَمَدِّنَةِ إلى هذه الحالة المضطربة، ويعجز أن يرى كيف تعود إلى حالتها الطبيعية.

إن الذي يَلُوحُ للمفكر أن هذه الحالة مقدِّمة لعهدٍ جديدٍ للعالم، ولعلاقات جديدة تنشأ بين الأمم، وبين الجماعات وآحادها. وليس هذا بعجيب؛ فقد سبقت جميعَ التطورات الاجتماعية حالاتٌ من هذا القَبِيل، ظُنَّ معها أن التوازن بين أجزاء الشعوب قد بَطَل، وأنه لا توجد قوة في العالم تُعِيدُهُ إليه، على ما كان عليه. ويكون ذلك عادةً عَقِبَ حدوث حروب طاحِنَة، وطُرُوءِ حوادث عارِمَة، وانقلابات صاخبة؛ فيحدث إذ ذاك لمجموع البشرية مثل ما يحدث للفرد حين تَحْتَوِشُهُ الصعوبات، وتحيط به الكوارث، وتُسَاوِرُهُ الجَوَائِحُ من كل المَظَانّ، فلا يجد أَجْدَى في التغلّب عليها جميعًا من الخضوع لها، فيَلْبثُ مُطَأْطِئًا الرأسَ لها حتى

تمر سِرَاعًا أو بِطاءً، ويعود هو إلى حياته العادية وقد اكتسب تجارب نافعة، وحصَّلَ معرفةً مُوَاتِيَة.

يرى المتأمِّل أن هذا الرأي قد يكون هو الحق، فإن التشدّد البَادِيَ من جميع أصحاب المذاهب الاجتماعية لفَرْضِ تعاليمها على مجموع خُصُومِهِمْ دون أن يحسبوا لإمكان ذلك حسابًا؛ بالمسالمة أولاً، فإن لم تَفِدْ فبالقوة؛ قلنا إن مثل هذا التشدد لا يَقْدَحُ من كبريائه إلا الانتهاء إلى النهاية التي ذكرناها.

ومما يَلُوحُ للفكر أيضًا أنَّ تَرَفُّعَ الأحزاب عن الخضوع لحزبٍ من الأمة، ويكاد يَشِيعُ ذلك حتى لَدَى الإنجليز والأمريكان، يُشْعِرُ بأن سلطان الحزب الواحد أصبح لا يكفي في إخضاع الأحزاب الأخرى، وأنه لابد له من صوت عالمي لإحْدَاثِ هذه النتيجة. إذا كان الأمر كذلك، فقد آن وقت تأليف الحكومة العالمية التي رَفَعَ عَلَمَها في أمريكا (جاري ديفز). وليس ما يمنع من حدوثها إذا كان الإصلاح العالمي يَتَطَلَّبُهُ، والاستقرار العام في حاجة إليه.

ولا يقال كيف يتم ذلك، فإن تَخَاذُلَ الحكومات عن أداء مَهَامِّها، وتَعَطُّلَ العالم عن أعماله في مختلف البيئات والصناعات، لتَرَابُطِ العالم بعضه ببعض في العصر الحاضر، كل ذلك يُقَوِّي القول بضرورة وَضْعِ إشرافٍ عالمي على الأمم، وعند ذلك تشعر الأعضاء الشاذة من البشرية أنها أصبحت تحت ضغطٍ لا قِبَلَ لها بدَفْعِهِ عنها، فَتَنْقَادُ له مُرْغَمةً، ويكون في ذلك فَتْحٌ جديد للبشرية تَنْعَمُ به تحت جَوٍّ من السلام والإخاء والحرية[١].

---

(١) مجلة الأزهر – المجلد العشرون سنة ١٣٦٨هـ، ص ٢٩٢.

قال العلامة الفرنسي (مسمر) في رده على محاضرة الفيلسوف (أرنست رينان): "إن الإسلام لا ينتعش ويزدهر إلا بانتشار العلوم وتقدّمها، لأن بين الإسلام والعلوم رَابِطَةً أكيدة". وهو كلامٌ وَجِيهٌ يؤيده الكتاب والسُّنَّةُ أَبْلَغَ تأييد، قال الله تعالى في مقام الدلالة على قيمة العلم: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]؟ وهو استفهامٌ إِنْكَارِيٌّ كبير التأثير في النفس. وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[2] وهو أمر صريح بوُجُوب طلب العلم. وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[3] قال ابن عباس: بينهما سبعمائة درجة. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[4] عَلَّقَ فَهْمَ تلك الأمثال على العلم، وفي هذا من الحَضِّ على طلب العلم – على وَجْهِ – ما فيه.

أما السُّنَّةُ فقد شُحِنَتْ بالأحاديث الحَاثَّةِ على طَلَبِ العلم والدُّءُوبِ على تَحْصِيلِه ولو من أقصى مَظَانِّه، فرُوِيَ عن النبي ﷺ: "اطلب العلم ولو بالصين"، وما بين بلاد العرب والصين آلاف من الأميال، والسَّفَرُ إليها في عصر النُّبُوَّةِ كان من أَشَقِّ الأمور، وفي هذا من اسْتِنْهَاضِ الهِمَم، وبَعْثِ النفوس ما لا مَزِيدَ عليه. ورُوِيَ عنه عليه الصلاة والسلام: "الناس عالِمٍ ومتعلِّم، وسَائِرُهم هَمَج"، فانظرْ – رَعَاك الله –

(١) سورة الزمر، من الآية ٩.
(٢) سورة طه، من الآية ١١٤.
(٣) سورة المجادلة، من الآية ١١.
(٤) سورة العنكبوت، الآية ٤٣.

كيف حَصَرَ الناس في دائرة العلم وعَدَّ من عَدَاهُمْ هَمَجًا؛ وهذا أَبْلَغُ ما يُعْرَفُ في باب الحَثِّ على العلم والترغيب فيه. وروى عنه عليه الصلاة والسلام: "إن الملائكة لَتَضَعُ أجنحتها لطالب العلم رِضًا بما يطلب، ولَمِدَادُ ما جَرَتْ به أقلام العلماء خَيْرٌ من دماء الشهداء في سبيل الله". وإنّا لنشهد أن هذا تَشْوِيقٌ لطَلَبِ العلم لا يُدانِيهِ سواه، فإنَّ وَضْعَ الملائكة أجنحتها إكبارًا لطالب العلم يَدْفَعُ بالإنسان إلى طَلَبِهِ لِنَيْلِ هذه المكانة العُلْوِيَّة، والتصريح بأن مِدَادَ أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله، يُشْعِرُ بأن أثر العلم في بناء الشعوب وإقامة صُرُوحِ عظمتها، أَبْلَغُ من أثر بَذْلِ الأرواح في الدفاع عن حَوْزَتِهَا، وتوسيع دائرة سلطانها. وهذه الحكمة العليا تكشف عن إدراك بعيد المدى بأسباب الارْتِقاء والبقاء للأمم، فإنه قد ثبت في جميع أدوار التاريخ أن اعتماد الأمم على مجرد القوة للدفاع عن وجودها، ولضمان بقائها عاملة في مجموعة الأمم، لا يُنِيلُهَا هذه الأُمْنِيَةَ إلا إذا ضَمَّتْ إلى قوتها المادية قوةً أدبية تُوجِبُ لها التفوق العقلي، فقد انْحَلَّتْ أمم كانت من القوة الحربية على أَوْفِرِ الحُظُوظ، ولم تُخَلِّفْ وراءها أَثَرًا يُذْكَر، خِلاَفًا للأمم التي جمعت بين الفضيلتين، فقد امتدت حياتها قرونًا طويلة، ولو كانت استمرت حريصة على مكانتها منهما، لبَقِيَتْ قويةً تُغَالِبُ الحوادث وتتغلب عليها.

ولسنا نَشُكُّ في أن هذا الحديث الكريم من أعلام النبوة، فإن البيئة التي كان فيها النبي ﷺ كانت بيئةً أُمِّيَّةً ليس للعلم فيها شأن يُذْكَر، وكان للتفوق الحربي فيها القَدْحُ المُعَلَّى في مَفَاخِرِ الأمم، فإتْيَانُهُ بهذه الحكمةِ العُمْرَانِيَّةِ السامية يدل على أنه تَلَقَّاهَا من طريق الوَحْيِ الإلهي، لأن الحكيم مهما نَفَذَتْ بَصِيرَتُهُ لا يستطيع أن يسبق إلى أُمَّهَاتِ الأصول الاجتماعية التي لم تَتَقَرَّرْ بين الناس على عهده. ألا ترى أن (أفلاطون) وتلميذه (أرسطو) قَرَّرَا أن الأَرِقَّاءَ مُجَرَّدُونَ من الأرواح الإنسانية، وأن العاملين في المِهَنِ اليدوية يجب أن يُحْرَمُوا من الحقوق المدنية، وهما مَن هما في العلوم الكونية والمباحث الفلسفية.

ورُوِيَ عنه عليه الصلاة والسلام: "لا يزال الرجل عالمًا ما طَلَبَ العلم، فإذا ظَنَّ أنه قد عَلِمَ فقد جَهِل". وهذه أيضًا من دلائل النبوة؛ فإن البيئة الأُمِّيَّة لا يمكن أن تكون مصدرًا لمثل هذا النظر البعيد في العلم. فإن كان يُعْقَلُ أن يظهر فيها مَن يُحَبِّبُ في طلب العلم، فلا يُعْقَلُ أن يَنْبُغَ فيها من يرى أن العلم لا حَدَّ له، وأن الإنسان مهما تعلم لا يزال جاهلاً بأكثر ما بين يديه، بَلْهَ ما ليس بين يديه ولا يُتَخَيَّلُ وجودُه تَخَيُّلاً.

فهذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تثبت ما قاله العلامة (مسمر) من أن بين العلوم والإسلام رابطةً أكيدة. وقد ظهرت هذه الرابطة بأجلى مظاهرها في حياة المسلمين الأَوَّلِين، فقد أظهروا كَلَفًا بالعلم لا يمكن تَعْلِيلُهُ إلا بوجود هذه الرابطة. فإنهم بعد وفاة النبي ﷺ أخذوا يُخَالِطُونَ الأمم التي سبقَتْهم في العلم ويقتبسون منها أفضل ما يجدونه لديها سواء في المعارف المادية أو المذاهب الفلسفية، ولم يَكْفِهِمْ ما وَجَدُوهُ شائعًا بين الناس، فهبُّوا يَسْتَثِيرُون دَفَائِنَ العلم من مَظَانِّها، فبعثوا من علوم اليونانيين والفُرْسِ ما كان قد جَهِلَهُ أهله أنفسهم، ودَأَبُوا على ترجمته إلى لغتهم، وتَنَاوَلُوهُ بَحْثًا وتَنْقِيبًا، ولم يُقْنِعْهُمْ أن يكونوا مُقَلِّدِينَ فيه، بل أَعْمَلُوا فيه النَّظَر، فأخذوا ما ثَبَتَ من أصوله وتركوا ما لم يَثْبُتْ، أو هَذَّبُوهُ حتى وَافَقَ الصواب، ووضعوا علومًا جديدة لا تزال أسماؤها عربية كعلم الجَبْرِ وعلم الكيمياء.

ومما حَيَّرَ العقل أنهم اتبعوا في بحوثهم العلمية الأسلوب العملي الذي يُؤَدِّي إلى نتائج صحيحة، لا الأسلوب العقلي الذي يَكْثُرُ فيه الخَبْطُ والخطأ. قال الأستاذ (درابر) في كتابه: (المنازعة بين الدين والعلم):

"لقد كان تفوق العرب في العلوم ناشِئًا من الأسلوب الذي تَوَخُّوهُ في مَبَاحِثِهِمْ، وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونانيين، فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقلي المَحْضَ لا يؤدي إلى التقدم، وأن الأمل في وِجْدَانِ الحقيقة يجب أن يكون مَعْقُودًا بمشاهدة الحوادث ذاتها. من هنا كان شعارهم في بحوثهم الأسلوبَ التجريبي والدستور العملي، وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدواتٍ ومُعَدَّاتٍ لعلم

المنطق. وقد يلاحظ المُطَالِعُ لكتبهم العديدة على الميكانيكا والأيدروستاتيك (علم توازن السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والإبصار أنهم قد اهتدوا إلى حُلُولِ مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات. هذا هو الذي أَدَّى العرب إلى أن يكونوا أول الوَاضِعِينَ لعلم الكيمياء، والمستكشفين لعدة آلات للتَّقْطِيرِ والتَّصْعِيدِ والإِسَالَةِ: (إسالة الجوامد) والتصفية... إلخ، وهذا بِعَيْنِهِ أيضًا هو الذي جعلهم يستعملون في بحوثهم الفَلَكِيَّةِ الآلاتِ المُدَرَّجَةَ، والسطوح المُعَلَّمَة، والأَسْطُرْلاَبَات: (هي آلات لقياس أبعاد الكواكب)، وهو أيضًا الذي بَعَثَهُمْ لاستخدام الميزان في العلوم الكيماوية، وقد كانوا على ثِقَةٍ تامة من نظريته، وهو الذي هَدَاهُمْ لعمل الجداول عن الأوزان النوْعية للأجسام والأَزْيَاجِ الفلكية: (هي آلات تُعْرَفُ منها حركات الكواكب) مثل التي كانت في بغداد وقُرْطُبَةَ وسَمَرْقَنْد، وهو أيضًا الذي أَوْجَدَ لهم هذا التَّرَقِّي الباهر في الهندسة وحساب المثلثات، وهو أيضًا الذي هَمَّ بهم لاكتشاف علم الجبر، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية. هذا هو سبب تفضيلهم لأسلوب (أرسطو) الاستدلالي على مقالات (أفلاطون) الإِسْتِنْتَاجِيَّة".

إلى أن قال:

"كان المُلْكُ الإسلامي يَغَصُّ بالمدارس والمكتبات، وكانت بلاد المغول والتتار ومراكش والأندلس حاصلة على عَدَدٍ عَدِيدٍ منها، وكان في طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة، التي فاقت المملكة الرومانية كثيرًا، مَرْصَدٌ في سمرقند لرَصْدِ الكواكب، وكان يقابله في الطرف الآخر مرصد (جيرالك) في الأندلس.

"ولو أَرَدْنَا أن نَسْتَقْصِيَ كل آثار هذه الحركة العلمية العُظْمَى، لخرجْنا عن حدود هذا الكتاب، فإنهم قد رَقُّوا العلوم القديمة تَرْقِيَةً كبيرةً جدًّا (تأمل) وأَوْجَدُوا علومًا جديدة لم تكن معروفة قبلهم".

إلى أن قال:

"إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جَلِيًّا بالتقدّم الباهر الذي نالَتْه الصنائع في عصرهم، فقد استفادت منها فنون الزراعة في أساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات وسَنّ النظامات الزراعية الحكيمة، وإدخال زراعة الأرز وقصب السكر والبن، وقد انتشرت المعامل والصَّنَائِعُ لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن، وكانوا يُذِيبُونَ المعادن ويَجْرُونَ في عملها على ما حَسَّنُوهُ وهَذَّبُوهُ من صُنْعِهَا وسَبْكِهَا"... انتهى.

وقال العلامة الدكتور (جوستاف لوبون) الفرنسي في كتابه: (تمدن العرب):

"العرب مع وَلَعِهِمْ بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع، فقد أَكْسَبَتْ علومُهم لصنائعهم جَوْدَةً عظيمةً جدًّا. وإننا وإن كُنَّا لم نَزَلْ نَجْهَلُ أكثر الطَّرَائِقِ التي سَلَكُوها لذلك، فإننا نعرف نتائجها وآثارها، فنعرف مثلاً أنهم احْتَفَرُوا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب، وأنهم بَرَعُوا جدًّا في الصباغة، وتَمَهَّرُوا في صَقْلِ الفولاذ تَمَهُّرًا بعيد المدى، وأنهم في كثيرٍ من فنون الصنائع قد برعوا براعةً لم يُلْحَقْ لهم فيها شَأْوٌ للآن" (تأمل).

أليس معنى هذا كله أن العرب اندفعوا بحافِزٍ من دينهم إلى اقتباس العلم حيث وَجَدُوه، وجَرُوا فيه إلى آخر شَوْطٍ سَمَحَ لهم الزمن الذي كانوا فيه؟ فإذا كان في دينهم صَدٌّ عنه لَمَا اندفعوا هذا الاندفاع الذي حَيَّرَ المؤرِّخين أَجْمَع، ولَمَا كان هذا الاندفاع عامًّا في جميع البِقَاعِ التي حَلَّتْ فيها جماعاتهم، إذ يستحيل أن يَتَوَاطَأَ المسلمون في جميع البلدان على ما بينها من البُعْدِ على أن يَجْرُوا على خِلاَفِ ما يأمرهم به دينهم، فشُبْهَةُ المسيو (رينان) دَاحِضَةٌ دُحُوضًا لا انتعاش لها منه.

هنا، يَحْسُنُ بنا أن نُنَبِّهَ القارِئينَ إلى أن مراد الإسلام من العلم كُلُّ ما تَنْتَفِي به الجَهَالَة، سواء ما كان منه لتصحيحِ العقائد، وتَقْرِيرِ الفَرَائِض، وتطهير النفس من

الأوهام والوَسَاوِس، وما كان منه لإدراك حكمة الله في مخلوقاته،وما يَتَأَدَّى إليه الناظر فيها من اسْتِكْنَاهِ أسرارها، وتَعَرُّفِ قُوَاها، واستخدام ما يفيده منها في تقويم حياته المادية، وتَرْقِيَةِ مواهبه العقلية، ولاستكمال شروط النظر في الكوْنيات التي نَدَبَ الكتاب الكريم إلى النظر فيها، بقوله: ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، إذ كلما كان الإلمام بدَقَائِقِهَا أَوْسَعَ، كان الاِسْتِبْصَارُ بها أكبر، والاعتبار بها أكمل[2].

(١) سورة يونس، من الآية ١٠١.

(٢) مجلة الأزهر ـ المجلد الخامس ـ سنة ١٣٥٣هـ ص ٢٨١.

صَوَّرْنَا كثيرًا مما كتبناه من قَبْلُ حالة العالم الغربي في مُعْتَرَكِ الحياة في هذا العصر، وبَيَّنَّا طبيعةَ العوالم التي تُوَرِّطُهُمْ فيها، ونظرًا لأننا مرتبطون بهم اقتصاديًّا وعلميًّا، فإنه يَهُمُّنَا من أمرهم ما يَهُمُّ المُتَرَابِطِين. فأما من الناحية الاقتصادية فإن تأثيرها ينحصر في قِلَّةِ الواردات وغَلاَءِ البضائع الأجنبية، وتَذَبْذُبِ أثمان محصولاتنا، وليس كل هذا بالأمر السهل، ولكنه مما يَسْهُلُ احتماله، ويُؤْمَلُ زَوَالُه. أما ما يجب أن يُكْتَرَثَ له أَشَدَّ اكْتِرَاث، وتُرَاقَبَ آثاره مراقبةً دقيقة، فهو التطور العلمي الذي تُحْدِثُهُ الأعصاب المُتَهَيِّجَةُ هناك من وَضْعِ المبادئ المتطرفة، وبناء الأصول الشاذة، وسَرَيَانِهَا إلينا من طريق نقرؤه من جرائدهم ومجلاتهم، وما يُتَرْجَمُ في جرائدنا من أفعالهم وأقوالهم، فتتأثر بها النَّابِتَةُ الإسلامية وتَشِبُّ مُتَشَبِّعَةً بها أَيَّمَا تَشَبُّع، ظَنًّا أنها مُقَرَّرَاتٌ علمية، وتجديدات اجتماعية، فتعمل على أن تَجْرِيَ على سُنَّتِهَا لتَلْحَقَ بالقافلة الإنسانية في سَعْيِهَا الحَثِيثِ نَحْوَ المُثُلِ العليا.

والذي على مُرَاقِبِي الحالات الاجتماعية، والتَقَلُّبَاتِ التَّصَوُّرِيَّة في العالم من المسلمين أن يُبَيِّنُوا لأقوامهم أن هذه الحالات والتطوّرات الدَّافِعَة إلى الانقساماتِ والمُصَادَمَاتِ بين طوائف العالم الغربي، ليست ثمرات العلم ولا الحكمة التي يجب أن يحرص على الأَخْذِ بها الناس والجماعات، وإنما هي ثمرات مذاهب إلحادية تَأَدُّوا تحت تأثيرها إلى فَوْضَى نفسية وخُلُقِيَّة، نَزَعَتِ السلام والطُّمَأْنِينَةَ من النفوس، ودفعَتْها إلى فوضى وانْحِلاَلٍ يَضُرَّانِ بالنظام العام الذي يجب أن يَسُودَ الجماعات،

ليتفرغ كل عامل إلى عمله، ويحقق أقصى ما يمكن من الخير لنفسه ووطنه، من حيث يجب أن يُلْتَمَسَ من قِبَلِه.

نعم، إن هذه الانقلابات التي نشاهد عليها الحياة في أوروبا ليست بثمرة العلم، وكَفَى أن تكون كذلك لتؤدِّيَ إلى شر ما ينتظر منها،وليس شيء أكبر من الحروب الطاحِنَة التي تَشِنُّهَا هذه الأمم على نفسها، وتَجُرُّ إليها خلافات يَتَكَفَّلُ المنطق البدائي بحَلِّهَا، لا القنابل الهادمة والحارقة، ولا الوسائل المُحَطِّمَة والخانِقَة. ويَلِي هذا الشرَّ المُسْتَطِيرَ فيها ما عليه أكثر أممها من الانقسامات والتَّحَزُّبَاتِ والإِضْرَابَاتِ عن الأعمال، والاضطرابات الداخلية. والذي هو شديد الوَقْعِ على النفوس أن هذه الأحوال المُرْتَبِكَةَ لا توجَد لها حلول تَثْلُجُ الصدور عليها، وترتاح النفوس كافةً إليها، فلا الاشتراكية المتطرِّفة والمعتدلة، ولا أحزاب اليمين واليسار مما يفيد في الحَدِّ من هذه الشرور شيئًا.

وما دامت هذه القَلاَقِلُ ليست بثمرةٍ للعلم، فهي إذًا ثمرة الخِلاَلِ الحيوانية التي شُرِعَتِ الأديان لانتزاعها من الشخصية الإنسانية، فيكون الدين والعلم حربًا على هذه الخِلاَل، ومتى اجْتَمَعَا في أمرٍ فلا يُعْقَلُ أن تقف دونه عَقَبَة، إلا أن هذا الانتقال الخُلُقِيَّ لابُدَّ له من زمانٍ يتطور فيه.

فلو كانت أوروبا تُعْنَى بالأصول الخُلُقية التي تُدَرِّسُها في جامعاتها، وتقف عند حدودها أيًا كان مَرْمَاها، لدَفَعَتْ عن الفلسفة المادية التي تُقَدِّسُها شُبْهَةً قوية، ولكنها لا تستطيع أن تقف عند حدودها، حتى في هذا العصر الذي بلغ العلم فيه أَشُدَّهُ، فأقامت بذلك أَرْوَعَ الحُجَجِ على أن الإنسانية في حاجةٍ مَاسَّةٍ إلى الدين، ولا نستطيع أن نستبدل به الفلسفة؛ لأن الأمر يتعلق بتربية شعور نفساني، وتنمية حس وجداني، يكون من القوة بحيث يتغلب على الطبيعة الحيوانية في الجِبِلَّةِ الإنسانية. وقد عجز العلم عن أداء هذه المهمة إلى هذا العهد، على الرغم من

وصوله إلى مدًى بعيدٍ من الأَلْمَعِيَّة، بل يَشَاهَدُ أنه كلما ازداد سَرَيَانًا في سَرائِرِ الطبيعة، واكتشف أسرارًا جديدة، زاد قسوةً وغَشْمَرِيَّة، وامتلأ صَلَفًا وجَبْرِيَّةً، حتى قَرَّرَ الذين بيدهم استخدام هذه المخترعات المُهْلِكَةِ للبشرية أَنَّ حَرْبًا أو حربيْن أُخْرَيَيْنِ تأتيان على العمران العالمي، وتجعله كأنْ لم يَغْنَ بالأمس.

كان هذا الاعتبار من العوامل النفسية التي دفعَتْنا إلى دراسة المسألة الدينية من الناحية الاعتقادية، واسْتِكْثَارِنَا على صحة الدين من الأدلة العلمية، وسيكون هذا دَأْبَ الذين يَغَارُونَ على كرامة الإنسانية من الأجيال المُقْبِلَة.

وفي نظرنا أنه يجب على المشتغِلين بالدين أن يجعلوا هذا الاعتبار من أهم ما يدفعهم إلى المُثَابَرَةِ والدُّؤُوبِ على ما هُمْ عليه من الاشتغال به، وخاصةً من ناحيته العَقِيدِيَّة، وَاثِقِينَ أن أَدِلَّتَهُ العلمية أصبحت مُوَاتِيَةً لهم لبناء صَرْحِهِ الفَخْمِ على أصولٍ تُوَلِّدُ اليقين في أَعْتَى النفوس البشرية، وتُوجِبُ القَبُولَ لدى أَعْصَى العقول القوية.

لقد مضى الزمان الذي كان يُنْظَرُ فيه إلى المشتغِلين بالدين من هذه الناحية بأنهم يجهدون أنفسهم لبلوغ غاية وَهْمِيَّة، وبأنهم يُفْنُونَ أيامهم لإيجاد حركة رَجْعِيَّة، بعد أن سادت الفلسفة المادية على العقول سيادةً مطلقة. وهم في الواقع بهذا الاعتبار يحافظون على الإنسانية من التَّلاَشِي بإيتاء النفوس بمُكَمِّلاَتِهَا الأدبية، ويدفعون شِرَّةَ الذين يعملون على حرمانها من عواملها الروحية.

ومما يؤيد هؤلاء العاملين أنهم في جهادهم هذا لا يدفعون كلامًا بكلام، وإنما هم يَدْحَضُونَ نظرياتٍ إلحادية بأَدِلَّةٍ علمية مُرْتَكِزَةٍ على البحوث النفسية التي ملأ نورُها الخَافِقَيْن، ولم يَعُدْ أمرُها خَافِيًا على أحد. ولستُ أقصد بذلك ما يشتغل به الألوف من أهل العلم اليوم بإثبات عالم الأرواح والاتصال بهم، ومخاطبتهم،ولكني أقصد ما قررَتْه العلوم التجريبية نفسها من وجود العقل الباطن في الإنسان، ومن

تَدَهْوُرِ أكبر النظريات الفلسفية التي بَنَوْهَا على تَعَلُّقِ العقل بالمخ، والحياة بالدم، والذاكرة بالصور الذهنية: وما أَسَّسُوه من الآراء على أصل الكون، والجَوْهَرِ الفَرْد، ونُشُوءِ الأحياء وتطورها... إلخ إلخ، مما أصبح لدى الذين تَابَعُوا التطور العلمي أَشْبَهَ بأقاصيص العَجَائِز.

لم يَتَوَصَّلْ من وصل من العلماء إلى درجة اليقين في الدين من دراسة خاصة فيه، أو على ما كتبه بعض ممثِّليه، ولكن على أدلة ذاتية لهم مُنْتَزَعَةٍ من الفروع العلمية التي كانت من نصيبهم. نضرب لك مثلاً يعطيك فكرة على ما نقصده مما نقول: قيل يومًا للفَلَكِيِّ الأشهر (نيوتن) الإنجليزي: هل تستطيع أن تقيم دليلاً حِسِّيًّا على وجود الله؟ فقال: "نعم من المُحَقَّقِ أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تَنْشَأَ من مجرد فِعْلِ الجاذبية العامة، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس، فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس، أن تُوجَدَ يَدٌ إلهية تدفعها على الخط الـمُمَـاسِّ لمداراتها".

وهذا صحيح؛ لأننا نعلم أن الكواكب كلها مُعَلَّقَةٌ في الفراغ، وهي لا تتقارب حتى تكون كتلة واحدة، لأنها تَتَجَاذَبُ من جميع جهاتها. فإذا انْجَذَبَ كوكبٌ إلى آخر مَنَعَهُ من مُلاَمَسَتِهِ جَذْبُ كواكب أخرى له من كل النواحي. هذا معقول، ولكن هذه الكواكب مع انْجِـذَابِ بعضهـا لبعـضٍ تتحـرك فـي مـدارات مُقَـدَّرَةٍ لا تَتَعَدَّاها. فما الذي يعطيها هذه الحركة الدائرية المنتظِمة لبعضها حول بعض إنْ لم تَكُنْ يد الله تفعل ذلك؟

أما وقد ثبت كل هذا وأصبح حقيقةً محسوسةً لكلِّ ذي بَصِيرَة، فعلى المسلمين أن يعتصموا بحكمة كتابهم، وسُنَّةِ رسولهم، وسيرة سَلَفِهِمْ، ويعملوا على توحيد كلمتهم،والجَرْيِ على تقاليدهم، ليكونوا بمَنْجَاةٍ من العلل الاجتماعية، والأَدْوَاءِ الخُلُقِيَّة، والفِتَنِ السياسية، لا سِيَّمَا وهم يَرَونَ بأعينهم أن أَعْرَقَ الأمم في المدنية،

وأرقاها في الثقافة العلمية، تَعْجِزُ من تَفَرُّقِ الكلمة في مجتمعاتها وتنازع الأحزاب في بلادها، عن تأليف حكومة لتصريف الشئون الداخلية والخارجية.

وإذا نَصَحْنَا بالاعتصام بحكمة كتابنا، وسُنَّةِ رسولنا، وسيرة أَوَائِلِنَا، فإننا إنما ندعو للأَخْذِ بأرقى النُّظُمِ الاجتماعية. ألم تَكُ نتيجة ما قاموا عليه من تلك النُّظُمِ أن أصبحوا كالجسم الواحد من الترابُط والتماسك، آتاهم الظَّفَرُ على أعدائهم والسَّعَةُ في ممتلكاتهم، والنظام في حكوماتهم، والتفوق في معلوماتهم، حتى استحقوا أن يكونوا خلفاء الأرض بعد الفارسيين والرومانيين، ومَن سبقهم من الصينيين والهنديين والبابليين واليونانيين... إلخ؟.

العَقَبَةُ الكَأْدَاءُ أمام المسلمين في هذه الناحية هي: أنهم يأخذون فيما يأخذونه من النُّظُمِ الأوروبية وجُوبَ فَصْلِ الديانة عن الحكومة، وهي عقبة كأداء شديدة التَّعَلُّقِ بالعقلية العصرية لا يطيق أحد أن يُعِيرَهَا سَمْعًا. ونحن لا نَوَدُّ ـ بما نكتبه في هذا الصَّدَدِ أن يكون الأمر على ما يتخيله المعترضون، فيعتبروا ما نكتبه تَرَشُّحًا من عقليةٍ رَجْعِيَّة، فلا بُدَّ هنا من بيانٍ وَجِيزٍ لهذا الأمر، سنأتي عليه فيما بعد.[١]

(١) مجلة الأزهر – المجلد العشرون سنة ١٣٦٨هـ، ص١٠١.

(١)

اطَّلَعْنَا في المجلة الإسلامية – التي تصدر بلندن باللغة الإنجليزية – على محاضرة تحت هذا العنوان، فرأينا نقلها إلى العربية لما حَوَتْهُ من المعلوماتِ القَيِّمَةِ عن المدنية الفاضلة التي أَوْجَدَها الإسلام، فإليك:

يتناول الموضوع الذي سأتكلم فيه الليلة، المقارنة بين دينيْن، والمقارنات كما تعلمون ـ من الأشياء غير المَرْغُوبِ فيها والتي تَكْتَنِفُها المصاعب. ولكن كثيرين من المسيحيين قد قاموا فعلاً بالمقارنة بين الدين الإسلامي والدين المسيحي، فكانت الصورة التي صَوَّرُوها عن الإسلام ناقصة، وكان من الإنصاف أن أُسْهِبَ ولو قليلاً في جَلاَءِ الحقيقة في هذه المحاضرة.

جاء الدين الإسلامي في القرن السابع بعد الميلاد وكانت المسيحية إذ ذاك، على حد قول (سير وليم موير)، وَاهِنَةً فَاسِدَةً عاجزةً من جَرَّاءِ الشِّقَاقِ والانشقاق بين مُعْتَنِقِيها، وكانت قد اسْتَعَاضَتْ عن التعاليم القديمة الصحيحة بالخرافات والخُزَعْبَلاَتِ الصِّبْيَانِيَّة، وكان العالم المُتَمَدِّنُ في ذلك الوقت على حافة الدمار، وكانت المدنية كشجرةٍ ضخمةٍ مُتَعَفِّنَةٍ لا تَقْوَى على الوقوف، وكانت بلاد العرب أَقْتَمَ بقعة في عالم مظلم، كان يسكنها شعب لا يعرف قانونًا سماويًّا ولا دُنْيَوِيًّا، ولا يَفْتَأُ يلجأ في كل حينٍ إلى ضُرُوبٍ من الفَتْكِ وسَفْكِ الدماء.

وولد محمد، رسول الدين الإسلامي في هذا الشَّعْب، وعُرِفَ فضله في داخل بلاده وفي خارجها على السواء، فقد أصبح لبلاد العرب تحت زعامته دين واحد

وقانون واحد، ثم انتشر هذا الدين وهذا القانون من بلاد العرب إلى العالم شرقًا وجنوبًا. قال (كارليل): "إنه لم يَمْضِ قَرْنٌ على ظهور الإسلام حتى أخذ يتألق نجم بلاد العرب ويضيء شَطْرًا كبيرًا من العالم، ثم ظل كذلك عصورًا طويلة".

إنكم تعرفون أنه لَمّا جاء الإسلام كانت المسيحية مُسْتَنِدَةً إلى سلطان الإمبراطورية الرومانية، كما كانت قائمة على التقاليد المجيدة لليهودية واليونانية والرومانية. ولكن الإسلام – على الرغم من ذلك – كان يتقدم في كل ناحية وصَوْب، فنَقَصَ نُفُوذُ المسيحية وأصبح للمسلمين في جميع أنحاء العالم مقام خطير، ولم تَسْتَطِعِ المسيحية منافسة الإسلام لا في السياسة ولا في الإدارة ولا في الثقافة العلمية، على الرغم من أن المسيحية كانت الوَارِثَةَ الوحيدة لثلاث مدنيات عظيمة. ومن سوء الحظ أننا نجد هذا الماضي المجيد مدفونًا في بطون التاريخ لا يَلُمُّ به كثيرٌ من المسلمين ولا غير المسلمين، حتى لَيَحْسَبُ الإنسان العادي أنه يَسْتَحِيلُ على الإسلام أن ينافس المسيحية في مُعْتَرَكِ الحياة في أي وقت من الأوقات.

إن آلافًا من وُعَّاظِ المسيحية الغَيُورِينَ الذين يُقَرِّرُونَ بأن الحياة الدنيا حياةَ غِوَايَةٍ وغرور، يحاولون في هذه الأيام إقناع الناس بتفوّق المسيحية على الإسلام، مُسْتَنِدِينَ في ذلك إلى المدنية الرَّاهِنَةِ المُتَّصِلَة، صَحَّ ذلك أو لم يَصِحّ، بالديانة المسيحية، كأَنَّ الإسلام لم يَكُنْ له من التاريخ المجيد ما يُفَاخِرُ به سِوَاه. ولقد وُضِعَتْ مئات من الكتب في أن الإسلام لا يصلح دينًا لمجتمع مُتَمَدْيِن، كأنَّ الإسلام لم تكن له مدنية، وكأن المسيحيين كانوا دائمًا، كما هم اليوم، مُتَمَدِّنِينَ، وكأن الحضارة الحالية لم تَكُ إلا ثمرة التعاليم المسيحية.

لذلك، أرى أنْ أُطْلِعَكُمْ على شيء من ماضي الإسلام، وأن أُذَكِّرَكُمْ ببعض الظواهر الواضحة للصلات التي تربط المسيحية بالمدنية الحاضرة. إذًا، فَلْنُحَلِّقْ معًا فوق التاريخ القديم لنشهد شيئًا من مجد الحضارة الإسلامية. ولنهبط، كما هبط السندباد البحري، على شاطئ دجلة ببغداد المعروفة في كتاب: ألف ليلة.

كانت بغداد في العصر العباسي عاصمة الإسلام، وعين العراق، ومقر الإمبراطورية، ومَوْطِنَ الجمال والفن والثقافة. وكان (المنصور) فَسِيحَ التَّصَوُّرِ، سليم التَّصَرُّفِ في حكومته، كما كان كذلك أيضًا في عَضْدِهِ ورعايته للفنون. ومما يُحْكَى عنه أنه دُعِيَ مرةً أمام قاضي المدينة بناءً على طلب أصحاب الجِمَال، فحضر بنفسه اعترافًا بمساواة الناس جميعًا أمام القانون، ولم يكن في صحبته غير أَمِينِه، ثم وقف القاضي كأحد المُتَقَاضِينَ العَادِيِّينَ فلم ينهض القاضي للقائه. وجاء الحُكْمُ في صالح المدعين، فكَافَأَ (المنصور) القاضيَ اعترافًا بنزاهته، وإكبارًا لحرية القضاء. هذا الملك هو الذي عمل على جعل بغداد مركز العلم والثقافة، وأَسَّسَ بها قسمًا لترجمة المؤلفات العلمية إلى اللغة العربية.

ونسَجَ (هارون الرشيد) على مِنْوَالِ جَدِّهِ بقُدْرَةٍ وكِفَايَة، فاعترف له المؤرخون بأنه من أعظم الحكام في جميع العصور. وكان الموسِيقِى (إبراهيم المُوصِلِيُّ) و(جَبْرَائِيلُ الطبيب) من بين الرجال البَارِزِينَ الذين ازدهر بهم عصره، وكان (الرشيد) نفسه شاعرًا، فكان يميل بَطبْعِهِ إلى الشعراء ويكافئهم. ولقد أنشأ المواصلات بين بلاده والبلاد الغربية، وبين بلاده وبلاد الشرق الأقصى. وكان أول من قَبِلَ في بلاطه السُّفَرَاءَ من إمبراطور الصين ومن (شارلمان)، وتُعَدُّ الساعة العجيبة التي أهداها إلى (شارلمان) عملاً عجيبًا من أعمال الميكانيكا حتى في وقتنا هذا.

أما خلافة (المأمون) فقد كانت عصرًا من أبهى عصور التاريخ العربي، إذ قد خَلَّفَتْ سِنُو حُكْمِهِ العشرون آثارًا باقية من التقدم الفكري للمسلمين في جميع نواحي التفكير، فلم يقتصر تقدّم العرب على فرعٍ من فروع العلم أو الآداب، بل كان شاملاً الفلسفة النظرية والأدب والعلوم والرياضة والفلك والطب وغير ذلك. وقد أخذت إسبانيا العربية والقسطنطينية المسيحية عن العرب هذا الميراث المجيد، ثم أخذَتْه عن هؤلاء أوروبا الحديثة.

ويجب أن لا ننسى للمأمون حَسَنَةً من حَسَنَاتِ شهرته الخالدة، ألاَ وهي تسامحه وحكمته السياسية. فقد أقام مجلسًا للحكومة أو برلمانًا مُكَوَّنًا من ممثِّلين يمثلون جميع الطوائف من مسلمين ومسيحيين وصابئين وشيعة زرواستر وهندوس، وكانت في أيامه تُرَاعَى الحرية الدينية والفكرية مراعاةً تامة، فكانت تُوجَدُ نحو أحد عشر ألف كنيسةٍ مسيحيةٍ ومئاتٍ من المعابد اليهودية، فلم يحاول قَطُّ مصادرة مواردها أو تجريد قِسِّيسِيها من حقوقهم وامتيازاتهم.

وكان يشرف على الترجمة من الإغْرِيقِيَّة والسُّرْيَانِيَّة والكَلْدَانِية (كوستا بن لوقا)، وكان يُشْرِفُ على الترجمة من الفارسية القديمة (يحيى بن هارون)، ومن السَّنْسِكْرِيتِيَّة (دوبان البرهمي). ولقد قاس العرب حجم الأرض لَمَّا كانت أوروبا المسيحية تؤكد أنها مُنْبَسِطَة. واخترع (أبو الحسن) المنظار المُقَرِّبَ (التلسكوب). وأقام (المأمون) أول مَرْصَدٍ بالشَّمَّاسِيَّة بسُهُولِ (تَدْمُر).

والعرب هم مخترعو الإبرة المغناطيسية (البوصلة) التي أَمْكَنَتْهُمْ من السفر إلى (كاتي) و(جزر الملايا) لا سِيَّما (جاوه) و(باتافيا) حيث نجد الآن ذُرِّيَّةَ العرب. ووصلوا جنوبًا إلى (مدغشقر)، واستعمروا إفريقية الشرقية حيث نجد بقايا إمبراطوريتهم القوية في سَلْطَنَةِ (دار السلام). ووصلوا شرقًا إلى (مولتان) في الهند، وغربًا إلى (إسبانيا) وجنوب فرنسا، واستولوا على (صقلية) و(مالطة)، ولا تزال آثارهم بها إلى الآن.

وفي عصر الخلفاء العباسيين تَفَوَّقَ العرب في جميع الصناعات وشَجَّعَهَا خُلَفَاؤهم، فكانت بالبصرة مصانع للزجاج والصابون ذات شهرة عالمية بَزَّتْ مصانع البندقية المُنَافِسَةَ لها في ذلك الزمن. وقد أنشأ (المعتصم) مصانع جديدة في بغداد وسامرا وغيرهما من المدن المهمة. وكان العرب يَسْتَقْدِمُونَ العمال المصريين لصنع الورق في بغداد، في الحين الذي كانت فيه المصانع الملكية لصناعة التطريز والزَّرْكَشَةِ بخيوط الذهب والفضة تزدهر في أصفهان وتبريز. أما سمرقند وبخارى

ودمشق وخراسان وشيراز، فقد كانت معروفة بأَنْوَاهِا لِنَسْجِ الحرير والسَّاتان والسجاجيد.

وكانت الإمبراطورية العربية غنيةً أيضًا بما تنتجه من المواد الأَوَّلِيَّة؛ كالقمح والشعير والأرز والبلح والفاكهة بمختلف أنواعها. أما القطن فكان يُزْرَعُ في حلب وبيروت وكيلات وصور، كما كان يزرع قصب السكر ويُكَرَّرُ في الأهواز وفارس.

وأُنْشِئَتِ الجامعات والمستشفيات في جميع البلدان الكبيرة حيث كان التعليم والعلاج مجانًا للفقراء. فبَنَى (نِظَامُ المُلْكِ) الجامعة النظامية، وبنى (المستنصر بالله) الجامعةَ المُسْتَنْصِرِيَّةَ كما يعرف ذلك طلبة التاريخ.

ولقد ازدهرت إسبانيا تحت حكم الأُمويين، وليس في الإمكان سَرْدُ أعمالهم التي كانت جُرْثُومَةَ الثقافة العالمية سَرْدًا وافيًا، ولكني سأكتفي بسَرْدِ قليلٍ من الحقائق لتعلموا إلى أيِّ مدى نحن مَدِينُونَ لهم اليوم:

لقد وضع (الرازي) كتابًا شاملاً عن الجُدَرِي، وكان الجزء التاسع من هذا الكتاب العظيم المرجع الذي يرجع إليه الأساتذة في إلقاء محاضراتهم بالجامعات الأوروبية. وتَعْلَمُونَ طبعًا أن أعظم اسم في الطب العربي هو اسم (ابن سينا) المَعْدُودُ أَحَدَ أَعَاظِمِ الأطباء والفلاسفة في كل العصور، إذ كان كاتبًا مُكْثِرًا، وكان في الوقت نفسه عميقًا فيما يكتب. ومن بين كتبه نُشِيرُ إلى:

(أ) نفع وفوائد العلوم

(ب) الصحة والأدوية

(جـ) مشاهدات فلكية

(د) النظرية الرياضية.

(هـ) ملخص إقليدس

(و) الطبيعة وما وراء الطبيعة

(ز) دائرة معارف في عشرين مجلدًا.

ووضع (أبو القاسم الزَّهْرَاويُّ) فَصْلاً عن الجراحة ضَمَّنَهُ من التفاصيل ما يجعله في مقدمة السابقين في هذا العلم.

وفي الحين الذي كانت المسيحية تضطهد علماء الكيمياء وتَرْمِيهِمْ بالسحر والشَّعْوَذَة، كان العرب يتقدمون في هذا العلم، فظهر (أبو موسى جابر بن حَيّان) أبو الكيمياء العربية، فاكتشف حمض الأزوتيك والماء الملكي[1]، كما زاد أيضًا باكتشافاته ما كان مَعْلُومًا من طبيعة المعادن عند علماء الإغريق. واكتشف (أبو بكر الرازي) حمض الكبريتيك. ووضع العرب أساس الكيمياء والصَّيْدَلَة. قال الأستاذ (هلمياراد) عن هذه البحوث:

"اِسْتَنْبَطَ العرب من المعلومات الأَوَّلِيَّةِ التي كان يُطْلَقُ عليها اسم الكيمياء في مدرسة الإسكندرية، علمًا بأصولٍ أَبَانُوا فيه للمرة الأولى العلاقة الصحيحة بين الحقائق التجريبية والنظرية، فاعترف الناس بفائدة التطبيق العملي لعلم الكيمياء، وابْتَدَأَتْ أوروبا أبحاثها الكيمائية على أساسٍ سليمٍ من الحقائق والنظريات. وكان أَتْبَاعُ النبي هم أصحاب الفضل على أجدادنا، فَلْنُبَادِرْ بالاعتراف لهم بالجميل".

وتَوَصَّلَ العرب إلى صناعة الثلج التي لم تكن معروفة في أوروبا حتى النصف الأخير من القرن السادس عشر.

وكانت تتقدم الرياضة بفضل أبحاث واكتشافات العرب الذين أخذوا الطريقة العَشْرِيَّةَ عن الهند، فزَادُوا عليها ونَقَّحُوهَا. فالجَبْرُ مَدِينٌ بتقدّمه إلى العرب، حتى إن (ابن موسى) في القرن التاسع تمكن من استبدال الأوتار بالمستقيمات في علم حساب المثلثات، واكتشف المعادلات ذات الدرجة الثانية. وكتب (الكِنْدِيُّ) مائتي مُؤَلَّفٍ في موضوعات مختلفة مثل: الحساب والهندسة والفلسفة وعلم الظواهر الجوية وعلم الأبصار والطب. ولقد ظلت جداول (أبي معشر) و(أبي وفا) المرجع الأساسي في علم الفلك. كما أن أول مَرْصَدٍ أُنْشِئَ في أوروبا كان مرصد إشبيلية

---

(١) مزيج مكون من حمض الأزوتيك والكلورايدريك يُذِيبُ الذهب.

تحت إشراف (جابر بن حيان) سنة ١١٩٦م. وفي القرن العاشر أنجبت المدرسة القاهرة (ابن يونس) الفلكي العظيم الذي أَتَمَّ عملَه (ابن النَّبَطِي)، وكان من مشاهير علم الفلك أيضًا.

وذهب الرَّحَّالَةُ (البيروني) إلى بلاد الهند، وعاش بين أهلها وتعلم لغتهم وعلومهم وآدابهم وفلسفتهم وعاداتهم وأخلاقهم وقوانينهم وديانتهم وأساطيرهم، كما درس أحوال البلاد الجغرافية والطبيعية، وضَمَّنَ تلك المعلومات كتابًا اقتبس فيه نُبَذًا من شعر (هوميروس) وفلسفة (أفلاطون) وغيرهما من رجال الأدب والفلسفة الإغريقية. ثم إنه إلى ذلك كان يكتب ويُحَاضِرُ في الفلك والرياضة التَّقَاوِيم والطبيعة. وجاء بعده عالم قد لا يقل عنه في المكانة يُدْعَى (ناصر خسرو) الذي يُعَدُّ كتابه المسمى: "السفرنامه" أَمْتَعَ كتابٍ من نوعه، فقد زار صاحبه أغلب جهات العالم التي كانت معروفة في أيامه.

أما في التاريخ فإن أسماء (المسعودي) و(الطبري) و(ابن الأثير) دائمة التَّأَلُّق. ولم يَكُنْ (أبو بكر محمد بن يحيى) مؤرخًا شهيرًا فَحَسْبُ، بل كان فيلسوفًا ومن رجال العلم أيضًا، فَضْلاً عما أَحْرَزَهُ من التفوق في الموسيقى، وقد استطاع إدخال سُلَّمٍ موسيقيٍّ يمكن أن يستفيد منه كل شَعْب. ويمكننا اعتباره الأساس الذي تنبني عليه الموسيقى في العصر الحالي.

ويجيء اسم (ابن رشد) العظيم في مقدمة علماء الفقه. و(ابن رشد) هذا سَلِيلُ أسرةٍ من مشاهير القُضَاة. وكان رئيس القضاة في كُلٍّ من إشبيلية وقرطبة على الترتيب. وكان صديقًا (لابن الطفيل) المعروف بعلمه الواسع.

هذا قليلٌ من دلائل المدنية الإسلامية الأولى، أَسْرُدُهُ على سبيل المثال، ولكنِّي أراني مُقَصِّرًا إذا أنا أَهْمَلْتُ الإشارة إلى ما قام به النساء المسلمات.[١]

(١) مجلة الأزهر – المجلد السادس سنة ١٣٥٤هـ، ص ٥٧٠.

(٢)

كانت الملكة (زبيدة) امرأةً ذات مواهب، وشاعرةً مَطْبُوعَة. وإن مَكَّةَ لَتَدِينُ لها بالقناة المسماة باسمها، وكانت الأوَانِسُ في العصر العباسي يَشْتَرِكْنَ في الحروب ويَقُدْنَ الجيوش. وقد تَرَأَّسَتْ والدة (المقتدر) محكمة الاستئناف العليا، وكانت تقابل السُّفَرَاءَ والمَبْعُوثِين. وكانت الشيخة (شهدة) تُحَاضِرُ في بغداد في القرن السادس الهجري في التاريخ والأدب. ومن بين مشاهير المُتَفَقِّهَاتِ (زينب بنت المؤيد) التي تَتَلْمَذَتْ على أشهر فقهاء عصرها وأُعْطِيَتْ إجازةً بتدريس القانون. ولم تَقِلّ مَنْزِلَةُ النساء الثقافية والتهذيبية تحت حكم الأُمويين عن منزلتهن تحت حكم العباسيين، فقد أخرجت غرناطة وقرطبة من مجليات النساء من اشْتَهَرْنَ في الفنون وفي العلوم، مثل: (نزون) و(زينت) و(حمرة) و(حفصة) و(صفية) و(مارية).

ويَحْسُنُ بي في هذا المقام أن أقول: إن الإسلام قد اعتبر المرأة مُسْتَقِلَّةً في نظر القانون، وأعطاها حق حِيَازَةِ المُلْكِ،وجَعَلَها مسئولةً عما تَدْخُلُ فيه من الالتزامات. وتعلمون أن الحال ليست كذلك في نظر أوروبا المسيحية، ففي أغلب الممالك الأوروبية تنتقل ملكية أملاك المرأة إلى زوجها عند الزواج، وفي إنجلترا تصبح المرأة في نظر القانون العام، هي وزوجها شخصًا واحدًا، ليس لها الحق وحدها في التَّمَلُّكِ أو الدخول في الالتزامات. ثم جاء قانون سنة ١٨٨٢ لِلْمِلْكِيَّةِ النساء المتزوجات، فأعطاهن الحق الذي لم يَتَمَتَّعْنَ به من قبل، فأصبحت المرأة مسئولةً عما تَدْخُلُه من الالتزامات والتعهدات بقَدْرِ أملاكها الخاصة، إلا أن هذا القانون لم يجعل الزوج

خاليًا من تَبِعَةِ تصرفات زوجته، فإن للمُدَّعِي حق الاختيار بين مُقَاضَاةِ الزوجة بمفردها أو إشراك زوجها معها. وإذا لم يكن للزوجة مال خاص أَمْكَنَ المُدَّعِي مُقَاضَاةَ الزوج بصفته مسئولاً عن تصرفات زوجته.

نستنتج من ذلك: أن فكرة الإسلام في اعتبار المرأَةَ مُسْتَقِلَّةً أمام القانون سبقت كل ما أَحْدَثَهُ فقهاء الغرب. ثم إننا نجد غير ذلك أن كل شخص ـ ذَكَرًا كان أو أنثى ـ له الحق في الميراث ولا يمكن سَلْبُهُ هذا الحق. فإذا قَارَنَّا ذلك بالحرية المطلقة في الوصية في القانون الإنجليزي، نحمد الله على ما هدانا إليه من ضرورة الاعتراف بحقوق الأسرة.

لقد اضْطُرِرْتُ في هذا العرض المُوجَزِ أن أَغْفُلَ ذِكْرَ الحضارة العالية التي بَلَغَها مسلمو إيران والهند، ولكن يَحْسُنُ بي أن أُشِيرَ إلى أنه لولا دخول العرب في الهند لكان للتاريخ شأن آخر غير شأنه الحالي، فقد دخل العرب بلاد السند بقيادة (محمد ابن قاسم) واستولوا على مولتان واحتلوا البنجاب حتى بيز، ثم استقر مقامهم هناك تحت إِمْرَةِ (محمد الغزني). ولسنا نبالغ إذا قلنا إنه لولا العرب لَمَا أنجبت إيران رجالاً (كعمر الخيام) و(النظامي) و(الرومي) و(السعدي) و(حافظ) و(الفردوسي)، ولما أنجبت الهند من الحكام أمثال (بابار) و(أكبر) و(شاه جاهان) و(أورانجزب) و(نورجاهان) و(الفيضي). ولولا الإسلام لما بُنِي (تاج مَحَل) لؤلؤة المجهودات الآدمية في بحر الوجود، والدليل الساطع على ما لا يمكن وَصْفُهُ من الآلام، والبرهان الخالد على حب إمبراطورٍ لشريكته في الحياة والمُلْك. ولولا الإسلام لَمَا وُجِدَتْ مباني (فيتبور سكرى) الدَّالَّةُ على عظمة فن البناء واستطاعته التعبير عن حالة طَارِئَةٍ من طبيعةِ المَلِكِ (أكبر) العجيبة. ولولا الإسلام لَظَلَّتْ ملايين العمال من الهنود تعبد الملايين من الأصنام دون الله، ولَظَلَّتِ اللعنة النَّازِلَةُ بالمَنْبُوذِينَ عَامَّةً في جميع البلاد، ولَمَا قامت الديمقراطية بالهند، كما كانت وكما هي الآن، تُنَاوِئُ لنظام الطبقات وليد البَرْهَمِيَّةِ غير الشرعي.

ولننتقل الآن إلى القارة المظلمة، حيث نجد في بعض جهاتها أثرًا من آثار الإسلام ذا التاريخ العظيم؛ فنجد في نيجيريا وأكانتي وكينيا وتنجانيقا وتخوم السودان والصحراء، إمارات من البربر والزنوج المسلمين يسبقون جيرانهم المتوحشين في أسباب المدنية، بإطاعتهم للقوانين واتخاذهم سُننا خُلُقِيًّا، وغير ذلك مما يُمَيِّزُهُم على القبائل الهمجية، حتى إن المستعمِر الأوروبي لهذه الجهات لم يجد صعوبة في تنظيمها وإدارتها، لوجود نوع من نظام الحكم بها قبل الاستعمار، فكان المستعمِر يترك لهم قوانينهم المدنية كما هي في أغلب الأحيان، ويستبدل قوانينهم الجنائية والحربية بغيرها. واسأل المُبَشِّرِينَ في تلك الأَصْقَاعِ يخبروك أنهم لا يُلاَقُونَ نجاحًا بها، لأن القبائل هناك قد عرفت التهذيب قبل معرفة الرجال البيض بقرون، فإن تجار العرب، لا سيما في عصر الإسلام الذهبي، كانوا قد حملوا إلى كثير من تلك القبائل رسالة السلام والمدنية، لا كرُسُلٍ للاستغلال الاقتصادي والسياسي كما يحدث اليوم، ولكنهم جاءوهم مخلصين يُبَلِّغُونَهُمُ الرسالة التي أمرهم رسول الله بإبلاغها إلى الناس.

وقد يسأل سائل فيقول: وما علاقة ما وصل إليه المسلمون في العصور الأولى للإسلام بالإسلام نفسه؟ والجواب على ذلك: أن العلاقة كَائِنَةٌ في كل شيء، فلقد كانت بلاد العرب قبل الإسلام غارقةً في بُحُورٍ من الجهل والرَّذَائِلِ، فلمَّا جاء الإسلام تَبَوَّأَتْ بجَدَارَةٍ ذُرَا التقدم والثقافة. وكانت تعاليم الإسلام هي الداعية إلى هذا التغيير وسبب هذا الانقلاب العظيم، قال رسول هذه التعاليم: "مِدَادُ العلماء أفضل عند الله من دم الشهداء". وقال أحد الكُتَّاب المُحْدَثِين: "حَفِظَ العرب التراث الذي خَلَّفَهُ المتقدِّمون من العلم والمعرفة، ولولا عملهم هذا لَضَلَّتْ سفينة العلم في بحر الظُّلُمَات. فعلينا أن نشكر للعرب إنقاذهم تلك البضاعة النفيسة من الآداب والفلسفة اليونانية وحِفْظَهُمْ إياها خمسمائة سنة. كانت الإمبراطورية الإسلامية ـ ولم يَمْضِ على وفاة النبي غير تسعين سنة ـ تمتد من جبال الهملايا إلى

جبال البرنات، ولقد صَحَّتْ عزيمتهم لَمَا كانوا عليه من الكبرياء العقلي والطُّمُوحِ وسَعَةِ التَّصَوُّر، على أن يدركوا سِرَّ الروح أيضًا في فتوحاتهم".

من ذلك، نَعْلَمُ أنه لولا الإسلام لَظَلَّ الناس يَتَخَبَّطُونَ في ظُلُمَاتِ الجهل والهمجية، فقد كان مصباح المعرفة ذُبَالَةً لا تكاد تضيء، وكانت تلك الذبالة تُنْذِرُ بالأُفُول. ولولا الإسلام لَمَا حدثت النهضة بأوروبا، ولَمَا بَدَّدَ النور ظلام العصور المظلمة. إذًا، فالفضل يرجع للعرب في بقاء شعلة الثقافة والمدنية مشتعلة، وفي مساهمتهم بما أضافوه من المعلومات التي زادت من سعادة الناس ورخائهم،ولم يكن عملهم مَوْقُوتًا بل كان باقيًا.

والآن، أتناول مسألة أخرى، وهي: هل المدنية الحديثة من ناحيتها الصالحة تَدِينُ بوجودها إلى المسيحية؟ ولكنى قبل الخَوْضِ في هذا الموضوع أَوَدُّ أنْ أُنَبِّهَ حضراتكم إلى حقيقةٍ تاريخيةٍ مهمة، وهي: أن المسيحية بدأت حياتها وَسَطَ مدنية عظيمة، مهما قيل إنها كانت مدنية مُتَدَاعِيَة، فبَدَلَ أنْ تُحْيِيَهَا عَجَّلَتْ سقوطَها ثم بَقِيَتْ – على حَدِّ تعبير (جونسون) – ملكةَ الليل عِدَّةَ قرون. ولم تُظْهِرِ البلاد المسيحية عَلَائِمَ الحياةِ المُمَدَّنَةِ إلا بعد أن انتشرت المدنية الإسلامية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. وليس هذا مجال بيان كيفية مساعدة المدنية الإسلامية على نُشُوءِ الحضارة الأوروبية الحديثة. فإذا كان من حضراتكم من يريد الاطِّلاع على تلك الناحية فعليه الِالْتِجَاءُ إلى كتاب: "تطور أوروبا العقلي" تأليف دريبر، فهو يساعد على فهم هذا الموضوع. وإذا حَدَّثْتُكُمْ عن منهج المسيحية نحو تقدم الحضارة الحديثة فلن أحدثكم عن تلك القصةِ المُرَوِّعَةِ بالتفصيل، لأن كل مُطَّلِع على تاريخ العصور الوسطى يعرف عنها ما فيه الكفاية، ولكني سأَقِفُكُمْ على النتائج التي وصل إليها ليكي (Lechey) بعد بحوثه المُسْتَفِيضَةِ في هذا الموضوع، قال:

"كان كل اتجاه فكري تَعُدُّهُ الفلسفة جَوْهَرِيًّا في تقدم الأبحاث، مَوْصُومًا بكَوْنِهِ مَعْصِيَةً، كما أن كثيرًا من الرَّذَائِلِ الفكريةِ الفظيعةِ كان مُعْتَبَرًا من الفَضَائِل، وظل

الحال كذلك حتى القرن السابع عشر. كان الشك في الآراء التي يُلَقَّنُهَا الطفل قبل سن التمييز معصية. وكانت الفضيلة أن يعتقد فيها الإنسان اعتقادًا راسخًا دون سؤالٍ أو تَمْحِيص. كان الاعتراض على تلك الآراء أو ملاحظة العيوب المُشْتَمِلَةِ عليها معصية. وكانت الفضيلة إخْمَادَ أي اعتراض عليها بتهمة صدوره من الشيطان. كان من الإجرام البحث في أي شيء بحثًا حرًّا بريئًا من الأغراض، ومن الإجرام اتِّبَاعُ ما تُرْشِدُ إليه العقولُ المستنيرة، ومن الإجرام أن يُدْلِيَ الإنسان برأيه أو أن يعترف بكفاية خصوم الآراء السائدة حينذاك. وبكلمةٍ واحدةٍ كان رجال الدين يعتبرون كُلَّ مَيْلٍ إلى التخلّص من قيود العقائد السائدة وحب التفكير إهانةً موجهةً إلى الله جل وعلا. ولقد نجحوا ـ مدى زمن طويل ـ في شلِّ حركة العقل الأوروبي تقريبًا، وفي إقناع الناس أن البحث الحر الخالي من الأغراض من أَحَطِّ الرذائل؛ نجحوا في ذلك بإبادة كل كتاب يمكن أن يثير مناقشةَ موضوعه، ويَبُثَّ روح التَّصْدِيقِ الأعمى في كل فرع من فروع المعرفة، وباضطهاد المختَلِفين معهم في الرأي اضطهادًا مُرَوِّعًا.

وأخيرًا، أنقذت أوروبا المؤثرات الفكرية التي أوجدت (النهضة) بفضل أولئك الفلاسفة الذين وضعوا شروطًا للبحث، وأولئك المجدِّدين الذين جَرُءُوا على مُنَاهَضَةِ الأفكار العَتِيقَة، ولم يُخِفْهُمُ استشهاد (برونو) و(فانيني) أمام عيونهم. فانتشرت روح الفلسفة، وإنْ شِئْتَ فَسَمِّهَا روح الحقيقة. وضَعُفَتْ روح التعصب الفكري.

وطالما كانت روح التعصب الفكري سائدةً كان الاضطهاد عامًّا نازِلاً بالناس بلا رحمة، مُسَلَّمًا بضرورته. ولمّا قَوِيَتْ روح الفلسفة اِضْمَحَلَّتْ عادة الحِرْمَانِ من رحمة الله، وضَعُفَ الاضْطِهاد، وغَيَّرَ طريقَه، فبعد أن كان عملاً يُجْرَى في العَلاَنِيَةِ أَضْحَى مَيْلاً عامًّا فقط. ففي عصرٍ من عصور الاضطهاد كانت الخوارج تُحْرَق، وكانوا يُزْهَقُونَ بالقوانين الجنائية في عصرٍ آخر من عصوره. وفي عصر ثالثٍ كانوا

يُحْرَمُونَ من المَرَاتِبِ والمكاسب. وفي عصرٍ رابعٍ كانوا يُنْبَذُونَ من المجتمع، وكان كل عصر من تلك العصور مَصْحُوبًا بما يناسبه من اضْمِحْلاَلِ روح التعصب الفكري، وبما يناسبه من ازدياد قوة الحقيقة.

من الواضح، أن أحكام (ليكي) السابقة لا تحاول بأيِّ حالٍ من الأحوال نِسْبَةَ المدنية الحديثة إلى المسيحية بأعلى معانيها. ويمكننا أن نقول: إن المدنية الحالية جاءت على الرغم من المسيحية ولم تُوجَدْ بفضلها. ولكن الحال غير ذلك فيما يتعلق بالحضارة الإسلامية، فقد انتشرت وانتعشت في الوقت الذي انتشر فيه الدين الذي أَوْجَدَهَا، واضْمَحَلَّتْ حينما وقف تَقَدُّمُ الدين وسَكَن.

وهنا نسأل: لماذا فَقَدَ الإسلام حَيَوِيَّتَهُ ونشاطه؟ والجواب على ذلك قريب: إن الدين يَبْقَى من عصرٍ إلى عصر، ولكن الأمة لا تستطيع أن تظل كذلك. فالأمة كأي كائن من الكائنات الحية، لها ميلاد ولها شباب، ثم تموت. أما الدين، إذا كُتِبَ له البقاء، فينتقل من بلاد إلى بلاد لإظهار نفسه. وطالما كان الإسلام ينتقل من مكان إلى مكان ظل حيًّا وظل نَشِطًا. وفي اللحظة التي وقف فيها انتشاره بدأ ضَعْفُهُ.

وتَذْكُرُونَ حضراتكم أن اعتناق الشعوب الجِرْمَانِيَّةِ الباسلة الدين المسيحي جعل للمسيحية ما لها الآن من مجد وحضارة. فهم الذين احْتَجُّوا على المسيحية الأصلية، وهم الذين أَحْدَثُوا الإصلاح في اتجاه تفكير الناس، وأَوْجَدُوا عناصر التفكير الفلسفي الجريء والبحث الحر، وكل الدَّوَافِعِ التي كَوَّنَ مجموعها الحضارة الحالية. ألم يكن الآباء الحُجَّاجُ هم الذين أَوْجَدُوا أمريكا الحديثة؟ على ذلك كان دخول الدين بلادًا جديدة من أهم العوامل في حياة هذا الدين. وقد تَنَبَّهَتْ إلى هذه الحقيقةِ المَنْسِيَّةِ البلادُ الإسلامية الغَافِيَة، وعَوَّلَتْ على اليقظة والتَّوَسُّعِ مرةً أخرى. والدليل على ذلك أن المسلمين من الهنود، على الرغم من كَوْنِهِمْ رَزَحُوا تحت نِيرٍ مُزْدَوَج، يُنْشِئُونَ الإرْسَالِيَّات التَّبْشِيرِيَّةَ ويرسلونها إلى بلاد الغرب. فإن في ذلك ما فيه من قوة العَزْمِ والرغبة في التضحية من أَجْلِ هذا الغرض النبيل. ويسأل المسيحيون

أنفسهم: هل في وُسْعِهِمْ أن يَدُلُّوا على مثل هذه العزيمة بين صفوفهم فيما يتعلق بدينهم؟ وهل هم متفائلون في مستقبل دينهم كتَفَاؤلِنا في مستقبل ديننا؟

إن أول ما يَبْدُو للإنسان هو قوة العقيدة الإسلامية وتَأَصُّلُها في النفوس. وهذه بلا شك ظاهرة جَدِيرَةٌ بالنظر. ولقد أصاب (كارليل) حينما قال في هذا الموضوع: "إن الدين الإسلامي يجد مكانه في صَمِيمِ الأَفْئِدَة. وإن العرب يؤمنون بدينهم ويعيشون به، على عكس المسيحيين الذين لم يتمسكوا بدينهم تَمَسُّكَ المسلمين بدينهم، منذ أيام المسيحية الأولى. والمسلمون يُرَدِّدُونَ عبارة: (الله أكبر) فيتجدد إيمانهم بالإسلام يومًا بعد يوم". ومهما قيل في عدالة (كارليل) ككاتبٍ أو ناقدٍ فإنه لم يُعَارِضْ رأيهَ هذا كاتب من الكُتَّاب حتى الذين عُرِفُوا بمهاجمتهم للإسلام. ولكنى لا أقصد من قَوْلِي هذا أن عيسى كان كاذبًا، أو أن الدين الذي جاء به ليس دينًا حقيقيًا. فما أبعد هذا عما أعتقد! فإني أعتقد مع جميع المسلمين أن عيسى رسول الله، وأنه لم يَأْتِ بما لم يُوحِ به الله. إلا أنني أقول مع ذلك: إن الديانة المسيحية وتعاليم الكنيسة المسيحية، في نظر المسلمين، شيئان مختلفان. فليس للمسيحيين من عقيدة إلا في عيسى الذي خلقَتْه مخيِّلاتُهُمْ. وفي هذا رَدُّ المسلمين على السؤال الآتي: "لماذا لا يكون للمسيحية من السلطان على أتباعها مثل ما للإسلام من السلطان على مُعْتَنِقِيه؟". وقد يسأل سائل فيقول: وما هي مساوئ المسيحية على ما هي عليه الآن، وما هي مزايا الإسلام؟ والجواب على ذلك: أن المسيحية كما هي الآن لا تَسُدُّ مَطالِبَ الدين الصحيح. فالدين الصحيح يجب أن يُقَدِّمَ للناس حُلُولاً معقولة للمشاكل والمُعْضِلاَتِ التي تَعْتَرِضُ حياتهم. والإسلام وحده يُقَدِّمُ هذه الحلول إلى الفرد وإلى الجماعة على السواء. أما المسيحية فإنها في محاولتها تعريف الشيء تقسمه أقسامًا، ولا أكثر من ذلك. وسَأَسْرُدُ على حضراتكم بعض الأمثلة توضيحًا لما أقول: فلنبدأ بموضوع: الله:

إذا أردنا تفسير الفَوْضَى في الخَلِيقَةِ لابد من إثبات وَحْدَتِها، وقد جاء الإسلام بهذا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ

يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤)﴾[1]. ولكن المسيحية بتقسيمها الخالق إلى ثلاثة أقسام جَعَلَتْ من مسألةٍ عَوِيصَةٍ مسألةً أَعْوَصَ منها، فلن يستطيع إنسان أن يقول، ويَدَاهُ على صدره: إن نظرية الثَّالُوثِ معقولة أو مُصَدَّقَة.

وخذوا مثلاً آخر: مسألة المادة والروح اللتيْن تَعُدُّهُما المسيحية قُوَّتَيْنِ مُتَعَارِضَتَيْن، ولابد من قَتْلِ الأولى لحياة الثانية. إن هذا، بلا شك، لا تقبله العقول المنطقية المتفائلة. على أن الأمر على غير ذلك في الإسلام، فلا تَعَارُضَ هناك بين المثل الأعلى وبين الواقع. ولأَجْلِ أن يَحْيَا الإنسان حياةً مِثَالِيَّةً، ليس عليه تَطْلِيقُ الواقع بَتَاتًا، ولكن عليه مُدَاوَمَةُ السَّعْيِ وَرَاءَ المَثَلِ الأعلى حتى يرتفع الواقع إلى مستوى المثل الأعلى. وفي عبارةٍ أخرى يَعْتَبِرُ الإسلامُ المادةَ رُوحًا، ولكنها رُوحٌ تُعَبِّرُ عن نفسها في مجالَيْ: الزمان والمكان. قال تعالى: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[3].

لقد قَدَّرَ (نيتشه) الفيلسوف الألماني تلك الحقيقة في الإسلام فقال: "إذا كان الإسلام يَحْتَقِرُ المسيحية فهو مُحِقٌّ ألف مرة، لأنه اعترف بوجود الإنسان".[4]

---

(١) سورة الصمد.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٨٩.

(٣) سورة الجاثية، من الآية ١٣.

(٤) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس ـ سنة ١٣٥٤هـ ص ٧٢١.

الشَّبِيبَةُ دَوْرٌ خطير من أدوار الحياة الإنسانية، فيه يَتَقَرَّرُ مَصِيرُ الإنسان أدبيًّا وماديًّا، وبه يَتَحَتَّمُ مَآلُهُ سعيدًا أو شَقِيًّا، وعليه يتوقف وجوده نابهًا أو زَرِيًّا.

إننا لَنَظْلِمُ عهدَ الشَّبِيبَةِ لو أطلقنا هذا الحُكْمَ إطلاقًا، فإن كثيرًا من الخِلاَلِ التي تَطْغَى على غيرها في عهد الشبيبة، ويكون لها الأَثَرُ الحَتْمُ في حياة الفرد إلى حَدٍّ بعيد، تكون مَفْطُورَةً عليها النفس أو أَكْسَبَها إياها سُوءُ التربية في عهد الطفولة. أو دفَعتْها فيه الظروف القاهرة، فلابد من حَسْبَانِ حِصَّةِ هذه الأحوال في الكلام عن تَبِعَاتِ الصفات النفسية التي تَتَوَلَّدُ أو تثور في عهد الشبيبة.

دور الشبيبة عند (أبقراط) و(أرسطو) يبتدئ من سن لِلحُلُمِ إلى الخامسة والثلاثين. فقد قالا: إن الإنسان يستمر في النَّماء إلى تلك السن، ثم يأخذ في الانحطاط تدريجيًّا. وهذا صحيح في حالة عدم وجود أمراض. فإذا وُجِدَ شيء من ذلك أسرع الهَرَمُ إلى الإنسان. فما أكثر الهَرْمَى في الخامسة والثلاثين بل في العشرين. وهنا لا يجوز أن ننسى الهَرَمَ الذي تُوَلِّدُهُ جرثومةٌ وراثية عن أحد الأبوين.

الجسم متىٰ بَلَغَ دور الشبيبة تكتسب جميع أنسجته قوةً وتَنَبُّهًا حَيَوِيًّا يَبْقَيَانِ فيها مدةً تختلف طولاً وقِصَرًا بقَدْرِ درجتها من الشدة والضعف. وهذا التفاوت يتعلق أمره بالوراثة وباختلاف الأجناس أيضًا. وعلى نسبة تناقص التنبه الحَيَوِيِّ للأنسجة الجسمية تَدْلِفُ الشَّيْخُوخَةُ إلى صاحبها.

أقوى عِلَلِ التَّحَطُّمِ الشيخوخي تستقر في الجسد في دور الشبيبة، وتبدأ عملها

فيه، ويجمعها كلها عِلَّتَانِ رئيسيتان: الإفراط في التغذى، والإفراط فى الميل الجنسي. فإذا وُفِّقَ الشاب لتلطيف هذيْن الإفراطيْن باتِّباع تدبيرٍ غذائيٍّ صحيّ، وبإيثار الاعتدال في الناحية الأخرى، لم تَتْرُبْ في كِيانِهِ تلك العلل التَّحْطِيمِيَّة، فيَتْبَعُ في دَوْرِ الشيخوخة طريقًا طبيعيًّا يكون حافظًا فيه جميع صفاته الحيوية، ويَطُولُ وُجُودُهُ على الأرض صحيحًا نافعًا.

كان بعض العلماء يعتقدون بوجود قَدْرٍ محدود من القوة الحيوية في كل جسم لا يمكن زيادتها ولا تجديدها فيه يموت بعد اسْتِنْفَادِهَا، ولكن البحوث التجريبية دَلَّتْ على غير هذا. فإنه قد ثبت أن الخالق وَضَعَ في كل جسم أَدَاتَيْن مُعَدَّتَيْنِ لحفظ القوة الحيوية وتجديدها، وهما: القناة الهضمية والرئتان. فبتدبير التَّغَذِّي واستنشاق الهواء النقي تَبْقَى القوة الحيوية قادرة على إمْداد الجسم للبقاء، بشرط ألا يكون الإفراط في عهد الشبيبة قد جعلها غير صالحات للعمل في عهد الشيخوخة.

مدى تأثير التربية في تقويم الشبيبة

الشاب وهو خارجٌ من دور الطفولة ومن حالة الضعف الملازم لها يَحُفُّ به عالم من ذكريات بريئة من الندم، وآمال غير مَشُوبَةٍ بالمخاوف، تؤثر فيه ميول لا يَتَوَهَّمُ أنها قد تكون مُوبِقَة.

يشعر الشاب أنه متمتع بمزايا الحياة كاملة، ويعتبر كل فكرة تطوف برأسه اكتشافًا جديدًا، بل يُخَيَّلُ إليه أن كل نَفَسٍ يتنفسه غذاء مُسكر يُوسِعُ صدره ويُثير حَوَاسَّه ويُخْفِقُ قلبَه.

يحس أنه قد انقلب شخصًا غير الذي كان عليه بالأمس، فإن التغيرات الفيزيولوجية التي طَرَأَتْ عليه تُحْدِثُ فيه انقلابًا ذريعًا تَسْقُطُ معه جميع شهواته وميوله وعاداته الطِّفْلِيَّة، ويحل محلها سواها من ضَرْبٍ آخر لم يَكُنْ يَعْهَدُه، فيميل للاندفاع في سبيل إشباعها بقوة غاشمة.

هنا تظهر ثمرات التربية، وتتجلى عناية الأبويْن بِفِلْذَةِ كَبِدِهما وهو في دور الطفولة..

أَغَرَسَا فيه حَيَاءً يصلح أن يكون له شَكِيمَةً دون غِشْيَانِ النَّقائِص؟ أَبَثَّا فيه عُلُوَّ هِمَّةٍ تَرَعْهُ عن اقْتِرَافِ الخَسَائِس؟ أَعَوَّدَاهُ على الاعتدال في المطالب؟ أَمَرَّسَاهُ على التغلّب على أهوائه؟ أَرَبَّيَا فيه إرادةً يسيطر بها على شهواته؟ أَعَلَّمَاهُ احترام حقوق الغير؟ أَأَفْهَمَاهُ أنّ للوجود الإنساني نُظُمًا يجب الخضوع لها؟ أَدَرَّبَاهُ على تقديس الحق وتحقير الباطل؟ أَحَبَّبَا إليه الإيثار وكَرَّهَا إليه الأَثَرة؟ أَكَشَفَا له عن حقيقة الرجولة ورَسَمَا له معالم البطولة؟ أَأَيْقَظَا في نفسه عواطف الوطنية؟ أَنَبَّها فيه غريزة الحياة الاجتماعية؟ أَنَفَثَا فيه فضيلة أداء الواجب لِذَاتِه؟ أَمَرَّنَاهُ على تقدير الجمال المعنوي في كل قَوْلٍ وعمل؟ - على جواب هذه المسائل إثباتًا أو نَفْيًا، قوةً أو ضعفًا، تتوقف حالة الشبيبة استقامةً وعِوَجًا، خِصْبًا وجَدْبًا، بل نَفْعًا وضَرًّا.

على أننا لسنا بخياليِّين حتى نَزْعُمَ أن أُمَّةً من الأمم الأرضية تجري على هذا السَّمْتِ الأَكْمَلِ في تربية أطفالها. وإنما هي تقترب منه أو تبعد عنه على حسب ثقافتها العامة وعوامل البيئة التي تعيش فيها. وتأثير التيارات الأدبية العالمية مما لا مَحِيصَ من التأثّر بها على أي وجهٍ كان.

ولسنا أيضًا بمُغَالِينَ في تقدير فعل التربية حتى نَتَصَوَّرَ أن تربيةً على هذا الطراز تكفي في إنشاء شَبيبَةٍ مُنَزَّهَةٍ عن الرُّعُونَاتِ البشرية.. ولكنّا نزعم أن للتربية أثرًا خطيرًا في حياة الإنسان لا يجوز التَّغَابِي عنه: إنها تُقَوِّي فيه العواطف الشريفة التي يكون قد فُطِرَ عليها، وتُنَبِّهُ الميول الكريمة التي تقبل التنبيه فيه إن صادفَت وسائل حكيمة، وتُقَوِّمُ الغرائز الجِبِلِّيَّةَ التي تخضع للتقويم إلى حَدٍّ ما.

وهي على كل حال تنشئ فيه حافِزًا على الاعتدال في مطالبه الجسمية التي من طبيعتها أن تَطْغَى طُغْيَانًا تضعف معه جميع شكائم التربية عن كَبْتِهَا. فلا أقول إنَّ

هذا الحافز ينجح في مهمته لَدَى كل شخص، ولكنى أقول: إنه يقوم مقام الواعظ المُحْتَجِّ في كل تارَةٍ من تارَات تلك الثورة المشتعلة.

تأثير إفراطات الشبيبة في حياة الإنسان

قال العلماء: إن هَوَادِمَ الحياة الإنسانية تَتَوَلَّدُ في الجسم بسبب إفراطات الشبيبة. فلا يجوز والحالة هذه إهمال البحث في هذا الموضوع، لأن الحياة أَثْمَنُ من أن تُضَحَّى في سبيل إفراطاتٍ يمكن تعديلها بالتربية من ناحية الأبويْن، أو بالارْعِوَاءِ عنها من ناحية الشخص نفسه.

وقد أَسْلَفْنَا أن هذه الإفراطات تنحصر في أمر التَّغَذِّي والميل الجنسي. فإذا كان هذا الأخير لا سلطان للأبويْن عليه إلا من طريق غير مباشر، فإن لهما مطلق السلطان على الأمر الأول وهو التغذي. ولعله شَرُّ الأَمْرَيْنِ وأبعدهما أثرًا في إبادة الحياة قبل نهايتها الطبيعية.

لستُ أريد هنا أن أتكلم في مسألة التَّغَذِّي باللحوم وفِعْلِهَا الشنيع في البِنْيَةِ على الكبار والصغار معًا. فهذا ما لا نَفْعَ فيه في هذا الدور من الثقافة الإنسانية. ولكنِّي أتكلم على أوهام الآباء والأمهات في أمر تغذية أطفالهم. فإن مُعْظَمَهُمْ يعتقدون أن بِنْيَةَ الأطفال تقوم على مقدار ما يَتَعَاطُونَهُ من المواد المُغَذِّيَة. لا على مقدار ما يستطيعون هضْمه منها وما تحتمله مَعِدَاتُهُمْ. لذلك، ترى العامة ومن لا بَصَرَ لهم من الخاصة يَحْمِلُونَ أطفالهم على الإفراط في التغذي، ويَحْتَالُونَ عليهم في ذلك بكل حِيلَةٍ منذ طفولتهم. فإذا قُدِّرَتْ لهم النجاة من النَّزلاَتِ المَعِدِيَّةِ والمَعَوِيَّةِ نشأوا مَيَّالِينَ للإفراط، فيُكْثِرُونَ من طلب الطعام حتى تكاد لا تراهم خالي الأَيْدِي من شيء منه. فإذا بلغ الطفل العاشر كان مقدار ما يأكله مُسَاوِيًا لمقدار ما يأكله إنسان ناضج. فإذا جَاوَزَ هذا الدَّوْرَ إلى سن الحُلُمِ اندفع وراء مُشْتَهَيَاتِهِ الغذائية لا يعرف لها حَدًّا يقف عنده. فإذا بَلَغَ الأربعين أو زاد عليها بدأ يشعر بأعْرَاضِ الإفراط تَنْتَابُهُ

فيعالجها بحَمِيَّةٍ ناقصة. وببعض المُرَكَّبَاتِ الدوائية. فإذا وَجَدَ بَارِقَةً من رَاحَةٍ وَقْتِيَّةٍ عَاوَدَ ما اعْتَادَهُ من الإفراط أو ما أَوْجَبَ تَسَمُّمُهُ من الأغذية الحيوانية. فوقع في شَرٍّ مما لاقاه أولاً. وَهلُمَّ جَرًّا حتى لا تفيده المعالجة.

لو كان ضَرَرُ الإفراط والتأثر بسموم الأغذية يقف عند هذا الحد لهان أَمْرُهُ. ولكنه يَتَعَدَّى إفلاس القناة الهضمية إلى توليد أمراضٍ عُضَالَةٍ لا يُرْجَى لها شفاء: كتَصَلُّبِ الشرايين من كثرة ما تسرب إليها من أملاح اللحوم والبقول. وكالآلام الروماتيزمية الحاصِلَة من تَرَسُّبِ تلك الأملاح في العضلات والمفاصل. وكإعْيَاء الكبد والبنكرياس والكُليتين والقلب والأعصاب من كثرة ما حملت من أعباء التخزين والتطهير والتَّصْفِيَة والحركة، فيصبح التركيب الجثماني الذي كان إلى سن الخامسة والثلاثين مُنْتَظِمًا مُوَاتِيًا يُوهِمُ صاحبه بشبيبة دائمة، يصبح عُرْضَةً للاِخْتِلاَل.

هل يمكن إطالة دور الشبيبة

هذا سؤال رَدَّدَهُ الباحثون في الحياة منذ خلق الله العلم إلى اليوم. وبَدَهِيٌّ أن كائنًا مثل الإنسان في ثروته الأدبية ومكانته من القُوَى العقلية، لا يعيش حَاصِلاً على كمال مواهبه أكثر من عشرين سنة ثم يَعْتَرِيهَا الذُّبُولُ التدريجي – لهي مسألة تَقْتَضِي إطالَةَ الرَّوِيَّة. فهل حَدَّ الخالق الحكيم لهذا التركيب الدقيق العالي ألاّ يبقى في أكمل حالاته إلا هذه المدة الوَجِيزَة. أم هي أخطاء يُوجِبُها الطَّيْشُ على أهله فيُوقِعُونَ أنفسهم في الشيخوخة قبل حُلُولِ وقتها؟

قال الدكتور (نواريه) في كتابه: (صناعة إطالة الحياة): "إن عالِمًا واسع الاطلاع هو (روجير بيكون) زعم أن الإنسان الخالد بطبيعته يستطيع أن يعيش ألف سنة إذا علم كيف يقتصد ذُخْرَهُ من القُوَى الحيوية. ونحن مع عدم موافقته على هذا الزَّعْمِ

نعترف بأن حياتنا لا تبلغ المدى الطبيعي المُقَدَّرَ لحياة الإنسان. فنحن نموت في منتصف مُدَّتِها المُقَرَّرَة".

نقول: يُفْهَمُ من هذا الكلام أن هنالك مدًى طبيعيًّا للحياة يَفُوقُ المدى الذي تبلغه اليوم عادة. وأن الإنسان هو الذي يَتَعَجَّلُ بأخطائه الهَرَمَ والموت. فما هو هذا المدى وعلى أي قاعدة بناه العلماء؟

قال العلامة الطبيعي (فلورنس): "إن الإنسان يعيش قَدْرَ خمسة أضعاف المدة التي بلغ فيها نموه. وبما أنه يبلغ غاية نموه في العشرين، فهو مستعد لأن يعيش مائة سنة"!

فعقب عليه الدكتور (جاستون دورفيل) بقوله: "عندي أن هذه الأرقام قليلة، فإن الإنسان يبلغ غاية نموه في الخامسة والعشرين. فهو مُسْتَأْهَلٌ لأنْ يعيش مائة وعشرين سنة، ولكن نَظَرًا لضُرُوبِ الضعف التي أَوْجَبَها علينا آباؤنا بسوء معيشتهم، يمكننا أن نُحَدِّدَ الحياة الإنسانية إلى مائة عام. فما أَبْعَدَنا عن لِحَاقِ هذا الشَّأْو! ولماذا نحن بُعَدَاءَ عنه؟ لأننا نقتل أنفسنا".

نقول: إن فيزيولوجيِّين آخرين زَادُوا على هذا التقدير، فجعلوا المدى الطبيعي للحياة مائتي سنة، بَانِينَ ذلك على أن كل حيوان يعيش ثمانية أضعاف المدة التي يبلغ فيها غاية نموه (لا خمسة أضعافها فقط). وبما أن الإنسان يبلغ غاية نموه في الخامسة والعشرين فهو يعيش نحو مائتي سنة.

ولَكن العلامة البكتريولوجي المشهور (متشنيكوف) رفع مدى الحياة إلى ثلثمائة سنة. وأَيَّدَهُ في ذلك الفيلسوف (جان فينو) في كتابه: (فلسفة التعمير). ويؤيدهما أنه قد شُوهِدَ ناس بلغوا المائتيْن وزَادُوا عليهما. وزاد هذا الأخير فقال: لقد شُوهِدَ أن من الناس من عَمَّرَ ألف سنة.. وقد قرأ الناس في هذا العهد كثيرًا من أبناء المُعَمِّرِينَ الذين جَاوَزُوا المائة والخمسين.

هل من طريقة عملية لبلوغ هذه الأمنية؟

يقول أعلام الفيزيولوجيا: نعم. وأحسن جواب رأيناه هو ما قاله العلامة الدكتور (جاستون دورفيل) في كتابه: (صناعة إطالة الحياة) وهو:

"إن سر الحياة السعيدة موجود في الحياة الطبيعية الصحيحة. فلنقترب من الطبيعة لنرى عَوْدَ الاتزان العقلي الجميل إلينا مَصْحُوبًا بالسَّكِينَةِ التي يمتاز بها الرجل القوي. فالحياة الطويلة التي يتطلبها كل كائن سليم الفِطْرَةِ بالغريزة هي جزاء كل من يُوَفِّقُ ميوله على مُقْتَضَى الطبيعة.

"أليس مما يلفت النظر أن الأمم التي عرفت كيف تفتح الأرض كانت عائشةً معيشة طبيعية ساذجة؟" إلى أن قال:

"الحياة حرب مستمرة بين خلايا أجسامنا والميكروبات من جهة، وبين تلك الخلايا وسموم الأغذية من جهةٍ أخرى، فصناعة إطالة الحياة يمكن إيجازها في هذه العبارة: لأجل أن يعيش الإنسان عمرًا طويلاً يجب عليه ألا يُسَلِّمَ نفسه للقتل.

"يقول الأطباء الذين عاصروا العلامة (باستور): يموت الجسد المَنْهُوكُ بتأثير الميكروبات فيه، فلْنَعْرِفْ كيف نُبِيدُ تلك الميكروبات تَطُلْ حياتنا – ولكن كيف نقتل تلك الميكروبات؟ يجيبوننا: تقتلونها بتعاطي المطهِّرات. ولكن هذه المطهرات كما تبيد الميكروبات تبيد الخلايا الجسمية أيضًا.

"فلا سبيل – والحالة هذه – لاتِّقَاءِ الهَرَمِ الباكر إلا الاعتناء بالجسم، والحصول على هذه النتيجة لا يستدعي تعاطي العلاجات ولكن يكفي فيه ما يأتي:

"أولاً – التغذي بحيث تكون الأغذيةُ المُعَوِّضَةُ على قَدْرِ الأجزاء المُتَحَلِّلَة.

"ثانيًا – تصريف المُتَحَصَّلاَتِ الدائرة تصريفًا مُوَافِقًا.

"فمسألة إطالة الحياة ترتكز على هذه القاعدة وهي: معرفة سر التغذية وسر

التصريف. فإذا عرف الإنسان كيف يأكل وكيف يشرب من ناحية، وكيف يتنفس من ناحية أخرى، ثم كيف لا يتسمم ببقايا الاحتراقات الخَلَوِيَّةِ من ناحيةٍ ثالثة، عرف كيف يعيش أَمَدًا طويلاً".

ثم قال الدكتور (جاستون دورفيل) عن الشيخوخة:

"إن الشيخوخة هي نتيجة الاعْتِرَاكِ بين الأنسجة العضوية وبين التَّسَمُّم. وبناءً على هذا إذا أَرَدْنَا أن تبقى أعضاؤنا غَضَّةً وَجَبَ علينا أن ندفع فعل هذا التسمم عن أعضائنا بكل وسيلة.

"وقد جَرَّبْتُ ذلك في نفسي، فإن بيدي اليمنى ناحيةً مُتَصَلِّبَةً أَصَابَتْنِي من جُرْحٍ حدث لي وأنا أُشَرِّحُ جثة، فرأيتُ أني كلما أَحْدَثْتُ في جسمي تَسَمُّمًا سواء بأكل اللحم والبقول أو بالإفراط في العمل ازداد ذلك التصلب ومنعني من تحريك يدي. فإذا أخذتُ الراحة الضرورية واكتفيتُ بأكل الفواكه والنباتاتِ الغَضَّةِ واللبن الحامض، فلا يمضي أكثر من أربع وعشرين ساعة حتى يرتخي ذلك التصلب وأتمكن من تحريك يدي. من هنا عَلِمْتُ أن تصلب الجسم هو نتيجة التسمم الغذائي، والشيخوخة ليست شيئًا غير هذا التصلب. فمن علم كيف يحمي نفسه من التسمم تَجَنَّبَ ضعف الشيخوخة لا محالة".[1]

---

(١) مجلة الهلال ـ الجزء السادس ـ سنة ١٩٣٦م.

علماء أوروبا وفلاسفتها يهتدون إلى الإسلام

إن لَفْظَةَ "دين" قديمة جدًّا كقوم مُسَمَّاها، وشائعة بين جميع الطوائف البشرية سواء حاضرها وبادِيها، وَحْشِيَّها أم مُتَمَدِّنَها، ولكن الناس لم يدركوا معناها على الوجه الصحيح الذي جاءت به الكتب الإلهية والذي ينطبق على رحمة الخالق وعنايته. ومن يتدبر التاريخ يَرَ الشعوب المختلفة قد تطورت مرات كثيرة في فهم معنى هذه الكلمة على نسبة تطور العقل البشري والمعقولات.

كان الأَقْدَمُونَ لا يعرفون الدين إلا أنه مجموعة احتفالات عمومية، تُضَحَّى فيها الحيوانات وأسرى الحروب إرضاءً لمعبوداتهم، وتَسْكِينًا لغضبهم. ثم لما تَرَقَّت المدارك الإنسانية، ونَمَتْ فيها الغريزة العقلية بظهور العلوم والفنون، أخذ معنى الدين يَنْجَلِي شيئًا فشيئًا، ويَقْرُبُ رُوَيْدًا رويدًا من المعنى المراد لله، والذي جاءت الأديان تأمر الناس بفهمه على هذا الوجه.

نحن هنا – قبل أن نتكلم على مَاهِيَّةِ الدين بالمعنى المُراد للإسلام – يجب علينا أولاً أن نتكلم على ما يفهمه علماء أوروبا من هذه اللفظة بعد أن فحصوا العلوم فحصًا، وأَوْسَعُوا الكون بحثًا عن نواميسه، وتَنْقِيرًا عن قوانينه، لنجعل هذا من بعض الأدلة الحسية، على نظريتنا من أن كل خطوة يخطوها العلم في سبيل فهم الحقائق هي تَقَرُّبٌ ظاهر إلى الإسلام، فنقول:

إن علماء أوروبا بعد أن دخلوا في كل دور يمكن أن يدخله الإنسان المُعَرَّضُ لكل أصناف الفتن العلمية، عادوا الآن حيث الهدوء شامل، فاعترفوا عن بَيِّنَةٍ بأن

لهذا الكون خالقًا قادرًا حكيمًا مُتَّصِفًا بكل صفات الكمال، ومُنَزَّهًا عن كل ما يُشْعِرُ بالنقص. وأنه - جَلَّ سلطانه - وضع الكون على نظام مخصوص يستطيع من ينظر إليه برَوِيَّةٍ أن يستنتج منه تلك الصفات العليا استنتاجًا مَحْسُوسًا، وأن يتعلم منها أمورًا يُغْنِي الجريُ عليها، على قلتها وسوء فهمها، عن أُلُوفِ القواعد والتعاليم التي كانت تُلْقَى على الناس فيَحْنُونَ رءوسهم خُضُوعًا لها، ولكن على غير فهم لحُكْمِها وحكمتها.

ثم رأوا باسْتِقْرَاءِ نظام الكون وتَدَبُّرِ نواميسه، أن الخالق جل شأنه يتعالى عُلُوًّا كبيرًا عن الاحتياج لكائن من صُنْعِ يده، بل هو غني بذاته عن كل من عَدَاه. ثم قالوا إن غناه هذا لم يمنعه عن الاهتمام بمخلوقاته اهتمامًا يدل على عظيم رحمته، وأقل نظرة في الوجود تدل على صدق هذه النظرية دلالة حِسِّيَّة.

انظر إلى صُنُوفِ النباتات والحيوانات من أدناها إلى أعلاها، تَرَ آثار هذه الرحمة العُظْمَى تَتَجَلَّى للإنسان تجَلِّيًا يبعثه رغم أنفه إلى محبة ذلك الخالق العظيم. فإنه جل شأنه لم يترك كائنًا من الكائنات إلا وَهَبَهُ ما يُقِيمُ أَوَدَ حياته، ويحفظ بقاءه، وزَوَّدَهُ من القُوَى بما يدفع عنه البَوَائِقَ والجَوَائِح، إلا ما يستلزمه نظام الكون، ويكون في حصوله أثر مَرْحَمَةٍ أَسْمَى، ورأفة أعلى، وأن إلهًا هذا شأنه لا يُحَمِّلُ الإنسان من العبادة إلا ما فيه حكمة بالغة، وفائدة جليلة لذات الشخص وبني نوعه.

ومن يتأمل فى مَبْلَغِ الرُّقِيِّ الذي وصل إليه الإنسان من أول نشأته إلى الآن، يتحقق أن الخالق جل شأنه وَهَبَهُ من الخصائص ما يستمر به تَرَقِّيهِ وتَدَرُّجُهُ إلى حيث لم يصل إليه الفكر البشري إلى الآن.

ثم قالوا: وبما أن أفعال الله مُجَرَّدَةٌ عن العَبَثِ والتناقض، فيجب أن تكون مرغوبة لله تعالى، موافِقَةً للنواميس العالمية الثابتة السائدة في الكون كله، وملائمةً للميول والمَرَامِي المَغْرُوسَةِ في جِبِلَّةِ النوع الإنساني.

فاستنادًا إلى هذه البداءة العلمية التي لا يَصِحُّ المِرَاءُ فيها، بَنَى طائفة عظيمة من علماء أوروبا ديانتهم التي سَمُّوها طبيعية. وإليك ما قاله في هذا الشأن الفيلسوف المشهور (جول سيمون) الفرنسي، قال:

"إننا نؤدي في أثناء هذه الحياة الواجبات التي رسمها الله تعالى لنا تحت رعايته وعنايته، وعند ما ينتهي وجودنا فهو إما أن يُثِيبَنَا أو يعاقبنا". ثم ذكر الأسباب التي تقتضي الإثابة أو المُؤَاخَذَة، فقال:

"أما الأمر الذي يقتضي المَثُوبَةَ الحَسَنَة، فهو طاعة الإنسان للواجب عليه، طِبْقًا لقانونه الخاص وعمله للخير. أما القانون الخاص فهو حفظ ذاته من العَطَبِ وتَرْقِيَةُ خصائصه المُودَعَةِ فيه، ثم هي محبة وخدمة إخوانه، ومحبة مُوجِدِ ذاته وعبادته.

"ولكن ما هي الطريقة التي يعبد بها الإنسان ربه؟ هي: أداء الواجب، وعمل الخير، هو العبادة، والحب والعمل والإخلاص، هي العبادة الحقيقية وهي الصلاة، والإخلاص للوطن، هذه هي العبادة في الديانة الطبيعية، كل أصول مذهبنا واضحة لا رموز فيها. أما أصوله فهي الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شيء، ولا يغيره شيء. خَلَقَ العَوَالِمَ وحَكَمَها بنواميس عامة. ووجود حياة أخرى تؤدي لنا جميع وعود هذه الحياة الدنيا، وتكافئ المَظَالِمَ بالجزاء الأَوْفَى، هذه هي عقائدنا. أما صلاتنا فهي أن تكون قلوبنا مملوءة بمحبة الله تعالى ومحبة الإنسان، وأن تكون لنا إرادة ثابتة في أداء الواجب وخدمة إرادة الله تعالى بعمل الخير والبر" انتهى.

هنا نستدرك فنقول: إن أصحاب هذه الديانة لا يكرهون العبادة الجثمانية كما يؤخذ ذلك من أقوال الفيلسوف (جول سيمون) في غير هذا المَوْضِع، إلا أنهم لا يَعْتَدُّونَ بعبادةٍ جثمانيةٍ لا يكون لها ثمرة أدبية. فهم يريدون أن تكون تلك العبادة مُعْتَبَرَةً وسائل لإحياء القلوب وتطهيرها من أَدْنَاسِهَا، لا أغراضًا قائمة بنفسها مجرَّدةً من كل غاية. قال (كانت) الفيلسوف الألماني المشهور: "العبادات الخارجية

لا تكون رديئة إلا إذا اعْتُبِرَتْ أغراضًا لا وسائل. فهي يمكن أن تكون نافعة مفيدة إذا لم تُعْتَبَرْ إلا وسائل لإيقاظ وتَقْوِيَةِ العواطف الفاضلة في النفس البشرية".

ونحن نستخلص من كل هذه الأَقَاوِيلِ أربعةَ أمورٍ هامة مهمة مذهب علماء أوروبا في الدين، وهي:

(أولاً) الاعتقاد بأن الله غنيٌّ عنا وعن أعمالنا، وأن ما نعمله من خير لا ثمرة له إلا مَنْفَعَتَنا الخاصة.

(ثانيًا) أن الله تعالى رحيم بالإنسان، يَوَدُّ صَلاَحَهُ ولا يكلِّفه بشيء إلا لمصلحة نفسه.

(ثالثًا) أن العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة، وأن تلائم الطبيعة البشرية، لا أن تعارضها وتسعى في مُلاَشَاتِها.

(رابعًا) العبادات الجسمية يجب أن تُعْتَبَرَ وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها، لا أغراضًا مطلوبة لذاتها.

نقول: إن هذه الأربعة الأمور التي لم يصل إليها العقل البشري إلا بعد أن شابَت نَاصِيَةُ الكرة الأرضية، وجعلت علماء القرن التاسع عشر يَتِيهُونَ بها عَجَبًا، ويَتَمَايَلُونَ طَرَبًا، ليست إلا قَطْرَةً من بحرِ الديانة الإسلامية الزَّاخِرِ، وشُعَاعًا من شمسها المتألقة. ونحن لأجل زيادة الإقناع نأتي هنا على النصوص الشريفة التي تنطبق على هذه الأمور الأربعة مُرَتَّبَةً على حَسْبِهَا، فنقول:

(أولاً) الاعتقاد بأن الله غني عنا، وأن ما نعمله تعود ثمرته إلينا ولا ينال الله منا شيئًا، يقابله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾[1].

(ثانيًا) أن الله تعالى رحيم بالإنسان ويَوَدُّ صَلاَحَهُ، ولا يكلِّفه بالعبادة إلا لفائدة

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦.

نفسه. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

(ثالثًا) يجب أن تنطبق العبادة على نواميس الحياة، وأن تلائم الطبيعة البشرية، لا أن تعارضها وتسعى في ملاشاتها، قال الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾[5].

(رابعًا) التكاليف العِبَادِيَّة يجب أن تُعْتَبَرَ وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها، لا أغراضًا مطلوبة لذاتها. قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾[6]. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: "من لم تَنْهَهُ صلاته عن الفَحْشَاءِ والمنكر لم يَزْدَدْ من الله إلا بُعْدًا". وقال عليه الصلاة والسلام: "كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش".

هذه هي عقيدتنا في فهم الدين، وقد رأيت أنها مُطَابِقَةٌ للعقل والعلم تمام الانْطِبَاق، ومُتَّفِقَةٌ مع النواميس الثابتة كمال الاتفاق، ولمَّا كانت مَطَاعِنُ علماء أوروبا على الأديان لم تتوجه إليها غالبًا إلا من هذه الوجهة الرئيسية التي تَبْتَنِي عليها سائر قواعد الدين، فقد حَقَّ لنا أن ننادي بأعلى صوتنا أن الإسلام هو الدين الذي ترضاه

(١) سورة البقرة، من الآية ١٨٥.
(٢) سورة المائدة، من الآية ٦.
(٣) سورة البقرة، من الآية ٢٨٦.
(٤) سورة النساء، من الآية ٦٦.
(٥) سورة النساء، الآية ٢٨.
(٦) سورة الحج، من الآية ٣٧.

العقلية العلمية، لاتفاقهما في الأصول، واتحادهما في الأغراض والوِجْهَة، وهو أَجَلُّ من أن تناله هَبَاءَةٌ من ذلك التَّنْدِيد، وأعظم وأَعَزُّ من أن يصيبه أي مَطْعَنٍ من تلك المطاعن.

هذه الأربعة الأصول يعتبرها أصحاب الديانة الطبيعية أركانًا تُبْتَنَى عليها القواعد القانونية التي يكون في العمل بها ارتفاع الإنسان في معارج الكمال الذي أَعَدَّ الحق هذا النوعَ لبلوغه، ولمّا كان العلم هو المَنُوطُ إجماعًا بالتَّحَسُّسِ من تلك القواعد المُرَقِّيَةِ للإنسانية، فهم يعتبرون كل قاعدة يتوصل إليها من هذا القبيل كأنها قاعدة دينية، في الجري على سُنَّتِهَا رضاءُ الخالق جل وعز.

أما المَرْوِيَّاتُ القديمة والأساطير التي مضى عليها ألوف من السنين مع ما استلزمَتْه من قواعد الدين، فقد صَدَفُوا عنها وهجروها هَجْرًا لا رَجْعَةَ عنه. قال الفيلسوف الألماني (كانت) Kant:

"الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوي إلا على قوانين، أعنى قواعد قابلة للتطبيق نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة، وتكون مجرَّدة عن الأساطير والآراء الكَهَنُوتِيَّة".

نقول: كأن (كانت) يريد أن يُذَكِّرَ المسلمين بقوله تعالى: **﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[1][2].

---

(١) صورة البقرة، الآية ١٣٤.

(٢) مجلة الأزهر ـ المجلد الثالث والعشرون ـ سنة ١٣٧١هـ ص ٦.

صادف المجدِّدون الذين خدموا الإنسانية أَجَلَّ الخِدْمَاتِ، والمكتشفون للمَجْهُولاَتِ، من سخرية العامة ومقاومة أهل العلم ما لا يمكن تَحَمُّلُهُ والصبر عليه، لولا أن الله سبحانه وتعالى كان يمدهم بروحٍ منه فيحتملون ما يصيبهم من العَنَتِ بثَبَاتٍ عجيب، واعتقادٍ راسِخ. وقد ذَكَرَهم العلامة الفلكي المشهور (كامیل فلامريون) في كتابه المَدْعُو: (المجهول والمسائل النفسية) أَلَمَّ فيها بتاريخ الجُمُودِ العلمي، وتاريخ اسْتِعْصَائِهِ عن قَبُولِ كل جديد، وضَرَبَ لذلك أمثالاً مما يَنْدُرُ وُجُودُهُ في المؤلَّفات، فرأينا أن نُتْحِفَ قُرَّاءَ مجلة الأزهر.

على أن في ذِكْرِ تاريخ هذه الحالة العقلية فوائد لا تُقَدَّرُ من ناحيةِ أنه يُعْلَمُ تَأْلِيهُ التَّثَبُّت، فلا يعود يَتَعَجَّلُ بالتكذيب بالحقائق الجديدة، حتى لا يُحْرَمَ من بركاتها، وحتى يكون سببًا في تَوْسِيعِ نطاق العلم، وزيادة مادته. قال الأستاذ في مقدمة كتابه المدعو: (المُنْكِرُونَ والمسائل النفسية) ما ترجمته الحرفية:

"عدد كبير من الناس مصابون بقِصَرِ نظر حقيقي في العقل، وقد صورهم (لومبير) أصدق تصوير بقوله: إنهم يتخيلون أن الأفق المحيط بهم هو نهاية العالم. فترى الحوادث الجديدة، والآراء الحديثة تَكْسِفُهُمْ وتُذْعِرُهم. فهم لا يريدون أن يتغير السير العادي للأشياء، أما تاريخ تقدم العلوم الإنسانية فلديهم من الشئون التي يجب أن تُهْمَل.

"وتظهر لهم جراءة الباحثين والمخترعين ومُحْدِثِي الانقلابات من الجرائم، ويُخَيَّلُ إليهم بأن النوع الإنساني كان دائمًا على ما هو عليه الآن، فلا يتذكرون عصر الحجر،

ولا عهد اكتشاف النار، ولا زمن اختراع عمل البيوت والمَرْكَبَاتِ والسكك الحديدية، ولا تَوَالِي الفتوحات العقلية، ولا استكشافات العلم، فترى فيهم للآن أثرًا من وراثة أسلافهم الأسماك بل والحيوانات الرَّخْوَة، ونجد هؤلاء السادة المحترَمين يتمكنون من الجلوس على كراسيهم، ويَظَلُّونَ على تلك الحالة في راحةٍ لا يَعْتَرِيها أَقَلُّ اضطراب، وهم ليسوا أَهْلاً لقبول ما لا يفهمون، ولا يطوف بخيالهم حالهم الحقيقي من أنهم لا يعلمون أقل شيء. ولا يعرفون بأن في ثِنِي كل تعليل لأي ظاهرة من الظواهر الطبيعية مجهولاً، فيكتفون بتغيير الألفاظ ليس إلا. لماذا يسقط الحجر؟ لأن الأرض تجذبه. مثل هذا الجواب الواضح يشبع مطامعهم العلمية، فيَتَوَهَّمُونَ أنهم قد فهموا هذه المسألة، والتلاعب بالتفسيرات المدرسية المقرَّرة تَفْتِنُهُمْ على نحو ما كانت عليه الحال في عهد (موليير).

في كل عصر، وفي جميع أدوار المدنية، يصادَف أمثال هؤلاء الرجال البُسَطَاء وهم في حالة هدوء وسكون، ولكن ليس بغير زَهْو، فينكرون بسلامة قلب جميع الأشياء التي لم يبحثوا فيها. ويزعمون أنهم يحكمون على النظام الكوني الذي لا يُسْبَرُ له غَوْر. مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ نملتين في حديقة تتكلمان في تاريخ فرنسا، أو في بُعْدِ الشمس عن الأرض.

فلنعرض للقارئ حوادث من التاريخ، ولْنَأْتِ ببعض الشواهد على ما نقول:

تحررت مدرسة (فيثاغورس) من الآراء العامية على الطبيعة، وارْتَقَتْ إلى إدراك الحركة اليومية لكوكبنا الأرضي، فمنعت بذلك السماء التي لا نهاية لها من أن تَتَكَلَّفَ الدوران حول نقطة تافهة في كل أربع وعشرين ساعة. فلسنا في حاجة لأن نقول بأن الرأي العام ثار على هذا الرأي الجليل، فلا يمكن أن يُطْلَبَ إلى الفيل أن يطير إلى وَكْرِ النَّسْر. ولكن كانت قوة المعتقدات الراسخة بحيث منعت العقول الراقية من قبول هذا الرأي، حتى عقلي (أفلاطون) و(أرخميدس)، وهما العقلان اللذان يتألقان نورًا. وكان من عِدَادِ المُكَذِّبِينَ أيضًا الفَلَكِيَّانِ (هيبارك)

و(بطليموس). حتى إن هذا الأخير لم يتمالك نفسه من الإغراق في القَهْقَهَةِ من مثل هذه الخُزَعْبَلَةِ الفارغة. وقد وصف نظرية دوران الأرض بأنها مضحكة للغاية. هذا التعبير قارص جدًّا. وكأننا نرى من هنا بطن كاهن صالح من كُهَّانِ ذلك العصر يضطرب ويَتَلَوَّى من دُعَابَةٍ بمثل هذه القوة وهو يقول: ما أكبر هذا السُّخْف! الأرض تدور؟ لقد أصاب الفيثاغورسيين الخَبَل، تلك أَدْمِغَتُهُمُ التي تدور".

ثم أخذ الأستاذ (كاميل فلامريون) يَسْرُدُ تاريخ الاستشكافات العلمية وما لَقِيَهُ العلماء المستكشفون من المكافَحات والاضطهادات. فذكر أن الفيلسوف الكبير (سقراط) قُبِضَ عليه وقُتِلَ بالسم لأنه تَرَفَّعَ عن تَصْدِيقِ الخرافات التي كانت شائعة في زمنه. وأن الفيلسوف (أناجزاغور) اضْطُهِدَ وعُذِّبَ لأنه زَعَمَ أن الشمس أكبر من شبه جزيرة بيلوبونيز ببلاد اليونان!!!

وجاء بعده (غاليليه) بألفي سنة فأُحْرِقَ بالنار، لأنه قال: إن الأرض كرة حقيرة في هذه اللانهاية السماوية. ثم قال ما ترجمته حرفيًّا:

وقد حضرت في ١١ من مارس سنة (١٨٧٨) تقديم الفونوغراف الذي اخترعه (إديسون) إلى مجمع العلماء الفرنسي. فلما أدار مقدمة الآلة وتكلم الفونوغراف هَبَّ أحد العلماء الكبار وهو المسيو (بويو) من مكانه وأمسك بخِنَاقِ الرجل، وصاح في وجهه: تَعْسًا لك! إننا لا ننخدع لمُشَعْوِذٍ مثلك يتكلم من بطنه. وما هو أعجب من هذا أن هذا العالم أعلن بعد هذه الحادثة بستة أشهر – أي في جلسة ٣٠ سبتمبر – لَمجْمَعِ العلماء بأنه درس مسألة الفونوغراف (دَرْسًا مُدَقَّقًا) فرأى أن المسألة مسألة تَدْلِيس، وأن الصوت الذي يَرِنُّ منه ليس مُنْبَعِثًا من الفونوغراف، ولكن من بطن مُقَدِّمِه. ثم قال: (أي العلامة بويو) ولا يُعْقَلُ أن يستطيع المعدن مُحَاكَاةَ الجهاز الصوتي الشريف للإنسان"! فلم يكن الفونوغراف في نظره إلا من الأوهام!

ولما حَلَّل الكيماوي الكبير (لافوزابيه) الهواء إلى عنصريه: الأوكسيجين والأزوت، ثار عليه أكثر من عالم عظيم. وانْبَرَى له الكيماوي الأشهر (بوميه) أحد أعضاء المجمع العلمي، ومخترع الأريومتر، ورَدَّ عليه بقوله:

"إن العناصر أو الأصول المكوِّنة للأجسام قد اعْتَرَفَ بها وتَحَقَّقَ منها الطبيعيُّون في جميع العصور وفي كل الأمم. وليس من المُحْتَمَلِ أن تُوضَعَ هذه العناصر التي عُرِفَتْ منذ ألفي سنة بأنها بسيطة، في عِدَادِ الأجسام المُرَكَّبَة، كما أنه ليس من المُحْتَمَلِ أيضًا أن تُعْتَبَرَ حقيقية تلك الوسائل التي تُقَدَّمُ لنا لتحليل الماء والهواء، ولا تلك الأدلة المستحيلة (ولا نقول أكثر من ذلك)، الداعية إلى إنكار وجود عنصرَي النار والتراب. فإن الخَوَاصَّ المُعْتَرَفَ بها لهذه العناصر تتعلق بجميع المعارف الطبيعية والكيماوية التي تَحَصَّلْنَا عليها إلى الآن. وقد صارت هذه العناصر قواعد لعددٍ لا يُحْصَى من مكتشَفات ونظريات تَتَبَارَى كلُّها في الوضوح والجَلاَء. وهذه المكتشَفات والنظريات يجب أن تُرْفَعَ منها كل ثقة إذا اعْتُبِرَ أن النار والهواء والماء والتراب غير عناصر أصلية".

ثم قال (كاميل فلامريون) عَقِبَ هذا:

"كل الناس يعلمون اليوم بأن هذه الأربعة العناصر، التي دُوفِعَ عنها بهذه الروح العظيمة من التَّقْوَى، لا وجود لها. وإن الحق في جانب الكيماويين العصريين بتحليلهم الهواء والماء. أما عنصر النار الذي كان يقول عنه (بوميه) ومعاصروه بأنه الأصل المُوَلِّدُ للطبيعة والحياة فلم يوجَد إلا في خيال أولئك الأساتذة.

والعالِم (لافوازييه) نفسه ليس ببريء من مثل هذا الجُمُودِ العلمي، فقد كتب للجمعية العلمية بحثًا مُسْهَبًا يثبت لها فيه استحالة سقوط الأحجار من السماء. وقد كانت تلك الأحجار – وهي النيازك – قد شُوهِدَتْ في أماكن متعددة، ورُئِيَتْ وهي ملتهبة، ومع هذا كله أعلنت الجمعية العلمية بأن ذلك من الأمور التي لا يتصورها العقل. وفي سنة (١٦٢٧) سقط نيزك يزن ثلاثين كيلو غرامًا في رائعة النهار ورآه

العالم (غاساندي) بعينيْ رأسه ولَمَسَهُ وفحصه ونَسَبَهُ لثورة أرضية مجهولة، مع أن النيازك عُرِفَتْ بعد ذلك بأنها بقايا كواكب متحطمة، تمر بها الأرض فتجذبها إليها، فتسقط عليها من السماء.

"وقد كان الأساتذة الأرسطاليسيون يؤكدون في عصر (غاليليه) أن الشمس لا يمكن أن يكون عليها كَلَفٌ، وقد ثبت ذلك بَعْدُ بالحِس.

ولما رأى العالم (جالفاني) مكتشف الكهرباء بأن أرجل الضفادع التي كان عَلَّقَها على قضبان الحديد في بيته قد اضطربت، انْهَمَكَ في دَرْسِ سبب ذلك ونَسَبَهُ للقوة الكهربائية، هَزِئَ به الناس وسَمُّوهُ أستاذ رقص الضفادع. فكتب يقول سنة ١٧٩٢: "لقد هُوجِمْتُ بطائفتيْن متعارضتيْن: العلماء والجُهَلاَء. كِلْتَا الطائفتيْن تَهْزَآنِ بي وتُسَمِّيَانِي أستاذ رقص الضفادع. ومع هذا فإني مُتَحَقِّقٌ من أني قد اكتشفتُ إحدى القُوَى الطبيعية".

"وفي هذا الوقت نفسه أنكر المجمع العلمي والمجمع الطبي المغناطيس الإنساني إنكارًا مُطْلَقًا، وعَلَّقَا تَصْدِيقَهُمَا به على نجاح (جول كاوكيه) في استئصال سرطانٍ ثَدْيِيٍّ لامرأةٍ بدون بِنْج، ولكن بواسطة التنويم المغناطيسي وحده".

"ولما اكتَشف (هارفي) الدورة الدموية هَزِئَتْ به جامعة الطب، وسَلَقَتْهُ بأَلْسِنَةٍ حِدَاد".

"ولَمَّا قَدَّم الماركيز (جوافروا) سنة ١٧٧٦ مشروع عمل السفن البخارية رماه الناس بالعَتَه، وقالوا هل يتفق الماء والنار؟ وعرضت الحكومة مشروعه على الجمعية العلمية لفَحْصِهِ فقررت بأنه خيال، فاشتد استهزاء الناس بالمخترع ونَبَذُوهُ بالأَلْقَاب. فَنَبَغَ عَقِبَهُ (فولتون) وعرض مشروعه على أُولِي الأمر، فلم يُصَادِفْ غير ما صادفه سابقُه. فرحل إلى أمريكا، وهناك لَقِيَ بعضَ المساعدة بعد جَهْدٍ جَهِيد.

"ولما اكتشف (فيليب لوبون) الاسْتِصْبَاحَ بالغاز، نشر مشروعه فلم يَأْبَهْ به أحد، وسَخِرَ الناس منه، ومات صاحبه ولم يجد لندائه مُلبِّيًا، وكانوا يَرُدُّونَ عليه باسْتِحَالَةِ وجود مصباح بدون فَتِيل".

"ولما اكْتُشِفَتِ السكة الحديدية لنقل المسافرين والبضائع، ثار الناس على المخترع وعَدُّوهُ مُخَرِّفًا، وكتب المهندسون الفصولَ الطِّوَالَ لإثبات أن العجلات تدور على نفسها ولا تسير على القضبان. وقام العالم الرياضي المشهور (أراغو) في مجلس النواب سنة ١٨٣٨، فأثبت فساد هذا المشروع وأفاض في بيان جُمُودِ المادة وصلابة المعادن ومقاومة الهواء. وزعم أن هذا المشروع لو نجح أَفْضَى إلى تقليل إيرادات النقل على الحكومة فتخسر بذلك مالاً طائلاً. ثم ختم خطبته بقوله: "لِنَحْذَرْ من المُضِيِّ مع الأوهام فإن مُثَلَّثَيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ من الحديد (يريد القضبان) لا يُغَيِّرَانِ طبيعة أراضي غاسكونيا البور".

"وخطب السياسي الكبير (تيرس) في هذا الموضوع فقال: "أنا أُسَلِّمُ بأن مشروع السكة الحديدية يكون من ورائه (بعض الفوائد) مثل نقل المسافرين إذا قُصِرَ ذلك على بعض الخطوط القصيرة جدًّا والمنتهية إلى بعض البلاد الكبيرة كباريس، ولا يجوز عمل خطوط طويلة...

"وقال الاقتصادي الكبير (برودون): "إن من الآراء الساذجة المضحكة الزَّعْمَ بأن السكك الحديدية تخدم في تسهيل تبادل الأفكار".

"ولما اسْتُشِيرَتِ الجامعة الطبية الملكية في أمر السكك الحديدية، أجابت بأنها إن تَحَقَّقَتْ تُوجِبُ المَضَارَّ الشديدةَ على الصحة العامة، فتُسَبِّبُ الدُّوَارَ للركاب والمشاهدين في الخارج، ونصحت بعمل حواجز عالية خشبية تح الحديدية حيثما مُدَّتْ (حتى لا يَرَى القطار أحدٌ وهو سَائِر).."[1].

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الثالث والعشرون ـ سنة ١٣٧١ هـ، ص ٩٦.

حضرة الأستاذ:

سلامًا وإجلالاً، وبعد..

فنرجو مَكَارِمَك أن لا تَضِنَّ على شبيبة تُؤَمِّلُ الخير فيك أن تخرجها من الشبهات التي أثارتها قصيدة (نشيد الخلود)، المنشورة في جريدةٍ كثيرةِ الانتشار، لأحد أساطِين الشعر العربي. فقد جاء منها قوله:

وَيْحَ الطَّبِيعَةِ كَيْفَ تَمْزُجُ بِرَّهَا ... باللُّؤْمِ تَسْخَرُ مِنْكَ كالمُجَّانِ
تَتَلَقَّفُ الفَضَلاتِ ثم تَدُسُّهَا ... لَكَ في الطَّعَامِ شَهِيَّةَ الأَلْوَانِ

وقال يَنْحَى باللوْم على الطبيعة:

تَرَكَتْكَ أَعْزَلَ بَيْنَ مُشْتَجَرِ الأَذَى ... فَتَخَطَّفَتْكَ طَوَارِقُ الحَدَثَانِ
تَرِدُ المِيَاهَ وكُلُّ سَائِلٍ قَطْرَةٍ ... سَيْلٌ مِنَ الحَشَرَاتِ والحَيَوَانِ
خَفِيَتْ عَلَيْكَ وَرَفَّهَتْ عَنْكَ الجَوَى ... فَنَأَيْتَ عَنْ حَتْفٍ لِحَتْفٍ دَانِ
إِنْ ضَلَّلَتْكَ وَأَوْبَقَتْكَ فإِنَّهَا ... طُبِعَتْ على التَّمْوِيهِ والعُدْوَانِ
فَسَلِ الحَيَاةَ: إلامَ يَصْرَعُ بَعْضُهَا ... بَعْضًا فَمَجْنِيٌّ عَلَيْهِ وَجَانِ
تَبْنِي وَتَهْدِمُ مَا بَنَتْهُ مَلُولَةٌ ... تَتَبَدَّلُ البُنْيَانَ بِالْبُنْيَانِ
لله كَمْ لِلْجَهْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ ... أَزْرَتْ بِكُلِّ يَدٍ مِنَ العِرْفَانِ

عَـبَرَتْ بِـكَ الأَوْهَـامُ تُـؤْنِسُ عِنْدَهَا ... بَــرْدَ اليَقِـــينِ وَنِعْمَـــةَ الرِّضْـــوَانِ
فَـشَفَيْتَ بَعْـضَ أُجَاجِ نَفْسِكَ بالَّذِي ... نَفَــضَ الخَــيَالَ عَلَــيْكَ مِــنْ أَلْــوَانِ
تِلْـكَ الـسَّعَادَةُ في الحَـيَاةِ وإِنْ تَكُــنْ ... عَــبَثَ الوَلِـــيدِ وضِـــحْكَةَ الأَزْمَـــانِ
وَلَقَـدْ وَثِبْتَ مِـنَ الخُمُـولِ فَلَمْ تَذُقْ ... في العِلْــمِ غَــيْرَ مَــرَارَةِ الخِـــذْلاَنِ
وَعَـبَرْتَ تَهْلَـعُ مِنْ مَـصِيرِكَ في غَـدٍ ... أَنْ يَــسْتَبِدَّ بِــهِ "الــزَّوَالُ الــثَّانِي"
تَــــنْفُضُ مُنْتَثَـــرَ الهَـــبَاءِ مُمَـــزَّقًا ... بَـــيْنَ العَـــنَاصِرِ طَـــامِسَ العُـــنْوَانِ

إلى أن قال:

حَمَــلَ الغُــوَاةُ عَلَــيْكَ في نَــزَغَاتِهِمْ ... فَــضَلَلْتَ بَــيْنَ الحِــسِّ والــوِجْدَانِ
إِنِّي كَفَــرْتُ بِــمَا يَقُــولُ غَــوِيُّهُمْ ... وَرَضِـــيتُ بالتَّوْحِـــيدِ والإِيــمَانِ
الوَحْــيُ أَصْــدَقُ والخَلِــيقَةُ آيَــةٌ ... للهِ تَــــنْطِقُ عَـــــنْهُ بالـــــبُرْهَانِ

يقول حضرة الشاعر: الويل للطبيعة فإنها تُهِينُكَ إذ تُحَلِّلُ لك المواد البُرَازِيَّةَ والقَاذورات في بطن الأرض، وتخرجها لك فاكهةً وخُضَرًا لتأكلها. وقد قَذَفَتْ بكَ إلى الحياة بغير سلاح، فتَخَطَّفَتْكَ المَعَاطِب. ورَمَتْكَ بالميكروبات في المياه لتَسْلُبَكَ وجودَكَ وأنت تتخيل بتناولها بأنك تُرَفِّهُ عن نفسك. ولقد طُبِعَتِ الطبيعة على التَّضْلِيلِ والتَّعَدِّي فصارت لك قُدْوَةً في المَكْرِ والاحْتِيَال. فاسأل الحياة لأيِّ غَرَضٍ يُهْلِكُ بعضُها بعضًا؟

ثم قال: إن الجهل أفضل من العلم، فإنه يُؤَاتِيكَ بَرْدَ الإيمان ونعمةَ الرِّضَى بما أنت فيه، إذ يُوهِمُكَ أن العَوَالِمَ كلها خُلِقَتْ لك فيَشْفَى بعض ظَمَإ نفسك بما يَجْلُبُهُ لكَ من أنواع الخيال. فهذه هي سعادة الحياة، وإنْ كانت في حقيقتها من أَلاَعيبِ الصِّبْيَانِ وأَضَاحِيكِ الأَزْمَان!

أما العلم فقد أَثْبَتَ لكَ أن عالمك ذَرَّةٌ في جُمْلَةِ الكواكب المُتَكَدِّسَة، فارْتَدَدْتَ على عَقِبِكَ مُنْزَجِرًا مُرْتَعِدًا من رَوْعَةِ المَلَكُوت.

هُنَالِكَ أَطْرَقْتَ مَخْلُوع الفؤادِ يَئِسًا من مَصِيركَ الشخصيّ، إذ تموت فَتَنْحَلُّ أجزاء جسمك ويذهب كُلٌّ منها إلى عنصره ليس له وجودٌ مُسْتَقِلٌّ.

ثم قال: هذه هجمة من الغُوَاةِ عليكَ، فضَلَلْتَ بين العلم المحسوس وبين خيال الوجدان، أما أنا فقد كفرتُ بما يقول هؤلاء الغُوَاةُ ورَضِيتُ بالتوحيد والإيمان، مُلْتَجِئًا إلى ما أَوْحَاهُ الله في كتبه.

فيأيها الأستاذ: هل يَصِحُّ وَصْفُ الطبيعة باللؤم؟ وهل هي تُضَلِّلُ الإنسانَ لتُوبِقَهُ وهو أَعْزَل، وتسقيه السُّمَّ الزُّعَافَ وهو يَتَوَهَّمُ أنها تَرَفِّهُ عنه؟

وهل الحياة تَبْنِي وتَهْدِمُ على غير هُدَى، كأنها نَشْوَى لا تَعِي ما تفعل؟

وهل الجهل هو الذي يُوهِمُ الإنسان أنه سلطان الخليقة، والعلم يُزِيلُ عنه هذا الوَهْمَ ويُثْبِتُ له أنه لا شيء في هذا الوجود العظيم؟

وهل الوَحْيُ عدوٌّ للعلم؟

سعيد رفقي

جوابنا عن هذه المسائل:

لا يصح وصف العلم باللؤم ولا بالتضليل، وهو عَتَادُ الإنسان في هذه الحياة، والكاشف له مَسَاتِيرَ الوجود، والمبتكِرُ له من الوسائل ما يستطيع معه أن يُغَالِبَ المبيدات التي تَحْدِقُ به من كل مكان.

والحياة طُبِعَتْ على البناء والتقويم، فإنْ تَهْدِم فلأجل أن تبني ما هو أَكْمَلَ وأَقْوَم، وهذا الأثر منها ظاهر لا يحتاج لبيان، فهل الأرض يوم انفصلتْ عن جِرْمِ الشمس كتلة ملتهبة، ثم بَرَدَتْ قشرتُها جَرْدَاءَ مُوحِشَة، كانت على ما هي عليه اليوم عامرةً

بالأحياء؟ وهل الإنسان وهو يَهِيمُ على وجهه كبعض الهَامِجَات، لا ينال العيش إلا تَبَلُّغًا، ولا البقاء إلا لِيَاذًا في الكهوف والغِيرَان، كان على ما هو عليه اليوم من العلم والمدنية والخصب وتوافر الوسائل الحيوية؟ فهل هذه الأعمال المُحَيِّرَةُ للعقل تَصْدُرُ عن قُوَّةٍ نَشْوَى، لا يحدث منها غير الهَذَيَانِ والعَرْبَدَة؟

وليس الجهل بخيرٍ من العلم. فإذا كان العلم قد كشف للإنسان أن أرضه ذَرَّةٌ في الفضاء، وأنه هو يكاد يكون بجسمه لا شيء فيها، فإنه قد أثبت له أنه بروحه وعقله عالم كبير، عظيم الحَوْلِ والطول، مُتَّصِلٌ بعالم الروح اتّصال الجزء بِكُلِّه، والفرع بأصله، وأنه بانتمائه إلى هذا الأصل سلطان على العالم المادي بحق، وقد كشف عن سلطته عليه بما أحيا من مَوَاتِه، وأقام من عمرانه، وسَخَّرَ من نواميسه، واستخدم من فَوَاعِلِه. فإنْ شِئْتَ أن تعرف مدى سلطانه عليه فَجُلْ فيما لا يسكنه من بِقَاعِه، فهل تُصَادِفُ غير مَوَامٍ مُوحِشَةٍ، ومَعَامٍ قاحلة، وفَيَافٍ مَاحِلَة؟

وكيف يَسُوغُ لإنسانٍ أن يَدَّعِيَ أن الوحي عدو للعلم، وهو يدعو إليه، ويُشِيدُ به، ويقرر بأنه سبيل الإيمان، ووسيلة الفهم والإذعان؟ ألم يجئ في الوحي الأخير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[4].

أما القول بأن الطبيعة تَتَلَقَّفُ الفَضَلاَتِ والأَقْذَارَ، وتجعل منها لك طعامًا شهيًّا، قَاصِدَةً بذلك إهانتك والسَّخَرَ منك، فقَوْلٌ ليس عليه عَبَقَةٌ من العلم. فإن ما تعتبرُهُ

(١) سورة الزمر، من الآية ٩.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٣.
(٣) سورة الروم، من الآية ٢٢.
(٤) سورة المجادلة، من الآية ١١.

أنتَ فضلاتٍ وأقذارًا، لا يفترق في تركيبه الكيمائي عن أي شيء تعتبره أنتَ نفسكَ أَطْهَرَ ما في الكون. والعُفُونَةُ التي لا تستطيع أن تَقْرَبَ منها من سُوءِ وَقْعِهَا على حاسة شَمِّكَ، لا تفترق في طهارة عناصرها عن الطِّيبِ الذي يَسْتَهْوِيكَ عَرْفُهُ فتُضَمِّخُ به رأسك، وتمسح به وجهك. فإنْ كانت حاسة الشم وحدها هي التي تُفَرِّقُ لك بين ما هو طَيِّبٌ وما هو قَذِر، فقد حَكَمْتَ على نفسك غيرَ حكيم، وأَوْقَعْتَها في خطإٍ عظيم. فإن خلاصة جذور نبات الفالريانا لا يفترق في ريحه عن ريح المادة الفَضْلِيَّة، وهو علاج جَلِيلُ القَدْرِ ومن الطُّهْرِ بمكانٍ مَكِين. فإنْ كان الإنسان أَسِيرَ حواسه واعتباراته، فإن العلم الحَقَّ لا يَتَقَيَّدُ بشيءٍ من ذلك، فهو يعتبر الشيء من حيث هو في حقيقته لا من حيث تأثيره في الحواس البشرية، ولا من حيث قيمته من الأمور الاِعْتِبَارِيَّة. والرجل الحكيم مع احترامه للأمور الاعتبارية الخاصة بنوعه وعُرْفِه، يجب أن يكون من سلامة الإدراك بحيث لا يُسَرِّي تلك الاعتبارات على الوجود في إطلاقه. فلا يَجُوزُ له، وهو مُكَبَّلٌ في القُيُودِ الاعتبارية والعُرْفِيَّة، أن يَنْخَدِعَ بها فيقول إن الطبيعة مُشَعْوِذَةٌ لَئِيمَة، تَتَلَقَّفُ المواد البُرَازِيَّة، وتُحَوِّلُهَا إلى ثمراتٍ شهية، وتَضْطَرُّنِي إلى أكلها، مُرِيدَةً بذلك إهانتي والسَّخَر مني، ولكن يجب عليه أن يعرف إلى أيِّ مَدًى هو مخدوع بأموره الاعتبارية وبعُرْفِه، حتى يُخَيَّلَ إليه أنه يعود فيأكل القَذَرَ الذي خرج من بطنه!

على أن الطبيعة عندما آتَتِ الإنسان ثمراتها الشهية، لم تَكُنْ قد كَوَّنَتْهَا له من مَوَادِّهِ الفَضْلِيَّة، ولكنه هو الذي وضع بيده تلك الفضلات حيث تسبح جذور النباتات لتَغْتَذِيَ بها، وكان يستطيع أن يضع بَدَلَهَا مواد نباتية مما يغطي سطح الأرض ولا فائدة له عنده، فإنْ عَدَّ تحليل الأرض للمواد الفَضْلِيَّة وإعادتها إليه ثمرات شهية، جنايةً عليه، فهو الذي فعل ذلك بنفسه، فلا يَأْخُذَنَّ الطبيعةَ بذَنْبِه.

أما أن الطبيعة قد تركت الإنسان أَعْزَلَ بين مُلْتَطَمِ العَوَادِي، ودَسَّتْ له المَكَارِيبَ الفَتَّاكَةَ في المياه لتهلكه.. إلخ إلخ، فكلامٌ ليس فيه مُسْكَةٌ من العدل، ولا ظل من التحقيق، فإنها قد نَحَلَتِ الإنسانَ من قوة العقل، ونور البصيرة ما استطاع معه أن يَتَغَلَّبَ به على جميع تلك العَوَادِي، ما ظهر منها وما بَطَن، فخضعت لسلطانه، وما بَرَحَ يستثمر تلك القوة ليصل إلى حيث لا يَبْلُغُهُ وَهْمُهُ من الغَلَب والسلطان على ما يُحِيطُ به. فمَن لا يريد أن يرى هذا الأمر الجَلَل، فَلْيَنْدِبْ حَظَّهُ ما شاء، فليس ذلك بضَائِرٍ أحدًا غيره.

أما قول الشاعر: إن الموت سَيَنْقَضُّ عليكَ، فيَفُضُّ وجودَك، ويَنْثُرُ عناصرك في الأرض فتصبح طَامِسَ العنوان – أي فَانِيًا ليس لك وجود – فقَوْلٌ لو صَحَّ على الجُثْمَانِ المادي فلا يَصِحُّ على الروح، وهي ما بها الإنسان إنسان. وقد أثبت علم القرن العشرين بأنها سَتَبْقَى بعد فَنَاءِ هذا الجثمان، في عالمٍ أَرْفَعُ من هذا العالم، أَثْبَتَهُ بأَدِلَّةٍ لا يمكن دَحْضُها على أسلوبه الذي لا عِوَجَ فيه، فإذا أنكر ذلك مُنْكِرٌ لا يريد أن يتابع العلم في تطوره، مُشَايَعَةً للنظرياتِ العَتِيقَةِ البَائِدَة، فإنَّ عارَ ذلك لا يَلْحَقُ بالعلم ولكن يلحق بالمُقَصِّرِينَ فيه. وقد أَتَيْنَا في هذه المجلة على كثيرٍ من ثمرات بحوث العلماءِ في هذا الباب، وسَنُتْبِعُهَا بأمثالها في كل فرصة.

فإنْ كان الشاعر يَعْنِي بالغُوَاةِ هؤلاءِ فقد أصاب، ولكنه أَطْلَقَ القَوْلَ حتى عَمَّ كل رجال العلم، كما يُؤْخَذُ من لجوئه إلى الوحي مباشرة، تَوَهُّمًا منه بأن ما يقوله هو رأي العلم نفسه، لا رأي طائفة من شُذَّاذِه، وهو خطأ عظيم كان يجب أن لا يقع فيه، فإنه بجَعْلِهِ الوَحْيَ مُنَاقِضًا لمُقَرَّرَاتِ العلم، قد سَجَّلَ عليه أنه لا يصلح أن يجتمع هو والعلم في رأس، وأنه لا يلجأ إليه إلا المُسْتَكِينُونَ الذين يَهُونُ عليهم أن يتركوا العلم لأهله، مُكْتَفِينَ بما يَعُدُّهُ العلم وَهْمًا مَقْضِيًّا عليه بالزَّوَال. ولكنه كان يجب عليه أن يقول:

حَمَلَ الغُوَاةُ عَلَيْكَ في نَزَغَاتِهِمْ والغَيُّ لا يَخْفَى على يَقْظَانِ
فالجأْ إلى العِلْمِ الصَّحِيحِ فإنهُ يَحْمِيكَ من إفْكٍ ومن بُطْلاَنِ
وَالَى الفُتُوحَ تَجَارِبًا حتى غَدَا للوَحْيِ رِدْءًا دَامِغَ البُرْهَانِ

لو كان قال هذا لكان مُمَثِّلاً للواقع، فإن العلم بتجاربه وفتوحاته العظيمة قد أقام الأدلة المحسوسة على خُلُودِ الروح، وعلى وجود العالم الروحاني، وقضى قضاءً نهائيًّا على المُتَلاَعِبِينَ بقُصُورِه، الذين جعلوا من ذلك القصور حُجَجًا لإلحادهم، ومتى صَحَّ في عقلٍ أن يكون القصور حُجَّةً على نفي شيء أو إثباته؟ ولو انتظروا به فلَعَلَّهُ يَفْتَحُ عليه ما يزيل عنه القصور كما فَتَحَ عليه من قبل، ولكنهم لا يصبرون ولا يعترفون بقصوره!

فإنْ كان يوجد مَن تُحَدِّثُهُ نفسُه بأنه ذو عقل جبار كما يقولون، وأن الجَبَرُوتَ لا يكون إلا بالتمرد على الحقائق الخالدة، التي تَضَافَرَتِ الحُجَجُ المحسوسة على وجودها، فإن جبروته هذا يُعْتَبَرُ ضَعْفًا يُرْثَى له منه، وحَسْبُهُ ما وَصَفَهُ به الشاعر من أنه يعيش مُطْرِقًا مُنْخَلِعَ الفؤاد من الهَلَع.

وعلى ذِكْرِ العقول الجبارة التي أكثر من ذِكْرِهَا كُتَّابُ العربية اليوم، نقول إن المعايير التي يَزِنُونَ بها هذه العقول ليست لها قيمة حقيقية، فهم يَحْسَبُونَ الجرأةَ على إنكار ما اتفق الحكماء على إثباته، والإقْدَامَ على هَدْمِ ما تواضعوا على بنائه، دون مُبَالاَةٍ ولا اكْتِرَاثٍ، ولا الرجوع إلى علم أو هدى أو كتاب منير، هي المعايير التي تُقَدَّرُ بها قوة العقول. والحقيقة أن قوة العقول تُقَدَّرُ بما تَسْتَكْشِفُهُ من المَجَاهِيل، وما تستخرجه من المَسَاتِير، وما تصل إليه مما خَفِيَ على الأَكْثَرِين، فإنْ كان الذين يدعوهم الناس بجَبَّاري العقول على شيء من هذه الصفة، وَجَبَ أن يُبَيِّنُوا للناس بالأَدِلَّةِ أن ما هم عليه عَرِيقٌ في البُطْلاَن، وأنهم قائمون منه على عقائدَ مَوْرُوثَةٍ لا أصل لها في العلم، ولا أساس في المنطق. فإنْ وَقَفُوا هذا الموقف أمام ما اتفق الناس على الإِذْعَانِ له، وأثبتوا لهم بما ألقوه عليهم من النور صحةَ ما اتهموهم به

إليه، ولم يخشوا في الحق لَوْمَةَ لائِم، أَمْكَنَ اعتبارهم من جَبَّارِي العقول، ولكن اكْتِفَاءَهُمْ بتكذيب ما عليه الناس، والاستهزاء به، وهم يعجزون عن إقامة أي دليل على ما يذهبون إليه، فلا يُنِيلُهُمْ شرف هذا اللقب العظيم.

وإننا لَنَأْسَفُ أن أكثر مَن يطلقون عليهم هذا اللقب الضخم في الشرق هم من هذا القَبِيلِ الأخير. وما دام يستطيع أيُّ مُفْلِسٍ أن يحصل على مثل هذا اللقب بإنكار العقائد، والحَطِّ من قيمة التقاليد، فلا عَجَبَ أن يكون في الشرق من جبابرة العقول بقَدْرِ ما يكون فيها من المُفْلِسِينَ المُسْتَهْزِئِين.[1]

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد العاشر ـ سنة ١٩٥٨م، ص ٥٠.

إن من أَخَصِّ صفات المدنية السامية، أن يكون بين الناس في علاقات بعضهم ببعض آداب عالية وعادات حسنة يَتَوَاضَعُونَ عليها فيما بينهم، ويُرَاعُونَهَا أَدَقَّ المُرَاعَاة في تعاملهم وتَخَاطُبِهِمْ. هذه الصفات هي التي تُمَيِّزُ الأمم المُتَحَضِّرَةَ عن القبائل المُتَبَدِّيَة. والإسلامُ الذي اسْتَوْفَى جميعَ مُقَوِّمَاتِ الأجساد والأرواح والاجتماع لم يَغْفُلْ هذه الناحيةَ من الأدب المَدَنِيِّ، فوَفَّاهُ حَقَّهُ، فجاء أَكْمَلَ ما عُرِفَ في تاريخ المدنيات إلى اليوم.

ومن أَعْجَبِ ما يُعْرَفُ عن الإسلام أنه كما عُنِيَ بإحْدَاثِ أكبر انْقِلاَبٍ شَهِدَتْهُ البشرية في الدين والاجتماع والعلوم والصنائع، عُنِيَ كذلك بهذه الناحية من المظاهر المدنية التي تَشِفُّ عن كمال الذَّوْق، ورِقَّةِ العواطف. فقد رَغِبَ في تحسين المظهر: من إِجَادَةِ المَلْبَسِ والتَّعَطُّر، وقَصِّ الشعر والأظافر، ومُراعاة قواعد النظافة، والتَّظَرُّفِ في التعبير، والبِشْرِ والهَشَاشَة، ودعوةِ الناس بأحسن ألقابهم، وعدم مُجَابَهَتِهِمْ بما يكرهون، وبَدْئِهِمْ بالسلام وحُسْنِ الإصْغَاءِ إليهم. وإنّا لَبَاسِطُونَ هنا بعض ما سَنَّهُ الإسلامُ من هذه السِّمَات المدنية، مُورِدِينَ ما جاء في حقها من الأحاديث والآثار النبوية، وما نُقِلَ عن الصحابة والتابعين في الجَرْيِ عليها، فإنها معالم للمدنية الفاضلة، وأعلام للآداب الكاملة، فنقول:

السلام والمصافحة:

قال النبي ﷺ: "من بَدَأَ بالكلام قبل السلام فلا تُجِيبُوهُ حتى يبدأ بالسلام". وفي هذا إشارة إلى أن الكلام قبل السلام سُوءُ أدب يستحق فاعله أن يُجَازَى عليه بإغْفَالِ

شأنه. وقد سَنَّ النبي ﷺ هذه السنة بعمله، فقد قال بعضهم: دخلتُ على رسول الله ﷺ ولم أُسَلِّمْ ولم أستأذن، فقال رسول الله: ارْجِعْ وقُلِ السلام عليكم، وادخل.

وقد نَدَبَ النبي ﷺ إلى العمل بهذا الأدب حتى مع الأهل، فقد رَوَى جابر عنه أنه قال: "إذا دخلتم بيوتكم فسَلِّمُوا على أهلها، فإن الشيطانَ إذا سَلَّمَ أحدكم لم يدخل بيته". وهذا ظاهر، فإن الإنسان إذا دخل بيته مُسَلِّمًا فجَدِيرٌ أن يكون ذلك أَوْجَبَ للوِئَامِ والأُلْفَةِ بينه وبين أهله، فماذا عَسى أن يجد الشيطان ما يَنْزَغُ به بين أهل بيتٍ هذا شأنُهم من الصَّفَاءِ ومراعاة الكرامة؟

وقد صرح رسول الله ﷺ بأن الحكمة في التَّوْصِيَةِ بإفْشَاءِ السلام بين المؤمنين هي تَمْكِينُ أَوَاصِرِ التَّحَابِّ بين آحادهم، والتَّحَابُّ بين الآحاد أساسُ الاجتماعِ الوَثِيقِ العُرَى، المُحَقِّقُ لفائدة المُجْتَمِعِين، فقد قال ﷺ: "والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تَحابُّوا، أفلا أَدُلُّكُمْ على عملٍ إذا عَمِلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: أَفْشُوا السلامَ بينكم".

وقد أذاع النبي ﷺ عادةَ المُصَافَحَةِ بين العرب وكانوا يَعُدُّونَها من عادات الأَعَاجِم. روى (البَرَاءُ بن عَازِب) رضي الله عنه، أنه دخل على النبي وهو يتوضأ فسَلَّم، فلم يَرُدَّ عليه حتى فَرَغَ من وُضُوئِه، فرَدَّ عليه ومَدَّ يدَه إليه فصَافَحَهُ، فقال البراء: يا رسول الله ما كنتُ أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم، فقال له: إن المُسْلِمَيْنِ إذا الْتَقَيَا فتصافحا تَحَاتَتْ ذُنُوبُهُما.

وعن (أَنَس) قال صلى الله عليه وسلم: "إذا التقى المؤمنان فتصافحا قُسِّمَتْ بينهما سبعون مغفرة: تسع وستون لأحسنهما بِشْرًا". فانظر كيف نَدَبَ إلى البِشْرِ عند المصافحة، والبِشْرُ علامة الصفاء النفسي والإقبال القلبي. فيَعْسُرُ على المُتَصَافِحَيْنِ بعد هذا البِشْر وهذا الإقبال أن يَتَنَازَعَا على تافِهٍ من الأمور، فإن كان

بينهما أَمْرٌ ذو بَالٍ عَمَدَا إلى المُيَاسَرَةِ والمُحَاسَنَة، وحَسَمَا ما بينهما من خلاف على صَفَاءٍ ومحبة.

وكان "أنس" رضي الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم. ويُرْوَى عن رسول الله ﷺ أنه فعل ذلك.

وسَنَّ النبي تحية الانصراف أيضًا فقال: "إذا انتهى أحدكم إلى مجلسٍ فَلْيُسَلِّمْ، فإنْ بَدَا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فَلْيُسَلِّمْ، فليستِ الأولى بأَحَقَّ من الأخيرة".

وقد عُنِيَ النبي ﷺ بأمر السلام حتى سَنَّ له نظامًا على حَسَبِ ما يكون فيه الإنسان من حال، فقال: "يُسَلِّمُ الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير".

قد ذكر البِشْرُ عَرَضًا في أمر السلام، ولكن النبي ﷺ أَفْرَدَهُ بالتَّنْوِيه، فقد روى (أبو هريرة) أنه قال: "إن الله يحب السَّهْلَ الطَّلْقَ الوجه". وقال: "اتقوا النار ولو بِشِقِ تَمْرَة، فمن لم يَجِدْ فبكلمةٍ طَيِّبَة". وقال (معاذ بن جبل)، قال لي رسول الله ﷺ: "أُوصِيكَ بتَقْوَى الله، وصدقِ الحديث، ووفاءِ العهد، وأداءِ الأمانة، وتَرْكِ الخيانة، وحِفْظِ الجار، ورحمةِ اليتيم، ولِينِ الكلام، وبَذْلِ السلام، وخَفْضِ الجناح". فانظر كيف وضع لِينَ الكلام وخَفْضَ الجناح في صَفٍّ تلك الخصال العالية، وجَعَلَهُ عَلَمًا من أعلام الطريقة المُثْلَى.

وقد زاد النبي ﷺ هذه الخَصْلَةَ تَنْوِيهًا، فرُوِيَ أنه قال: "أَتَدْرُونَ على مَن حُرِّمَتِ النار؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: على الهَيِّنِ اللَّيِّنِ السَّهْلِ القريب"، فإذا عَلِمَ الناس أن النار حُرِّمَتْ على مَن هذه صِفَتُه، فكيف لا يتنافسون في التَّخَلُّقِ بها، وكيف تَرُوجُ في بيئتهم صفات أهل الجاهلية من الغَشْمَرَةِ والغَطْرَسَةِ والجَبَرِيَّة.

ومن خِلاَلِ المَدَنِيَّةِ الفاضلةِ التي سَنَّها الإسلام تَوْقِيرُ الشيوخ والعَطْفُ على الأطفال، فقد رُوِيَ أن النبي ﷺ قال: "ليس مِنَّا مَنْ لم يُوَقِّرْ كبيرنا ولم يرحم صغيرنا". قال العلماء: ومن تمام تَوْقِيرِ الشيوخ أن لا يُتَكَلَّمَ بين أيديهم إلا بالإذْن. قال جابر رضي الله عنه: قَدِمَ وَفدُ جُهَيْنَةَ على النبي ﷺ فقام غلام ليتكلم، فقال رسول الله: "فأين الكبير".

أما خَصْلَةُ العطف على الصغير فمأخوذة من الحديث المتقدِّم. وكان من عادته ﷺ التَّلَطُّفُ بالأطفال والعطف عليهم. جاء في سيرته الشريفة أنه كان يَقْدَمُ من السفر فَيَتَلَقَّاهُ الصبيان، فيَقِفُ عليهم، ثم يَأْمُرُ بهم فيُرْفَعُونَ إليه، فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم، فربما تَفَاخَرَ الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض: حملني رسول الله بين يديه وحَمَلَكَ أنت وراءه، ويقول بعضهم: أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم.

ورُوِيَ عنه أنه كان يُؤْتَى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة وليُسَمِّيَهُ، فيأخذه فيضعه في حجره، فربما بال الصبي، فيصيح به بعض من يراه، فيقول النبي ﷺ: "لا تَزْرِمُوا الصبيَّ بَوْلَهْ" فيَدَعُهُ حتى يَقْضِيَ بَوْلَهُ. ثم يَفْرُغُ من دعائه له وتسميته، لِئَلاَّ يروا أنه تَأَذَّى ببوله. فإذا انصرفوا غَسَلَ ثوبه بَعْدُ.

انظر إلى هذا العطف البالغ أقصى غاياته حتى في حالة بَوْلِ الصبي عليه، فلا يريد أن يرفعه حتى لا يزعجه ويُنَغِّصَ على أهله. هذا والله مَثَلٌ أعلى في هذا الباب ليس وراءه مذهب.

وقد اسْتَنَّ أصحابه بِسُنَّتِه، فأقبلوا على الصبية بوجوههم وقلوبهم وغمروهم في عطفهم وبِرِّهِمْ. رُوِيَ أن أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) اسْتَدْعَى رَجُلاً لِيُوَلِّيَهُ بعض عمله، فبينما هو يَعُدُّ له كتاب الوِلاَيَةِ إذ أقبل غلام له، فأخذه عمر فَقَبَّلَه، فقال

له الرجل: أَتُقَبِّلُ الصغار يا أمير المؤمنين، فإني لم أُقَبِّلْ صغيرًا قَطّ. فالتفت إليه عمر وقال له: اذهب فلا حاجة لنا بك؛ فإنَّ مَنْ لم يرحم الصغير لا يرحم الكبير، وأَحْجَمَ عن تَوْلِيَتِه.

وقد سَنَّ النبي ﷺ تَوْقِيرَ الزائر، وهو من سمات أهل المدنية الفاضلة، خلافًا لأهل البَدَاوَةِ أو القَرِيبي عَهْدٍ بالحضارة، فقد رُوِيَ أن النبي ﷺ كان ربما يزوره زائر وهو جالس على وسادة ولا يكون فيها سَعَةٌ يجلس معه عليها، فينزعها ويضعها تحت الذي يجلس إليه، فإنْ أَبَى عَزَمَ عليه حتى فعل. وقد أمر أصحابه أن يَسْتَنُّوا بسُنَّتِه. ورُوِيَ أنه دخل بعض بيوته فدخل عليه أصحابه حتى اكْتَظَّ بهم المكان، فجاء (جرير بن عبدالله البجلي) فلم يَجِدْ مَحلاً، فجلس عند الباب، فلَفَّ رسول الله ﷺ رداءه فألقاه إليه، وقال له: اجلس على هذا. فأخذه "جرير" ووضعه على وجهه وجعل يُقَبِّلُهُ ويبكي، ثم لَفَّهُ ورمى به إلى النبي وقال: ما كنتُ لأجلس على ثوبك، أَكْرَمَكَ الله كما أَكْرَمْتَني! فنظر النبي يمينًا وشِمالاً ثم قال: إذا أتاكم كريمُ قَوْمٍ فأَكْرِمُوه. ورُوِيَ أنه ﷺ لمَّا زاره وَفْدٌ من النَّصَارَى فَرَشَ لهم عباءته ليجلسوا عليها.

وقد اعتاد أهل المدنية اليوم أن يُسَمُّوا تواضع الكبار للفقراء والمساكين ديموقراطية، فترى وزراءهم وكبراءهم يختلطون بهم في الحفلات ويشاركونهم في الجلوس معهم في الدرجة الثالثة بالتراموايات. وقد سبقهم الإسلام فجعل التواضع لأهله شِرْعَةً، تحقيقًا لمبدأ المساواة الذي كان هو أول من رَفَعَ عَلَمَهُ في الأرض، فقال رسول الله ﷺ: مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَه. وقال: "لو كان المُتَوَاضِعُ في قعْرِ بئرٍ لَبَعَثَ اللهُ إليه مَن يرفعه" وقال: "إن الله تعالى أَوْحَى إليَّ أنْ تواضعوا حتى لا يَفْخَرَ أحدٌ على أحد". وعن (ابن أبي أوفى): كان رسول الله ﷺ يتواضع لكل مسلم ولا يَأْنَفُ ولا يتكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجته.

وقد سَنَّ الإسلام الاِسْتِئْذَان، وهو اليوم من الخِلاَلِ التي تُعَدُّ من مُمَيِّزَاتِ أهل المدنية، فتراهم يحرصون عليها ولا يتسامحون فيها، وأنت ترى أن الإسلام قد سَنَّهَا

لأهله منذ أجيال كثيرة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾[١].

هذا غَيْضٌ من فَيْضٍ مما سَنَّهُ الإسلام لأهله من سمات المدنية الفاضلة. وجُمْلَةُ ما وَرَدَ عنها وعُمِلَ به منها يَفُوقُ ما عليه المُتَمَدِّنُونَ اليومَ رِقَّةً، ويَبُزُّهُ لُطفًا. وفي ذلك دليل على أن الإسلام شُرِعَ ليكون دينًا عامًّا يصلح لجميع العصور، ويُلائِمُ أرقى الحالات العقلية والنفسية، وليس بعد هذه السنن النبوية والعادات الإسلامية مَذْهَبٌ لمن يَتَطَلَّبُ أقصى غايات المدنية. فإذا كانت نفوسٌ لا تزال على صفات أهل الجاهلية من الكِبْر والجَبَرِيَّة، والصَّلَفِ والعُنْجُهِيَّة، فإن الزمان كَفِيلٌ بِرَدِّهِمْ إلى الصواب، وإذْ ذاك لا يجدون وراء هذا الدين مَطْلَبًا، ولا عن طريقته المُثْلَى مُتَنَكَّبًا.[٢]

---

(١) سورة النور، الآيتان ٢٧، ٢٨.

(٢) مجلة الأزهر، المجلد السادس ـ سنة ١٣٥٤هـ، ص ٦٠.

نشر الأستاذ القانوني الكبير الدكتور (عبدالسلام ذهني بك) منذ رَدَحٍ من الزمان، بحثًا قَيِّمًا تحت عنوان: (التَّوَثُّبُ للنُّهُوضِ الفِقْهِيِّ وعُدَّتُه)، ثم شَرَّفَنَا بزيارةٍ وتحدث إلينا طويلاً في ضرورة جَمْعِ المذاهب الفقهية كلها في مجموعة واحدة، لما يُتَوَقَّعُ من وراء ذلك من التأثير العظيم في البيئات الفقهية في العالم كله، عندما يَرَى رجالُها رَأْيَ العَيْنِ سَبْقَ المسلمين إلى وَضْعِ مبادئ لم تَكُنْ معروفةً في الشرائع القديمة التي تُعْتَبَرُ مصادرَ لجميع الشرائع الوَضْعِيَّة في العصر الحاضر، وأرادنا على إعادة نشْر هذا البحثِ القَيِّمِ ليكون تحت نظر أعلام الشريعة الإسلامية، ورجانا أن نُبْدِيَ رأينا فيه.

الموضوع جِدُّ خطير، وخاصةً في هذا العهد الذي تُقَدَّرُ فيه أقدار الأمم بما قَدَّمَتْهُ من آثارٍ مَاجِدَةٍ في إقامةِ صَرْحِ المدنية العالمية، وبما كان لعبقرية بعض آحادها، أو لجهود بعض طوائفها من ثمراتٍ عقلية زَادَتْ بها مادة التراث الأدبي للإنسانية قَاطِبَة.

وقد أثبتت البحوث الاِسْتِقْرَائِيَّة في تاريخ المسلمين، أنهم أَمَدُّوا هذا التراث العام في كل مَنْحًى من مَنَاحِي النشاط العقلي والعملي، بما لم تُجَارِهِمْ فيه أي أمة كانت قبلهم، فسَجَّلَتْ لهم علومًا ابتكروها، وصناعات اخترعوها، وفنونًا أَوْجَدُوهَا أو جَدَّدُوهَا، مما أَتَيْنَا على ذِكْرِ الكثير منه في هذه المجلة، مُثْبِتًا بالأدلة التاريخية عن الأجانب أنفسهم. ألا يَدْهَشُ القارئ حين يقف على قول الأستاذ (دريبر) المدرس في جامعة نيويورك في كتابه: (المنازعة بين العلم والدين): "إننا لَنَدْهَشُ حين نرى في مؤلفاتهم (أي المسلمين) من الآراء العلمية ما كُنَّا نَظُنُّهُ من نتائج العلم في هذا العصر"؟ وقول الفيلسوف الكبير (جوستاف لوبون) في كتابه: (تاريخ العرب):

"إنهم في كثيرٍ من فنون الصنائع قد برعوا براعةً لم يُلْحَقْ لهم شَأْوٌ فيها للآن"؟ وقول المؤرخ الإنجليزي الكبير (جيبون): "كان من أثر تنشيط الأمراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمي في المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة"؟ وأنت خبيرٌ بما يقوم في كل هذه المسافة من أمم وشعوب مختلفة اللغات والأجناس والألوان.

غير أنه توجد ناحيةٌ من نواحي النشاط العقلي لآبائنا الأَوَّلِين، لم يَتَأَتَّ للباحثين الأوربيين سَبْرُ غَوْرِهَا، وليست بأقل من سواها قيمةً تاريخية، فَخَبِطُوا فيها خَبْطَ عَشْوَاء، ألاَ وهي الناحية الفقهية. ومن أَبْشَعِ مظاهر هذا الخَبْط، زَعْمُ جمهورهم أن الشريعة الإسلامية منقولة عن القوانين الرومانية.

أما السبب في هذا الخَبْطُ في نظرنا، فهو يرجع إلى الصعوبة العظيمة التي يعانيها كل مستشرق في تَفَهُّمِ الكتب الفقهية، وفي الوقوف منها على أصولها الأَوَّلِيَّة، فكُتُبُنَا الفقهية لا تزال من ناحية الترتيب على النَّحْوِ الذي كانت عليه أيام صدورها لُغَةً وتَبْوِيبًا ونظامًا، وزَادَهَا الشُّرَّاحُ والمُحَشُّونَ والمُعَلِّقُونَ تَرَكُّبًا، فأصبحت صعبة المَآخِذ، مُلْتَوِيَةَ المسالك، لا يَسْهُلُ الأَخْذُ منها إلا على العلماء المُشْتَغِلِينَ بها، فإذا اعْتُبِرَ العمل الذي قام به المرحوم (قدري باشا) من تلخيص مذهب الإمام (أبي حنيفة) عظيمًا، فما ذلك إلا بسبب الجهد الذي عاناه في استخلاص ما تَصَدَّى لجمعه من أحكام ذلك المذهب من كُتُبِهِ المقررة.

فإذا كان هذا شأن العالِمِينَ بالعربية، والمُجَاوِرِينَ لأعلامها، فما ظَنُّكَ بالأوروبيين الذين لم يَأْلَفُوا هذا الضَّرْبَ من التأليف، ولم يُسْعَفُوا بمن يهديهم إلى طُرُقِ الأَخْذِ منه، فاضْطُرُّوا إلى الانصراف عنه، وصار كل ما يقولونه عنه رَجْمًا بالغيب، ليس فيه أَثَرٌ من التَّمْحِيصِ ولا التحليل؟

وعليه، فالحاجة أصبحت مَاسَّةً جدًّا إلى وَضْعِ كل مذهب على حِدَة، وَضْعًا يتفق وما اعتاد أهل العصر الحاضر أن يَرَوْا عليه المؤلفات العلمية، ثم جَمْع تلك المذاهب وجميع الآراء الفقهية التي سبقَتْها وتلَتْها في مجموعةٍ واحدة، لِيَسْهُلَ على المُشْتَغِلِينَ بالأمور الفقهية الِاسْتِمْدَادُ منها، ويستطيع الأجانب الاطِّلاع عليها. وهذا ما يدعو

إليه المستشار الفاضل (عبدالسلام ذهني بك) في مقالته المنشورة هنا. ولَسْتُ بعد ذلك أَشُكُّ في أن شُبْهَةَ القائلين باشْتِقَاقِ الفقه الإسلامي من الفقه الروماني تَضْمَحِلُّ وتَتَلاَشَى، وتَتَجَلَّى عظمة الشريعة السَّمْحَةِ جَلِيَّةً واضحةً تُبْهِرُ الأنظار، وتَسْتَهْوِي الألباب، ويشهد الوجود لها بأنها الشريعة الخالدة، فتَحِلُّ مَحَلَّ الفقه الروماني في إمداد جميع الشرائع بالأصول والمبادئ القانونية.

الفقه الروماني:

لا أنكر أن الرومانيين وَجَّهُوا عنايةً خاصةً إلى دراسة الأمور الشرعية، وكان لهم ـ من اتِّساع دائرة مُلْكِهِمْ، واختلاف الأجناس الواقعة تحت سلطانهم، وضرورة سَنِّ نُظُمٍ لحفظ هذه الجماعات المتباينة أصولاً وعادات ولغات في دائرة معاملات مَرِنَةٍ ـ مَسْرَحٌ فسيح للنظر الفقهي، ومجالٌ صالح لتربية الأَلْمَعِيَّةِ الإِشْتِرَاعِيَّة، ولكنهم مع كل هذه الوسائل لم يخرجوا في تأصيل أصولهم، وبناء قواعدهم ومبادئهم عن الدائرة التي كانت محصورةً فيها جميع الشرائع، وهي دائرة الحق للقوة، حيث كانت القوة في الفرد أو في الجماعة. فالسُّرَاةُ والمحاربون كانوا أقوى من العامة، ولذلك خُصُّوا بامتيازاتٍ وحقوقٍ حُرِمَ منها أفراد الشعب، حتى كان العَامَةُ يُضْطَرُّونَ للدخول تحت حماية السُّرَاة، فكان لكل منهم حَامٍ يحميه إذا لَحِقَهُ ضَيْمٌ.

ومبدأ الحق للقوة يقتضي تقسيم الناس إلى طوائف، لأن القوة تَتَفَاوَت درجاتها، فكانت هذه الطوائف تَنْعَمُ بالامتيازات، على حين أن عامَّةَ الشعب يَرْزَحُونَ تحت جميع الأَعْبَاءِ الاجتماعية.

وكانت العقوبات مناسبةً لهذا التقسيم، فما تَحْكُمُ فيه الشريعة بالقتل على أحد العامة، كانت تُخَفَّفُ فيه العقوبة إذا صدرت من أحد أفراد الخاصة، حتى قد لا يُحْكَمَ عليه بأَكثر من التَّعْزِيرِ الكَلاَمِيِّ.

ولَمَّا كان الأب أقوى أفراد الأسرة، فقد خُوِّلَ كل حَقٍّ على زوجته وأولاده وعبيده، حتى حق معاقبتهم بالقتل.

أما الأَرِقَّاءُ والأجانب فلم يَكُنْ لهم أدنى حَقٍّ أمام القانون.

ولَمَّا كانت الدولة أقوى من ممتلكاتها ومستعمراتها، فقد كان لا حَدَّ لسلطانها عليها.

نعم، إن هذه الشريعة قد هَذَّبَتْ من مبادئها في خلال القرون الكثيرة التي عاشَتْها، ولكنها فعلت ذلك تحت ضغط ضُعَفَائِهَا الذين كانوا كثيرًا ما يهجرون المدن ويَعْتَصِمُونَ بالجبال، مُضْرِبِينَ عن الحياة مع الخاصة، فكانوا يُسْتَرْضَوْنَ بتَلْطِيفِ بعض الأحكام الشرعية. وعلى كل حال، فإن هذه الشريعة لم تخرج قَطُّ عن مبادئها الأَوَّلِيَّة، وأصولها القانونية.

ولكن الشريعة الإسلامية بُنِيَتْ من أول وجودها على الحق المُطْلَق، فهي لا تَعْتَدُّ بالأحوال والمُلابَسَاتِ التي تحيط بالناس، وتُعْنَى بتَقْرِيرِ الحق لصاحبه أيًّا كانت حالته وجنسه وديانته ولغته ولونه. فأمامها الشريفُ والوَضِيعُ، والخاصِّيُّ والعَامِيّ، والعالِمِ والجاهل، والحر والعبد، والكبير والصغير، والرجل والمرأة، سواء.

هذا المبدأ الإسلامي كما سَرَى على الأفراد، سَرَى كذلك على الجماعات؛ فالأمة صاحبة السيادة، والأمم التابعة لها سَوَاءٌ كذلك في الحقوق والواجبات، وقد صَرَّحَ أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) بهذا المبدإ عندما أمر أن يَقْتَصَّ أحد المصريين من (ابن عمرو بن العاص) قائلاً له: "متى اسْتَعْبَدْتُمُ الناسَ وقد وَلَدَتْهُمْ أمهاتُهم أحرارًا"؟ وخطب يومًا فقال:

"أيها الناس: إني والله ما أرسل عُمَّالاً إليكم ليضربوا أَبْشَارَكُمْ، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكني أرسلهم إليكم لِيُعَلِّمُوكُمْ دينكم وسُنَّتَكُمْ، ويقضوا بينكم بالحق، ويحكموا بينكم بالعدل، فمن فُعِلَ به شيء سوى ذلك فليرفعه إِلَيّ، فَوَالَّذِي نفس عمر بيده لأُقُصَّنَّهُ منه (أي لأَجْعَلَنَّهُ يَقْتَصُّ منه، أي يضربه كما ضربه).

فوقف (عمرو بن العاص) فقال: يا أمير المؤمنين: أَرَأَيْتَ إن كان رجل من أمراء المسلمين على رَعِيَّتِه، فأَدَّبَ بعضَهم، إنك لَتَقُصَّنَّهُ منه؟

فقال عمرو: "إي، والذي نفس عمر بيده، إني لأَقُصَّنَّهُ منه. وقد رأيتُ رسول الله ﷺ يَقُصُّ من نفسه".

فالشريعة الإسلامية لا ترمى إلى تحقيق العدالة بأَخَصِّ معانيها. وأين هذا من

الشرائع الوَضْعِيَّةِ التي تَقَدَّمَتْهَا، وهي لا تنظر إلى العدالة إلا من خلال حُجُبٍ كثيفةٍ من السيادة القومية، والفَوَارِقِ الطائفية، والامتيازات الوضعية؟ فإذا كانت العدالة في الشريعة الإسلامية تُعْتَبَرُ أمرًا عمليًّا لا مَعْدَى عنه على إطلاقه، فإنها في الشرائع الوضعية تُعَدُّ مَثَلاً أعلى يتقرب منه ولا يوصل إليه، والفرق بين الحالتين كما بين الحقيقة الواقعة والخيال. ومدى هذا الفرق يَتَبَيَّنُ من الحادثة الآتية:

أسلم (جبلة بن الأيهم) ملك غسان وكان نَصْرَانِيًّا، وبينما هو يطوف بالبيت وَطِئَ بَدَوِيٌّ على ذيل ردائه. فعزَّ ذلك على (جبلة) فلَطَمَ البدويَّ على وجهه، فرفع هذا أَمْرَهُ إلى عمر، فأحضر جبلة وسأله، فاعترف، فحكم عليه أن يَلْطِمَهُ البدويُّ كما فعل به. فقال له (جبلة): أَتُسَوُّونَ بين السُّوقَةِ والملوك؟ فقال له أمير المؤمنين: ليس في الإسلام أمام العدالة سيد ومَسُود.

فعمر طَبَّقَ المثل الأعلى من العدالة، لم تقطعه عنها المُلاَبَسَاتُ والأوضاع البشرية، ولكن هذا التطبيق مُحَالٌ في جميع الشرائع الوَضْعِيَّة، وربما عَدَّهُ بعضُهم لغَلَبَةِ الأَهْوَاءِ على نفوسهم عملاً وَحْشِيًّا.

فأساس العدالة في الشريعة الإسلامية تطبيق المَثَلِ الأعلى نفسه، ولكن أساسها في الشرائع الوضعية تطبيق ما يُقَرِّبُ منه، وربما قذفت بها الأحوال إلى ما يُبْعِدُ عنه. وهذا مُشَاهَدٌ محسوس حتى في شرائع هذا العصر، فما ظَنُّكَ بشريعتَيِ اليونان أو الرومان في العصور البعيدة عنا؟

فكيف يطوف برأسِ مُتَخَيِّلٍ أن الشريعة الإسلامية مُشْتَقَّةٌ من الشريعة الرومانية، مع اختلافهما في فهم معنى العدالة وتطبيقها؟

فالذي يجُوزُهُ العقلُ أن يَقْتَبِسَ الفُقَهَاءُ من الشرائع السابقة بعض الأساليب والوسائل المُؤَدِّيَةِ لتحقيق الجرائم، أو لكَشْفِ شُبُهَاتِهَا، أو لتنظيم نظر القضايا والمرافعات... إلخ إلخ. كما يقتبس فقهاؤنا الآن الطُّرُقَ الجديدةَ المُفْضِيَةَ إلى تنظيم عمل المحاكم الشرعية. فهذا وأمثاله لا يُقَالُ عنه أَخْذَ شريعةٍ من شريعة، فإن الشرائع شيء وما يُحِيطُ بها من نُظُمِ التحقيق والمرافعات والتطبيق أشياء أخرى لا تَمَسُّ الجَوْهَرَ في شيء، بل لا مَنَاصَ منه لأمة تَنْشَأُ نشأةً جديدة، وقد اقتبس النبي

ﷺ كلَّ ما بَلَغَهُ من الأساليب الحسنة في الحرب، وأمر باقْتِبَاسِ كلِّ حَسَنٍ من كل قَبِيلٍ ولو كان مُشْرِكًا.

نَعُودُ إلى ذِكْرِ جَمْعِ المذاهب الفقهية فنقول: إن تحقيق هذه الرَّغِيبَةِ يُعْتَبَرُ من أَجَلِّ الأعمالِ وأبعدِها أثرًا في خدمة الشريعة الإسلامية. فإذا كان نُجَبَاءُ المسلمين يَنْزِعُونَ اليومَ إلى بناء القوانين والنُّظُمِ على مبادئها القَوِيمَة، فهذا لا يمكن حصوله إلا بعد أن يَتَجَلَّى لأَئِمَّةِ المُشْتَرِعِينَ في هذا العصر أنها أَجْمَعُ الشَّرَائِعِ لأَقْوَمِ الأصول، وأَسْمَى المبادئ الإِشْتِرَاعِيَّة، وهذا لا يتحقق وكُتُبُهَا على الحالة التي هي عليها اليوم من التأليف والوضع، فلابد من إعادة صياغتها على الأسلوب الذي يَأْلَفُهُ جَمْهَرَةُ المُتَعَلِّمِينَ في هذا العهد، ووَضْعِ جميع أصولها ومبادئها مُرَتَّبَةً بحيث يسهل فَهْمُهَا ومراجعتها عند الحاجة، مع التنبيه على مَآخِذِها من الكتاب والسُّنَّةِ والإجماع والقياس، وبَيَانِ وجوه الخلافات في جميع المذاهب وعِلَلِهَا. إذا تَمَّ هذا العمل فلا شَكَّ في أن العالَمَ سيَدْهَشُ من تفوّقها على جميع الشرائع الوضعية، وسَبْقِها إلى الأصول والمبادئ التي تُحْسَبُ عصريةً بحتة، ويكون ذلك بَاعِثًا لأَرَاكِينِ الشئون الفقهية في العالم المُتَمَدِّنِ إلى الاعتراف بفضلها والاقتباس منها، فإن نَزَعْنَا بعد ذلك إلى جَعْلِهَا أُمًّا لقوانيننا ونُظُمِنا، لم يُخَالِجْ أحدًا شَكٌّ في أننا نَتَحَرَّى بذلك أَحْسَنَ المصادر وأَكْمَلَها.

ولكنّا نخالف الدكتور العلاّمة (ذهني بك) في توجيه طلب هذه الرَّغِيبَةِ الكريمة إلى معالي وزير الحقانية، ونرى وُجُوبَ توجيهها لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، فإنه يُعْتَبَرُ قَيِّمَ الشريعة الإسلامية وشيخ أَشْيَاخِها وأعلامها، وهو أَعْرَفُ مِن سواه بالصالحين من رجالها للقيام بهذه المهمة الخطيرة. ومن حُسْنِ الاتِّفاق أن تَصْدُرَ هذه الأمنية في عهد الأستاذ الإمام المُصْلِحِ الكبير (الشيخ المراغي)، فهو يُقَدِّرُ عَظَمَةَ هذا المشروع حَقَّ قَدْرِه، ويستطيع بما أُوتِيهِ من اطِّلاعٍ بعيدِ المدى على أسرار الشريعة، وقُدْرَةٍ فائقةٍ على تَذْلِيلِ العَقَبَاتِ، أنْ يُهَوِّنَ كل صَعب في سبيل تحقيقه، متى رأى أن الوقت قد آنَ للشُّرُوعِ فيه.(١)

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الثامن ـ سنة ١٣٥٦هـ، ص ٢٣.

الإسـلام
وتحرير الفكر الإنسانى
بحوث ودراسات فى الدين والحياة

يتناول الكتاب مجموعة بحوث ودراسات فى الدين والحياة باعتبارها الشغل الشاغل للفكر الإنسانى على مر العصور.. حيث كانت هموم المسلمين فى هذا العالم مصدر تفكير المؤلف - وهو غنى عن التعريف - الذى كان ذا تفاؤل رشيد بمستقبل الإسلام؛ إذ كان يعرف مواطن القوة لدى المسلمين ومواطن الضعف معًا، ويرسم الطريق إلى تعظيم القوة والخلوص من الضعف..

هذا الكتاب يضم هذه المقالات الثرية والمثيرة للجدل، وهى تنقسم إلى قسمين رئيسيين: قسم خاص بالبحوث التوجيهية وقسم آخر خاص بالشخصيات التاريخية، كما تنقسم من حيث الموضوع والهدف مثلما جاء فى المساواة الصحيحة والمساواة الزائفة أو فى علاقة الإسلام بالمسيحية والناموس الأدبى العام، وكيفية النظر إلى الدين من منظور العلم والفلسفة، مبينًا المكانة العالمية للإسلام فى هذا العصر.. وغيرها من موضوعات ملحة تزخر بها صفحات الكتاب.

إن الكتاب ليأتى مؤكدًا تلك الحاجة التى بات العالم كله يدرك ضرورتها فى تلمسه لدين الفطرة، إدراكًا منه للحالة النفسية ومدى تأثيرها فى الأفراد والجماعات.. وغاية الأمل أن يجد القارىء فى هذه الباقة الرائعة من المقالات توجيهًا سديدًا ورشادًا صائبًا، وهى كذلك بكل تأكيد.

الدار المصرية اللبنانية

6222006311728